عواصف الجنين

عباس مدحت البياتي

رواية

أَخلِصْ لربِّك فيما كان مِن عملٍ

ولْيَتَّفِقْ منك إسرارٌ وإعلانُ

فـكلُّ فكـرٍ لغيـرِ اللّهِ وسوسـةٌ

وكلُّ ذكرٍ لغيرِ اللّهِ نسيانُ

- بهاء الدين زهير

عواصف الجنين

رواية

المؤلف

عباس مدحت البياتي

إهداء

هذه الرواية التي تحكي قصة جان مع وليدها منذ اليوم الذي تعلق بأحشائها لغاية الفضاء اهديها لبطلة الرواية ولهنادي التي اشارت لفكرة الراوية. ولكل نساء الأرض...

اهديها لكل فتاة مقبلة على الزواج وأنصحها قراءة الرواية لتزداد ثقة واعتدادا بالنفس، لكل إمرأة تجد ذاتها وقيمتها في محبة زوجها وأولادها.

المقدمة

في عتمةٍ تنبض بالاحتمالات، وفي قلبٍ يتأرجح بين الرجاء والخوف، تنشأ الحكاية. ليست حكاية ولادة، بل انبعاث. ليست عن جسدٍ ينمو، بل عن روحٍ تتشكل في صمتٍ عميق، لا يُدركه إلا من اختبر الأمومة كرحلة وجود، لا كوظيفة بيولوجية.

"عواصف الجنين" ليست رواية عن الحمل، بل عن التغيّر الذي يطرأ على الذات حين تلامس الحياة قبل أن تُولد. عن ذلك الحوار الخفي بين الأم وطفلها، حين يصبح الخيال ساحة لقاء، والمشاعر لغة تواصل، والحب طاقة تعيد تشكيل كل شيء.

ليست هذه الرواية سيرة، ولا خيالًا علميًا، بل تجربة شعورية تتجاوز الزمن والمكان، وتغوص في أعماق العلاقة الأبدية بين الحياة وما قبلها، بين الأم وذاتها، بين الحلم والاحتمال.

لا تقرأها بعينيك فقط... بل دع قلبك يصغي، لأن "عواصف الجنين" ليست رواية تُقرأ، بل تدرك وتدرس وحالة تُعاش.

1- جنان

لم تكن جنان سوى زهرةٍ ندية، تفتحت في ربيعها الأول على ضوء أمنيةٍ لم تكتمل. كانت كأنها نغمةٌ حالمة في سيمفونية الحياة، تتوق إلى دفء الاستقرار، إلى حضن القبول، إلى حياةٍ تشبه القصائد التي كانت تنسجها في خيالها الطفولي. غير أن القدر، بخيوطه الغامضة، كان يطرّز لها دربًا آخر، دربًا يفضي إلى عزلةٍ موحشة، وغربةٍ تتسلل إلى أعماقها كما يتسلل الشتاء إلى قلبٍ بلا مدفأة. أسلمت أمرها لظرفٍ أعسر، رماها في صحراء الصمت كزنبقةٍ ناهدةٍ تعاني الغربة، تعيش في كنف الظنون، وتتنفس من رئة السكون، ضمن دائرة الوحدة ورتابة زمنٍ مغلق لا نافذة فيه للفرح.

وما إن رضيت بتغيير واقعها، وما إن قبلت تبديل منهجها وهي تقف على وتد الأحلام كطائرٍ مهاجر، حتى انقلبت الموازين، وتبدلت الأقدار. كان ذلك تحديدا في العشرين من أيلول عام 2020، حين أبصمت بإبهامها على قسيمة الزواج، دون أن تدري أنها تبصم على بداية رحلةٍ لم تخترها، على واقعٍ سيقلب حياتها رأسًا على عقب، على مصيرٍ يدفعها نحو مجهولٍ لا يشبه الحلم.

كانت تحلم بالدفء، بالحب، بالسكينة، لكنها وجدت نفسها أسيرة القدر، مكبّلةً بالرجاء، كأنها مركبٌ هشٌّ تتلاعب به أمواجٌ غاضبة، دفعتها رياح التغيير نحو واحةٍ من التحدي، دون تكافؤٍ أو سند، لتمضي في دربٍ عقيم لا يشبه طموحها، لتكتب فصولًا من روايةٍ لم تكن سوى بطلتها.

هكذا جَزَلَ الظرفُ رغبتَها، فدفَعَها لتعيش واقعًا جديدًا، مشتّتًا، غريبًا، لم تألفه، ولم تتوقعه. قذف بها المصير كبذرةٍ حرّةٍ في حقلٍ من الحيرة، بلا معينٍ أو سند، أنثى لدنةٌ أُجبرت على التعايش مع خشونةٍ ووحدةٍ مغلقة، مغلّفةٍ بالمفاجآت، أهزلت حيويتها، وخنقت سعادتها، تركتها أسيرة شوقٍ وحنين، وهي تتأمل حبيبها من خلف ستار الغياب.

مع البصمة أضحت مكبّلة اليدين والرجلين، مرميةً في زاويةٍ من كامب المهاجرين، في منطقة شنيبر جنوب شرق ألمانيا، بعيدةً كل البعد عن أحلامها وغاياتها، عن زوجها وعريسها، عن فرحتها وتأملاتها... وهكذا بدأت حياتها مع أول أسبوعٍ من زواجها الميمون.

عندها أدركت وزوجها، كأنها بزواجها قد جنت على نفسها براقش، وأن الحياة التي حلمت بها لم تكن سوى سرابٍ تلاشى عند أول منعطفٍ من الطريق.

هكذا جار عليها الزمن، فبقيت تلوك رحى قدرها بشيءٍ من العناء والضنك، وكأنها قُيِّدَت بعين القذف والحسد. بدت مرتبكة، مهمومة، لائذة بين جنوح عاطفةٍ أذلّتها، وإغواءِ وجدٍ

شـائكٍ زجّ بهـا خلـف أسـوار أمنياتهـا ورغباتهـا، لتعـيش فتـرةً حرجة، مغشّاةً بحيرةٍ مرّة، بين إسفافٍ ويقظةٍ ووجومٍ غفلة.

وكأنهـا لـم تُصـغِ يومًـا لصـوت العقـل، ولـم تقـرأ تجـارب الأخريـات، ولـم تتأمـل ماضـيًا كـان حـافلًا بـالعِبر. عاشـت بمنـأى عـن الحقيقـة الصـادمة، فـي بقعـة صـماء لا تسـمع فيهـا سـوى صـدى أنفاسـها. عزلـت نفسـها عـن العـالم، خشـية أن تفسـد الأعـين اللماحـة حلمهـا، أن تُصـاب وجنتاهـا ببثـور الحسـد. تجنبـت مهـاوي الشـك، وراوغـت لحظـة التصـادم قـدر اسـتطاعتها، كـي لا ترتـد عليها ظلال الخوف، ولا تحترق بخط النار المحذور.

ومـع ذلـك، وقعـت فـي المطـب. لـم تسـتطع تجـاوز تلـك المنافـذ التـي جعلتهـا أمثولـة الـزمن، علـى صـفحات التجـارب المـرة. تركتهـا الأيـام تشـكو غصّـة قـدرها، وتـئن تحـت وطـأة زمـن مـاجن، باغتهـا دون إرادة منهـا، ودون أن تملـك تغييـر وجـه واقعهـا. بقيـت كغريبـة تائهـة فـي الطريـق، كقشـة تتلاعـب بهـا ريـح الأهـواء. جـاح بهـا القـدر بـين نبـل الأشـواك ولهيـب الأشـواق، بينمـا ظـل صـفير الجنـون يقـرع أذنيهـا بـلا هـوادة، حتـى وهنـت قواهـا، وضـعف عزمها، واشتدت عليها صعقة الآهات والشجن.

كانـت قـد سـاقتها فريـة الأهـواء إلـى فـلاة الصـمت، خلـف أثـر حلـمٍ تأملتـه منـذ الصـغر، لتعـيش سـاعات شـتات مـرة، وهـي لا تـزال نديـة، رطبـة، لـم ينشـف بعـد ثـوب عرسـها مـن فرحـة أول أعتـاب الزفاف.

تلك الفتاة الفاتنة المراءة بين جوقة الفتيات تهجس بها الأرواح كالبدر في إطلالته، وتفتن بها العيون كيفما نظرت، لكنها بقيت معصوبة العينين، مركونة داخل قوس القدر، كحجر لا روح فيها ولا نفس، لا أحد يبالي بها أو يراعي هشاشتها. مغموسة بسكينة لاذعة وصمت مر، كجرح يعاني ألمه تحت وقع وحدة لعينة ماجنة، مليئة بأشواك الشك والريبة.

جنان الفاتنة، حاصرتها أجواء رعناء، غازلها زمن أفن وهموم وعثاء، أزمات تبعت بعضها، وسخط خانق ينهشها من كل صوب. كانت قد ارهقتها وعكة أغْضنت جفنيها، لتجد ذاتها محاطة بفجوة لا تستطيع أن تتجنب مخاوفها. قبعت مجبرة تحت لهاث صبر مر دون أن تجد لحيرتها مخرجا، ولا لصوتها صدى يرتد إليها في تلك الوحدة المقيتة، وهي تشنف الحظ والقدر بعين خجلة..

هكذا ضلعها الظرف لتقضي أياما مريرة في كامب شنيير للمهاجرين وهي تتأمل بزوغ هلال العيد بين مسارات الشك الحزينة ضمن أيامها المنتحرة على رصيف الزمن العابر تتدحرج بين صبر مر وألم بغيض، تتساقط ثوانيه كأحجار مؤذية، شاكية الزمن وروتين ودائرة الهجرة الألمانية التي أخلّتْ بأحلامها وعبثت بأصداف محاسنها؛ تلك التي تمادت في دراسة ملفها، فلم تميزها عن بقية المهاجرين عبر أشهر وشهور.

بقيت تعيش ضعفها، ترنوا إلى شروق شمس الصباح لتذيب صقيع الشتاء المجحف وجلَد الظرف المشين، والقدر المغلق

الـذي رماهـا فـي مسـارات عقيمـة. بـين مـوظفين متـزمتين، لا ينظـرون إلا بعـين واحـدة، لا ينهجـون إلا مـا رسـمته دسـاتيرهم العقيمـة، دون نقـاش أو رأفـة. مـا علـيهم سـوى الالتـزام بالقواعـد بحـذافيرها، وتنفيـذ مـا أُنـيط بهـم، متبعـين إرشـادات دائـرتهم وتعاليمها دون أن يحيدوا عـن المسـار المعتـاد قيد شـعرة. حتـى لـو كـان ذلـك علـى حسـاب الصـحة النفسـية، أو الإنسـانية التـي تتآكـل تحـت وطـأة البيروقراطيـة، فـإنهم ماضـون فـي تطبيـق القـوانين حرفيًا، رغم قناعتهم بعجرفتها.

إنهـا نقطـة تقـاطع الثقافـات، فاصـلة تحـد الشـرق عـن الغـرب، وبدايـة لأقـدار وعقبـات وقـرارات، حيـث يُطلـب مـن الإنسـان تقبـل الصـعاب وتحمـل الصـراعات علـى حسـاب إنسـانيته وحاجاتـه الذاتيـة والبدنيـة والنفسـية والروحيـة. هـذا مـا عمّـق الهـوة بـين المهـاجر والموظـف المسـؤول فـي دائـرة الهجـرة، الـذي يتعامـل مـع المهـاجر بمهنيـة صـارمة، كأنمـا يتعامـل مـع آلـة لا تملـك مشاعر أو أحاسيس.

فـي ظـل هـذا الواقـع، وجـدت جنـان نفسـها أسـيرة عقـد نسـجها الحـظ كيفمـا شـاء، سـجينة قضـبان لـيس لهـا وصـف. لا تـدري كيـف سـتتفكك تلـك العقـد عـن مسـارات حياتهـا، ولا كيـف سـتنتقم لـذاتها مـن ظـرفٍ جـائر أوكـل سـعيها لهمجيـة القـدر وخيبـة المـوظفين. كيـف تتعامـل مـع مـن أوهمهـا بتفـاؤل مخنـوق، مـبهم، مـدفون بـين أوراق أولئك الموظفين؟

كيـف تعـوّض الـنفس الأبيـة عـن أهـم فتـرات حياتهـا، وهـي لا تـزال ترتـدي بدلـة العـرس البيضـاء؟ متـى ستشـفى آلامهـا؟ متـى تشـفق

عليها السماء بنورٍ يسلك بها دروبها المظلمة المجهولة، وهي سائرة على راحلة الصبر والهوان؟ متى سترتدي ذاتها اللطيفة التي اعتادت عليها قبل أن تبصم على عقد القران؟ متى تتحرر من القيود وهي قابعة تحت ظروف شائكة، متقلبة، مخيبة؟

هكذا بقيت تتأمل استفاقة الحظ من سباته، علّه يرشدها إلى وهدة الحياة الطبيعية، قرب زوجها..

هكذا إذًا، مال بها خط الحظ ليسقط من قمة البهجة بها كحجرٍ يهوي إلى جوف القدر المظلم. أغشاها وأغشى أحلامها على حين غفلة، واحتواها في صرة من العذابات، بين رتق يأسٍ مصفر ووحدةٍ دهماء مذلة. زمنٌ جعلها تمسك بدلو حياةٍ مثقوبٍ في يد، وبأحلامٍ وأمنياتٍ في الأخرى، دون أن يمتلئ قِدرها بجزءٍ من رغباتها.

انحرف بها الحظ لتركن ذاتها إلى عزلةٍ مجنونة في غرفةٍ من غرف كامب "شنيبر" السيء الصيت، الواقع في سكسونيا الجنوبية. الكامب بناء ضخم، يتألف من ثلاث بنايات متشابهة، كل منها مكوّنة من خمسة طوابق وعنابر بطول مئة متر، محاطة بسياجٍ حديدي يشبه قضبان السجن، بارتفاع ثلاثة أمتار. أُعدّ في الأصل لاستقبال وتدريب العناصر المستجدة من تلامذة كلية الشرطة، قبل أن تستأجره دائرة الهجرة.

بموقعه العتيد وشكله الكلاسيكي، يبدو الكامب كمنفى للمجرمين والعابثين، لقسوة تضاريسه وقربه من حدود دولة التشيك. يقع فوق هضبة تحيط بها مجموعة من الهضاب والوديان السحيقة،

ويبعد عن مركز المدينة مسافة تتراوح بين أربعة إلى خمسة كيلومترات. المدينة نفسها مغمورة في وديان متشعبة ومنحدرات شتى شمالًا.

التشديد المتبع من قبل إدارة الكامب وحراسه، المستند إلى نظم وقواعد عسكرية صارمة، يزيد من قسوة المكان. يضاف إلى ذلك الطقس البائس والتضاريس المعقدة، ما يجعل الإقامة فيه لا تُطاق. فالمبنى، المُعدّ أساسًا لتدريب تلامذة الشرطة على تحمل الظروف القاسية، لا يصلح لإيواء النساء والأطفال والعجزة. ذلك يُعد مخالفةً صريحةً للإنسانية.

وضعت جنان في هذا القفص، لا لتُحبس، بل لتُدرس من جانب دائرة الهجرة، بعد أسبوعٍ فقط من دخولها القفص الذهبي. هجست به قفصًا مجنونًا لا يرقى إلى حقيقة اسمه، إذ سُفَّ زفافها وفرحها وثوبها الناصع كما يُسفُّ الحلم في مجنٍ أودى بأحلامها إلى فجٍّ من اليأس، وهي لا تزال برعمًا في أوج فتنتها، بين يدي الزمن. كانت لا تزال وردةً مزهوةً بحمرة خدودها، ترتع في ألق شبابها، في قمة ابتهاجها واغتباطها وشغفها بالحياة الزوجية. حبورة، جذلة، رقيقة، حالمة، لينة. لا يزال دبق العسل عالقًا في ثنايا مفاتنها يقدح بفيض الانوثة، وفي ملامح وجهها المشرق، وفي رضاب شفتيها الكرزية ترى لمعة منه.

ذلك الحلم الذي انتظرته طويلًا، وتغنّت به منذ أن كانت صبيةً دون البلوغ، منذ أن وعت وصبّت في جنة الوالدين، في جنينة لبنان العالقة في ثنايا خيالها، وفي شعرها الفاحم كمشطٍ عاجي. تلك الصورة القابعة في عينيها الواسعتين، كلحاظها ولمعتها، تكدّرت وصارت بلون قفصٍ شنيبر، أعتم وأغمّ.

كانت جنان، ولم تزل، تتأمل حياةً أوسع، حياةً تسعدها وتغمرها باللذة والمحبة والرعشة اللازبة في قوام جسدها الرشيق، الجميل الطلعة. مراقة في إغواء حركاتها المستهامة، وفي نظرات عينيها الغضيضتين، كأنها ترسل إشارات لا تُقرأ إلا بلغة الشغف. كانت مزهوةً بالسحر والضياء، بالرقة والهناء، خلجةً في صفاتها، خجلةً في رغباتها، هائمةً بمحبتها، شاردة الذهن، مستظلةً بأحلامها، متيمةً، دنفة، لدنة، طرية، فكهة، شبقة، تهجس بها كمصباح طريقٍ. لا أحد يشعر بمعاناتها أو وحدتها.

بقيت جنان لائذةً في الكامب، على ما كانت عليه: صماء عن الحياة، لم تأخذ من دورة الحب سوى رشفةٍ علقت برضاب شفتيها الهدلتين، موشحةً بالبهاء والشوق الذي يتلألأ في صفاء عينيها، كصفة سواد قرنيتها الذي يزيدها فتنةً وجمالًا. ذلك الألق البدوي اللازب بها لم يخفَ سحره ولا وطأته في لاحظ عينيها قط، تهجس بها، تفتن الفتيات قبل الذكور، وهي كزنبقة البراري: بارقة، مضيئة، شبقة، تستهوي الناظرين برقة حديثها، وحلو عشرتها، وفتنة مفاتنها، وجمال قدّها الميّاس.

بالطيب الذي يكتنفها كانت قد أسرت مراوديها. وعلى ضوء ذلك السحر والبهاء، بقيت تعيش أجمل فترات العمر، متقوقعةً في غرفتها الكئيبة، بصحبة زميلتيها هنادي وأميمة، اللتين آزرتاها وصادقتاها، فكنّ لها ظلًا حنونًا في زمنٍ شحيح بالعطف.

وعندما تكون بذاتها في غرفتها تتفقد النافذة الوحيدة المطلة على جهة المدينة البعيدة والطريق المشجر بأشجار الصفصاف والصنوبر. المكان جعلها تحلم بالحرية كالعصافير وهي تتأمل زقزقتها وصدح الطيور الغريبة التي تزر المكان خلال موسم الشتاء والربيع وهي تمر بها في طريق هجرتها، فتبدو وكأنها تصاحبها، تشعر بذاتها طليقة، تهجس بذاتها ترفرف مع طيور البراري السعيدة الخضيري والزرزور والسنونو وغيرها... سرعان ما يغزها ألم الفراق حين تتكفأ على نفسها متذكرة زوجها الذي يزورها بطيفه دون موعد، وذلك حين تجد حمامة ترتع برفقة رفيقها وهنَّ يتجولن في الرقعة الخضراء، فيعود اليها الوجس حسرة وتألما، تقيدها بالروتين الدائر في الكامب فتزداد شوقا وتحنانا لحضن الحبيب.

لم يخفت رنين الشوق عن وقع قدميها قط، إذ كانت خطواتها دومًا تنساب نحو وهدة السكينة والصمت. هناك، في تلك اللحظات المنبثقة من دقائق وثوانٍ، كانت تهيم بخيالها، تقوده هواجسها ومشاعرها إلى باحة الحبيب، فتغرق في هوس طيفه، وتذوب في هواه. لا يعيدها إلى عالمها المادي سوى إغفاءة خاطفة تسرقها من شرودها، أو طارئ يطرق بابها دون موعد.

لقد شاقها الحظ، فنسج ضفيرة صبرها بخيوط من العناء والكرب، حتى اختنقت أحلامها في مساءات الحسرات والألم. هجست بذبول لون شبابها بعد وصولها إلى الكامب بفترة وجيزة، وكأنها ندمت على استعجالها الزواج قبل أن تستكمل دائرة الهجرة إجراءات الإقامة وملحقاتها المعقدة. لم تتحسب لروتينية الإجراءات الألمانية، خاصة النفس الطويل الذي تتعامل به مع العرب والمسلمين، فجاءت النتائج عكس توقعاتها، وتناقضت مع رغباتها النفسية.

اختلطت عليها التصورات، وتاهت الحلول، حتى غدت كعجينة الورق، تسطر عليها الأحداث والأقدار كيفما تشاء. باتت رقعة مجدولة في دورق الشك، مليئة بالعُقد، بلا خيوط تفكها، ولا يد تنتشلها من غرقها.

جنحت خلف الحلم، خلف لذة غريزية عصفت بها، فانحرفت بوصلة المسارات نحو خندق العقد دون إرادة. لم تحسب حسابًا لتلك العقد، ولم تتوقع أن تُلقى في كامب شنيبر دون أهتمام، وهي لم تكمل أسبوعا من شهر عسلها. تزوجت في لايبزك بعقد قران السيد دون عقد رسمي، المدينة التي تبعد نحو 140 كم عن شنيبر، إذ لم تُمنح تصريحًا بالإقامة، فظل القانون الألماني بعيدًا عنها. لم تكن تعرف شيئًا عن شنيبر، ولا عن قسوتها، لكن القدر ساقها إلى منفى لم تسمع به من قبل، بعيد عن المدن، وعن زوجها، وعن كل ما حلمت به.

جاءت التقديرات على عكس جدولة حياتها وما تشتهيه النفس، لذا وجدت ذاتها تدور في دوامة مفرغة من الخيارات، بين عُقد

لا مفـك منهـا أفرزهـا الظـرف المحـيط بهـا، وبـين أن تقبـل الواقـع المر بأن ترفض وترحل لبلدها لبنان.

حـين حضـرت إلـى ألمانيـا، حضـرت كضـيفة شـرف، كحمامـة حالمـة، مـرآة الأمنيـات معلقـة فـي جيـدها. جـاءت تحجـل بالأمـل، لتبجـل عمرهـا العشـرين بطـوق الياسـمين، بفرحـة تنقلهـا إلـى ضـفاف الألـق، برفقـة حبيبهـا الـذي مـلأ قلبهـا شـغاف حـب وأشـواق جمـة. جـاءت مزهـوة بفتنـة خضـلة، بطفولتهـا ومجانتهـا، لتـدخل عالم الفردوس الذي تحلم به كل فتاة في مقتبل العمر.

ذلـك الفـردوس تخيلتـه منـذ طـور المراهقـة، مـذ كانـت صـبية فـي الخامسـة عشـرة، قبسًـا يضـيء حياتهـا فـي عـالم الفانتازيـا. فـتن الـود جسـدها حـين تـوردت حلماتهـا بلهـب الشـوق، وتغيـرت طباعهـا مـذ عرفـت معنـى الحـب، حـين مسـت حـرارة الشـوق وجناتهـا، حـين هجسـت بـه يغشـي ملامحهـا فـي المـرآة. وجـدت فـي سـيقانها ثـورة شـبق وضـياء أنوثـة، حثتهـا علـى تسـلق الأفـق قبـل أن يجلّهـا الـزمن. كـان قـد أضـطرم النـار فـي فتيـل مباهجهـا، اضـطربت، صـاخت المشـاعر فـي جحرهـا، وهـي تجـوب مرافـئ الفرص بحثًا عن فارس يلجمها. .

فـي مخيلتهـا، رسـمت بيتهـا وحـديقتها بريشـة عاشـقة، جمعـت ورود الأحـلام لتعلقهـا قناديـل ود علـى أغصـان شـجرة المـيلاد الجديـدة. فـي سـرها، علّقـت عليهـا صـور المحبـة بلـون الربيـع، وهي في ربيع سحرها وفتنتها.

مـذ تلـك اللحظـة بـدأت تغـزل بسـاط الأحـلام فـي فلـك غزلهـا، بغـت تـدرك الغـد المميـز مـن حياتهـا بشـكل مبكـر، لتجـد ذاتهـا فـي نهايـة الطريـق مركونـة فـي ركـن معـزول محـاط بأسـيجة حديديـة يصـعب علـى الطيـر أن يفـل منهـا. حـزن مغـتم اصـاب قـدرها، هجسـت بـذاتها نبتـة زرعـت فـي غيـر موضـعها، فـي صـفحة لا تـوائم فتنتهـا، فـي أجـواء لا تتـنفس هـواء نقيـا، لا تسـتطيع أن تفتـك من قيد أسرها.

ظلـت تلـك الزنبقـة تـئن تحـت وطـأة قـرارات دائـرة الهجـرة القاسـية، التـي لا تعبـأ بالفروقـات الفرديـة بـين المهـاجرين، ولا تميـز بـين الجنسـين، ولا تراعـي رقـة الأنثـى ولا هشاشـة أحلامهـا. لا توجـد فـي قواميسـهم مكانـا لمـا يُعـدّ عيبًـا أو مخجـلاً، ولا اعتبـار لعـادات الشـرقيين أو خصوصـياتهم، ولا تفرقـة بـين مـا هـو إنسـاني ومـا هـو جـافٌ مـن الإنسـانية. قـوانين عميـاء، لا تـرى إلا الحـرف، حتـى بـدا الكلـب فـي عـرفهم أكثـر اعتـزازًا وتقـديرًا مـن البشر.

هكـذا ظـل الحـال، لا يرقـى إلـى حـدود الأمـاني، حتـى تُـدرس ملفـات طـالبي اللجـوء كـلٌ علـى إنفـراد. ذلـك مـا لـم تدركـه، ذلـك مـا أنهكهـا، فخـف ضـوء عطرهـا وتلاشـى وهجهـا. تقبّلـت الأقـدار مكرهـة، ورأت أحلامهـا تُـداس تحـت أقـدام حـرس الكامـب ومـوظفي الهجـرة دون أن تنـبس ببنـت شـفة. صـبرت كالصـبّار فـي الفـلاة، حتـى أكـل الصـبر المـرّ فتنـة جسـدها الرشـيق، وطمـس سحرها قدرٌ جائرٌ شاقها.

ذبلت ورود خدّيها، تعصفرت وجناتها بلون الورس والزعفران، وتصدّعت فتنتها وهي في أوج شبابها وألقها، لائذةً في غرفة من غرف الكامب الكئيب لوذ الحمائم بين الماء والطين. بدا المكان الذي ركنت إليه سجنًا دميمًا، حاصرها وحاصر رغباتها، ولولا نورها المسرج لا تهجّس بالضوء يسرج في سراجه، كأنه يستنبط الطاقة من زيت فتنتها.

القدر قرض أنفاسها، وأذل جبروتها وهي غير متهيئة لملاقاته. نتيجة مخططٍ غير مدروس، لم يعد الظرف يصالح ذاتها، حتى غزا الشيب فكرها، بعد أن جفّت ينابيع الذهن.

في الحقيقة، الكامب الذي وُضعت فيه لم يكن سوى ملحق لتدريب وتأهيل الضباط المستجدين من صنف ضباط الشرطة. مكانٌ يجمع كل ما هو عجف، مقرف، ثقيل، ودميم، أُعد خصيصًا لتعليم المنتسبين على تحمل الصعاب، العناء، المشقة، القسوة، الأناة، الجلد، والصبر المرّ. إنه موضع يتصف بالقسوة والمشقة، مهيأ لتهيئة رجال العسكر الذين ينامون ببساطيرهم، وقد لفّهم غل التعب والجوع، مهيأ لتدريبهم على أقسى درجات النظام والتحمل، على مواجهة الطقس المتقلب والتضاريس المتشعبة، على بناء الرجولة والرجال الأشداء، على فرض الصلابة والحدة والشدة.

لكن هذا الموضع لم يكن مهيأ لعلاج تقرحات الروح، ولا لاحتضان نار الهوى والوجد والشوق، ولا لتشريق البسمة أو تضميد الاعتلالات النفسية التي يعانيها المهاجر جراء تردي أوضاع بلاده وأحواله الخاصة. لقد تحوّل المكان إلى غصّة،

إلى مكتبّ نفايات، إلى موضع لدرء المهاجرين، لا أكثر. مجرد سكن مؤقت لمن دخلوا البلاد دون إذن، ريثما تُدرس ملفاتهم لتقرير مصيرهم القانوني، وهي دراسة قد تطول سنة أو أكثر، ولا تقل عن ثلاثة أشهر قط.

وهكذا، اضطرت أن تركب مركب الصبر دون نوتيٍ يرشدها لتجنب مطبّات القدر، لتجد نفسها أسيرة الوحدة في غرفة تعيسة من غرف المبنى. الكامب يبعد عن مركز المدينة المغشاة بتضاريس ووديان معقدة قرابة أربعة كيلومترات، دون مواصلات يسيرة، فلا يمر في الموضع سوى باص واحد كل ساعتين، أي أنه أشبه بالمعتقل، معزول تمامًا. أما أقرب نقطة مواصلات، فتبعد عن باب الكامب مسافة كيلومتر كامل.

الطريق المؤدي إلى مدينة شنيبر عبارة عن شارع منحدر بانحدار قاسٍ، تتراوح ميوله بين 10 إلى 30 درجة، ما يجعل الذهاب إليه أشبه بالتدحرج كحجر ساقط من قمة، أما العودة فمضنية، لا يقدر عليها إلا من امتلك قوة شبابية تعادل عشرة أحصنة. شنيبر، ذلك الاسم المرعب، تعني "مدينة الثلج"، لكثرة ما يغمرها الشتاء من ثلوج كثيفة، أضحت عقدة المهاجر.

كانت جنان قد استُدعيت من لبنان على يد خطيبها أحمد، المقيم في ألمانيا، بغرض ترتيب أمور الزواج. لكنها اضطرت إلى القبول بعقد زواج عرفي، إذ لم يكن بالإمكان تسجيل عقد القران رسميًا في المحاكم الألمانية، وهي لا تزال أسيرة القدر، لا تحمل صفة لاجئة قانونية، ولا تملك إقامة تخولها ذلك.

ولتثبيت عقد الزواج في سجلات الدولة، كان عليها أن تتحمل المشاق، وتحصل على الإقامة أو تُسجل كلاجئة لدى دائرة الهجرة. وهذا يتطلب صبرًا أيوبياً، فالأمر قد يستغرق شهورًا، أو سنة، أو حتى أكثر، تبعًا لسياسات الدولة، ومزاج موظفي الهجرة، وتعقيدات القوانين، ودرجة التفاضل بين الجنسيات.

العصا العنصرية تلعب دورًا خفيًا في تسليك الأمور؛ فالأوروبيون لهم الحظوة، والجنسيات الآسيوية والأفريقية تُدفع إلى ذيل القائمة. كانت الأولوية للأوكرانيين والسوريين والإثيوبيين، وفق تصنيف أمريكا والصهيونية للإنسانية. كما أن للكنيسة دورًا في تفضيل من يترك الإسلام وينتمي للمسيحية.

وهكذا، بقيت جنان تعاني الأمر، تنتظر أن تُمنح صفة لاجئة رسمية، لتتمكن من تدوين عقد قرانها في سجلات الدولة، وتخرج من أسر الانتظار إلى رحاب الحياة.

تراكبت مكعبات العقد في طريقها مع دخولها الأراضي الألمانية دون تخطيط مسبق من قبلها أو من قبل زوجها. كانت قد جازفت بالهجرة بعد سنوات من المعاناة، أنهكتها لاعج الحب والأشواق التي جمعتها به على سفرة الحدث من جهة، ومن عقدة السفر والمعيشة بحرية في ألمانيا من جهة أخرى. لقد بان ظفر سيف القلب على حسام العقل، فغلبت العاطفة منطق التروي.

تصفحت قدرها في سجل الأيام والسنين، فوجدته معلقًا في هامش الذاكرة، في مفازة جدلتها ضفائر حب لم تستطع تخطيها أو مقاومة أزماتها. قررت أن تجازف بفتنتها، وتنقل موروثها النفسي والفكري والقلبي إلى ضفة الأحلام. لكن الزمن حاصرها في زاوية الأشواق، فوجدت نفسها مجدولة بين مطرقة القلب وسندان العقد، محجرة بين شبح الفراق وغصة الهيام، لا يشكمها استقرار، ولا يحتضنها وئام.

تكدرت حالتها النفسية مع توالي الأيام، وصُعقت بما واجهته من رزء وعقد، وصعبت عليها مهمة التأقلم مع تفاقم المعوقات، نتيجة سعة الفراغ الذي وُضعت فيه ولسعة الفراق الجانح عن حبيبها. بقيت مشتتة الذهن، عاجزة عن لملمة أجزاء فكرها المتناثر بين أشواك الحلم الفسيح وقوقعة الواقع الضيق المرير. هجست بفلتان خرز الحلم من بين أصابعها، تماهت متطلباتها النفسية في سديم الفراغ، كهباب تلاشى تحت نظر العين الداخلية.

تراكمت عقدها النفسية داخل ذاتها، امتدت حتى باب الرجاء، أودت بها إلى نسيان ذاتها وأشواق الحبيب، بفعل همجية الشقاء والعناء الذي حصدته. شُتِت ذهنها، شكّت في وجودها، فلم تجد على شجرة المحبة التي تأملتها بلبل الشوق يطربها، ولا أحسّت بورق الحنين يظلّ عاطفتها.

على الرغم من محاولاتها البسيطة للتأقلم، كانت قد كسرت بعض أطواق العقد الصغيرة، سدت بها ثغرات جانبية لتحتمل شجون الوحدة والغربة، إذ وجدت في صحبة بعض فتيات

الكامب عزاءً مؤقتًا، إذ كن يشاركنها ذات الظرف والقلق. إلا أنهن لن يملأن فراغ قلبها، ولن يغنين لحظة من الحب، ولن يعوضن ليلة واحدة من ليالي الأنس في كنف زوجها. كانت قد أجبرت على جرع أقراص الصبر، وسرط حبوب تهدئة الأعصاب والنوم، علّها تمسك بتلابيب الفرج، وتعتلي سنم الحياة من جديد.

غدت في حساباتها كروزنامة تستقطب الزمن بثوانيه، تترقب قدوم اليوم الجديد بتأمل، بمنظار صبر مرّ عبر ثغرات الصمت الدقيقة المبثوثة في نافذة الفكر، والسلوى التي تشغل بالها. تعلقت كعقدة الجدائل بضفيرة الحلم، ساعية في محاولاتها الملحة خلف حبيبها بشيء من المداهنة والرقة والمحبة. طرقت أبواب الشوق برجاء الهاتف الذي لم يهدأ صفيره، صاحبت فتيات الكامب ليخففن عنها وعن أنفسهن زجل الوحدة والكآبة.

أصبح الهاتف رفيقها وعشيقها وصديقها وحبيبها، صار ذا أهمية كبرى لقتل الفراغ اللعين، والمعين الأوحد في منهجها وتسليتها. به تسلك الساعات الدميمة، وبه تنعم بصوت الحبيب، رغم ضعف الشبكة التي لا تفي بالغرض ولا تشفي غليلها. عبره تمكنت من الإفلات من قبضة السجن، لتحلق خارج أسواره كطير يجوب مواقع مآربها، وما إن يكف الهاتف عن لجلجته، حتى تعود أدراجها خنوعة إلى داخل ذلك السجن، مقيدة بقواعده وسلاسله.

فكرت أن تمتهن سلوكًا آخر، أن تخرج عن النص، أن تهرب من الكامب لأيام، علّها تجد في نبع الحب ما يشفي غليلها.

غابت ثلاثة أيام، قضتها خارج جحرها، بين ثنايا الشوق في كنف زوجها، عدّتها نقاهة تعيد لها بهاءها المنسي.

لكن الأيام لا تُهادن. بدأت العقد تتراكم في طرقاتها كركام النفايات، كلما أزالت إربًا منها، تفاقمت أخرى بصمت سرها، كخلايا السرطان تربك ذاتها. تحوّل يومها إلى مكب نفايات من العقد النفسية، حاولت أن تعالج مرامها، لكن الغاية كانت ضبابية الشكل، لا تُدرك إلا نادرًا.

تحوّلت حياة الكامب من صفاء إلى رجاء، ومن رجاء إلى ملل، ومن ثم إلى رتابة مملة. حتى مهاتفة زوجها باتت تكرارًا للأحاديث ذاتها، طرحًا للعُقد دون علاج، روتينه لا يختلف عن روتين جدول الطعام في الفطور والعشاء، حيث غابت نغمة الشهوة، حلّ محلها روتين الصمت الذي لا يرحم. الطعام بلا تجديد، والغداء باهت الطعم، الحالة تتبع أوامر صارمة من إدارة الشركة التي تبحث عن المادة قدر الجودة. الأجواء مخلخلة، في ظل وحدة قاسية. تراكمت الأعباء، حتى صارت تمتهن العقد: نفسية، ذهنية، جسدية، اجتماعية، وغريزية. زادها عقدا تعامل رجال المارتيزر الجاف، أولئك الحراس المتخمين بعقد القوانين العقيمة، عبئًا فوق عبء. المكان نفسه كان خانقًا، يضغط على الذات ويشوّه وجه التأمل.

كل ذلك تحوّل إلى فسيفساء من القتم والجزم والرعناء والعناء، تفقع قواقع تأملاتها يومًا بعد يوم، لتعيش مجبرة وسط شرذمة من المهاجرين المختلين والمختلفين في ألوانهم وسلوكياتهم

وطبـاعهم. أحـاط بهـا رتـم غريـب، يزيـد مـن أرقهـا وعنائهـا وكدرها النفسي.

هكـذا بقيـت الأمـور معلقـة علـى حبـال الصـبر دون تجديـد فـي جـدول مغريـات الحيـاة والتـي لا ترتقـي لنفسـيتها، بقيـت لفتـرة تزيـد عـن أربعـة أشـهر ونصـف بـذات الـنهج، خاصـة كـان الطقـس يمـر فـي موجـة سـبات كئيبـة مـن فتـرات الشـتاء القـارص، وبالـذات فـي تلـك السـنة الغريبـة 20 - 21 بطقسـها وأمراضـها بعـد أن تفشـت جائحـة فـايروس كورونـا اللعـين الـذي خنـق الحيـاة علـى البشـر فـي كافـة أنحـاء الكـون، والـذي توافـق مـع شـتاء قـارص طويـل جـدا، حيـث الأمطـار والثلـوج دكـت الحيـاة بـروتين ممـل، ابتـدأت مـن شـهر العاشـر ولنهايـة الشـهر الرابـع مـن السـنة الجديـدة، لقـد ابتـدأت الغيـوم بـزخ الامطـار والثلـوج بوقـت مبكـر جـدا، بحيـث علـى مـدى خمشـة أشـهر لـم نـرَ قـرص الشـمس فـي السـماء إلا مـرة أو مـرتين. فتـرة توقفـت بهـا الحيـاة تمامـا، فتكـت بالمجتمعـات، توقفـت النشـاطات فـي كافـة مجالاتهـا، وبالـذات فـي شـنيير التـي يرتفـع بهـا الثلج بارتفاع قدم عن سطح الارض.

فـي تلـك السـنة، بقيـت الثلـوج تغطـي التربـة بشـجنٍ كثيـف، تحـيط المكـان ببحـرٍ ناصـع البيـاض امتـدت لخمسـة أشـهر متواصـلة، وكأنهـا تفـرض حصـارًا نفسـيًا يزيـد مـن قبضـة يـأس الكامـب الـذي وضـعت فيـه، تلـك الأجـواء منحـت السـجانين راحـة فـي المراقبـة وسلطةً مضاعفة على المهاجرين.

غـدت الأجـواء قاسـية حـد القسـوة، صـقيع حـد الانجمـاد، زمهريـر وريـاح عاتيـة ترعـب القلـب، كأنهـا نهـرٌ مـن السـخط يتـدفق مـن

جـوف السـماء. أعاصـير ثلجيـة وزخـات مطـر تكـاد لا تهـدأ، تهجس بهـا محملـة بـأهوالٍ لا تخـف وطأتهـا. تحولـت البيوتـات إلـى مراكـب تائهـة فـي وسـط بحـرٍ ا أبـيض، تـتلاطم أمواجهـا مـع أمـواج الوحدة والجمود، لترسم شكل الكآبة على الوجوه.

الحيـاة داخـل الكامـب متوقفـة بسـبب الملـل والـروتين، يركبهـا جمـودٌ عـام، برفقـة طعـامٌ باهـت لا يثيـر شـهية ولا ينـدى جوعًـا. الفطـور والعشـاء لا تغييـر فيهمـا: صـمونة يابسـة، وعلبـة لبنـة صـغيرة مشـبعة بـالثوم والزعتـر، وعلبـة مربـى قـدر ملعقـة شـاي، وعصـيرٌ اصـطناعي رديء النوعيـة، يولّـد حموضـةً فـي المعـدة لحموضـيته وسـكرياته الحافظـة. أمـا الغـداء، فغالبًـا يقتصـر علـى البطاطـا والمكرونـة، يرافقهـا فخـذ دجـاج أو شـريحة لحـم أرنـب أو بقر، لا تفي بالغرض ولا تنجد الحاجة.

السـبب؟ تلـك الكمبـات تُـدار مـن قبـل شـركات أمنيـة خاصـة، شـركات ربحيـة لا تكتـرث إلا بـالتوازن المـالي الـذي تقتنصـه مـن الحكومـة الألمانيـة. لا تُعنـى بالمصـاريف الإضـافية، ولا تُبـالي بجـودة الحيـاة داخـل الكامـب. ترتـع علـى قمـة المنافسـة الإداريـة مـع شـركات أخـرى. لـذا تـدفع الرشـاوى لمرشـحيها المتسـللين فـي الـدوائر المسـؤولة بطـرقٍ سـرية غيـر شـرعية، لتضـمن اسـتمرار نفوذها واستحواذها على العقود.

بـذا صـارت جنـان تعـاني مـن سـوء التغذيـة، حالهـا حـال الآخـرين؛ حتـى نحـل الجسـد وضـعف البـدن وبهـت رونـق ألقهـا، لقـد افتقـدت الكثيـر مـن فتنتهـا عمـا كانـت عليـه قبـل فتـرة الـزواج، أمتـدَّ ذلـك الضـعف الـى مبـاهج بـدنها، نتيجـة السـهر والأرق والقلـق والجمـود

المستمر في الحالة التي هي عليها، وللقناعة التامة بقدرية الحالة وعقم مفتاح الفرج على المدى القريب.

الظرف جعلها تتقبل الأوضاع على ما هيَّ عليه مضطرة، لغاية الحصول على شهادة حريتها وتقرير مصيرها من قبل دائرة الهجرة، فخلال تلك الفترة اضطرت أن تدعك روتين الأيام بالصمت والأمل، اضطرت إلى مضغ علكة التصبير التي لا بديل عنها، مقابل الصرامة المعلنة من قبل الإدارة بمنع الطبخ الخاص داخل الغرف، على اعتبار الفترة فترة مؤقته، فترة خلخلة وغربلة المهاجرين، فترة بها تدرس دائرة الهجرة ملفاتهم قبل أن تقرر مصيرهم وجدوى بقائهم من عدمه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تجنيب نزلاء الكامب مشاكل الحرائق والتجاوزات التي تحدث من قبل بعض المتطفلين والسذج إلى جانب الروائح الكريهة والدخان الناتج والتدخين الحاصل داخل أجنحة السكن التي يتعمد بها بعض المدمنين على التدخين من قبل المهاجرين، سلوك البعض فيها إساءة إلى الى الذين يبغضون الحشيش والنرجيلة.

والحقيقة المرة عكس ما تدعي الشركة تماما. هي؛ ألا تخسر الشركة مسؤولة اناطة إدارة الكامب كمصدر ربح جارٍ، وذلك إذا ما سمحت للمهاجرين طبخ الغذاء في الغرف فأنها سوف ترمي طبخها على المزابل. ففي تلك الحالة تضطر الشركة إلى غلق مطابخها الخاصة والتي تغدق عليها الكثير من الأموال، إذا ما علمنا بأن نصف مرتب المهاجر يدفع للشركة اجبارا، مقابل توفير الأكل.

بعد مرور شهر من مكوثها في الكامب لم تحتمل منغصاته، هاتفت حبيبها ليزيح عنها كربها وجزعها. وما أن جاءها زائرا؛ حتى فلتت من قبضة الكامب للمرة الثانية بالهرب معه والاختفاء في جوف سعادة مشلولة مدة ثلاثة ايام، فترة كانت بحاجة لها لتعيد نشاطها الزهري لذاتها ولجسدها الظامئ فالغريزة الجنسية ضرورية، تعطي نشاطا معنويا للجسد.

كان لابد لها من الهرب قبل أن تنفجر قروؤها وخاصة أنها تسكن غرفة مفتقرة لأبسط أشياء الترفيه ألا وهو التلفاز، كانت بحاجة إلى اللمسة الحنونة، إلى الحضن الدافئ، إلى استعادة شيء من حيويتها وعاطفتها التي جفت قروؤها على أعتاب الانتظار، كانت قد أضحت في عداد نفسها شجرة ظامئة، منتكسة أغصانها، ودت أن تجدد حيويتها برذاذ الحبيب، كانت بحاجة لروية محبة تزيدها ثقة بالنفس، تهم بها جرع مرارة الصبر...

كما كان لابد لها من العودة للكامب؛ وإلا لن تكمل الهجرة إجراءات اللجوء الخاص بها، بغيابها كانت قد عبثت بحلقات مسلسل روتين الهجرة، بذلك زادت من عقد الضغط عليها لمخالفتها النظام المتبع من قبل الشركة المسؤولة، والتي تضطر إلى رفع تقاريرها اليومية عن المهاجرين المتخلفين عن الحضور لدائرة الهجرة لتتجنب مسؤولياتهم.

حين عادت من جوف الحبيب؛ عوقبت من قبل الشركة بفردها في غرفة معزولة من ناحية المنام والاكل مدة اسبوعين. كانت قد عادت في وضع نفسي افضل، استمرت تلك الحالة فترة

وجيـزة، لتعـود بعـدها لحالـة القـرف والـروتين التـي التصـقت بـذهنها وبمشـوارها وبالاحتكـام بمشـاعرها، بضـنها أضـحت لعبـة صـغيرة بيـد القـدر، ككـرة صـولجان مشـتطة بـين مغـارب الظـرف وعناء تحمل البعد والطقس السيء والغريزة الجنسية.

عنـد عودتهـا، رُكنـت فـي الطـابق الرابـع مـن المبنـى، ضـمن فئـة المحجـورين الـذين خـالفوا شـروط إدارة الكامـب. حُجـرت فـي تلـك الغرفـة دون أن يُسـمح لهـا بحريـة الحركـة، لتجـد نفسـها سـجينة داخـل سـجن، أشـبه بـالمجرمين المحكـومين بـالعزل الانفـرادي. بـات الطعـام يُقدَّم إليهـا فـي علـب جـاهزة، دون السماح لهـا بـدخول باحـة المطعـم. صـارت تخضـع لمراقبـة دقيقـة مـن مشـرفي الكامـب (المـارتيزر)، الـذين يحرصـون علـى تأكيـد وجودهـا فـي غرفتهـا الجديدة.

لـم تتخـلَّ عنهـا زميلتاهـا هنـادي وأميمـة، بـل صـرن يجـتمعن معهـا فـي غرفتهـا أو فـي غرفـة أميمـة، التـي توطـدت علاقتهـا بهـا حتـى غـدت أقـرب إلـى الأخـت. أميمـة فتـاة فاتنـة مـن المغـرب، وهنـادي ابنـة فلسـطين المغتصـبة لا تقـل عنهـا جمـالًا وعفـة. كـن يقضـين أوقـات الفـراغ بالحـديث واللعـب والتسـامر، وأحيانًـا بالتركيـب والطـبخ السـري بعيـدًا عـن أعـين المشـرفين، وخصوصًـا الألمـان مـنهم، لشـدة بأسـهم، كـونهم مـن مـوظفي الشـركة الـدائمين فـي إدارة الكامب.

فالسماح للنـزلاء بـالطبخ داخـل غـرفهم يعنـي تهديـدًا مباشـرًا لنظـام الإدارة، وفراغًـا فـي وظـائف المشـرفين، مـا قـد يـؤدي إلـى تسـريح

عـدد كبيـر مـنهم. لـذا، كـان الطهـي فعـلًا مقاومًـا، صـغيرًا فـي حجمه، كبيرًا في دلالته.

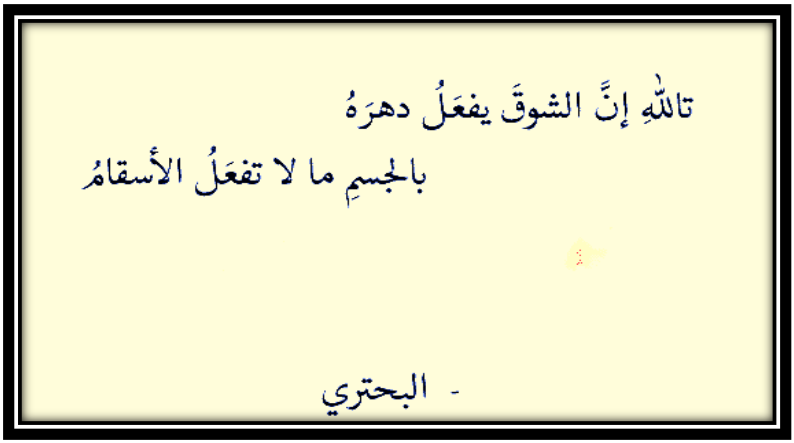

2- الوحشة

جلست ذات صباح على غير عادتها ونشاطها، وقد انتابها صداع شديد أفضى بها إلى الغثيان والتقيؤ. شعرت بوعكة حادة، كأن لوعة تنتفض في أمعائها وتنهك كاهلها. أجبرها المغص على الانكفاء فوق سلة النفايات، تكرر معها ذلك الألم مع ساعات الصباح الأولى، لأيام متتالية. كانت تستيقظ منهكة، مريضة، متعبة، لا تدري أهو فيروس كورونا، أم نزلة برد، أم أزمة نفسية طاحنة؟ لم تستطع أن تقرن السبب، فذهنها مشغول بوحدتها، وحبيبها، وبمصيرها المعلق في ذيل قوانين عقيمة تلتف حول عنقها.

خاصة أنها لم تسجل عقد قرانها في المحاكم الألمانية، بسبب نقص في الوثائق كما أشرنا سابقًا. في بادئ الأمر، عزت حالتها إلى تقلبات الطقس، ذلك الزمهرير الذي لا يرحم، والثلوج المتراكمة كأنها تفور من باطن الأرض، تفيض وتغمر الأفق من كل الجهات. كانت تهجس بها كأنها بطانة من حرير أبيض، نثار غزير يتدفق من جوف الغمائم كندف القطن... الأجواء دائمة الهيجان، عواصف وأمطار وثلوج لا تهدأ، كأن الطبيعة في حالة غضب مستمر.

منذ أكثر من شهر، والثلوج تنثر نثارها فوق الهضاب دون انقطاع، فاعتبرت ما بها مجرد أعراض برد، خاصة أن تدفئة الغرفة لا تقوى على مواجهة غضب الطبيعة. أكاد أجزم أن النزلاء لم يروا قرص الشمس منذ شهرين، إلا مرة واحدة،

ولسويعات قليلة، كأنها أطلت علينا لتشير إلى وجودها، ثم عادت خلف قضبان الغمائم الداكنة ترتب أوضاعها مع الطقس. منذ ذلك الحين، أصبحت علاقة المكان بالشمس علاقة زعل ونفور وقطيعة، علاقة خجلة لا تسعى إلى الاندماج.

من أراد أن يتسوق أو يقضي حاجة، عليه أن يرتدي طبقتين من البجامات تحت البنطال، وسترتين مطريتين مبطنتين بالفرو، ليقي نفسه لسعات البرد وخربشة الصقيع. ومن ينوي زيارة الأسواق، سيجد نفسه مكبلًا بحمل البضائع وسط مسارات ملتوية، قاسية، تتحكم بها تضاريس الأرض، خاصة حين يتجمد الثلج ويصبح جليدا حادا كزجاج مؤذٍ تحت الأقدام، فيتحول الماشي إلى راقص باليه، يترنح ذات اليمين وذات الشمال على رؤوس أصابع قدميه، في مشهد عبثي لا يخلو من الطرافة والألم.

أضحت الألفة بين الأرض والسماء حميمية، كأنّ عشقًا خفيًا يجمعهما في موسم تجاذب عرس نادر. ارتدت الأرض حلتها البيضاء، لتعكس أضواء المصابيح نحو عنان السماء في بهجة النهار كما في أضواء الليل المعتم، فتبدو الدنيا عكس واقعها، مضاءة بانعكاسات وتداخلات الأضواء المشتتة، كأنها تحتفل بمهرجان العرس الكوني. ندف الثلج يتساقط برقة، وأحيانًا تزخ مطرا غزيرًا لأيام مدامة، يغسل عناء الصيف وأدران البشر، فتعم البهجة الأجواء، وتغني الطير، وتبهج الشجر.

كانت تشعر بهذا الدفق من نافذة غرفتها، رغم قسوة البرد في زاوية منها، متلحفة ببطانية مهترئة، مرمية فوق سرير بالٍ.

بين إغفاءة عابرة وتيه في أفكارها المنفلتة نحو عالم الحرية، لم تجد من يعينها على مجاراة الحالة أو تقبل فرضية الواقع براحة بال، تريح بها أعصابها المتوترة.

تلك الظروف جعلتها تكره لون حظها الباهت، العاثر، الذي ساقها إلى هذا المصير دون رضا. شغلتها الوحدة، والجزع، والقرف، والإزعاج، والإهمال، خاصة في ساعات الليل الطويلة، حيث يتكاثف التفكير في إدارة المصير وفي فك العقد. الشمس لا تشرق إلا بعد الثامنة والنصف صباحًا، وتغيب قرابة الثالثة عصرًا، فيخيم الظلام على المكان بعباءة قاتمة لليل طويل دميم، ووحدة مقيتة تحكمها الكآبة.

غدت تنبذ الظلام والوجوم، والعرف الذي شطف أحلامها، وأزاح ستائر الود عن فكرها، حتى تدلقها المجانة نحو منحى آخر، بدأ فكرها يحاربها حيث ينقلها لمفاصل الاحتمالات: احتمال إصابتها بفيروس كورونا، بأعراض تشبه الإنفلونزا وذلك جائز لما رأت بأم عينيها من أناس نفقوا، فقدوا حياتهم بلحظة خاطفة أثر الجائحة الملعونة.

لقد فقدت جنان شهية الطعام، وتكررت نوبات القيء التي تفاجئ معدتها في أوقات متفرقة، تاركة إياها في حالة قلق دائم، خاصة مع تصاعد أعداد الوفيات مثلما تصلها أخبارا عن جائحة كورونا. في ظل وحدة قاسية لا يؤنسها ونيس، بها نسيت أو تناست لذة الابتسامة، والصحبة، وحتى لذة الطعام.

وسط ذلك الروتين القاتم، حاولت أن تستعيد شيئًا من حيويتها بقدح ماء دافئ ممزوج بالليمون، علّه يخفف وطأة الأزمة. لكن القيء استمر صباحًا بعد صباح، لأكثر من أسبوع، ما زاد من قلقها وتجاوز شعورها بالاعتلال إلى خوف حقيقي قبع في ذهنها، الخوف من تفاقم الوضع. فهي ليست بخير، وكل ما تشعر به يدل على خلل ما، يستدعي مراجعة الطبيب، خشية أن تكون ضحية إهمال أو إصابة بجائحة كورونا، خاصة في ظل ارتباك الناس من توسع انتشار المرض وتأثيره، وقلقهم على كبار السن وضعيفي المناعة.

ولكي تهدئ من روعها، شاركت زميلتها هنادي بما تمر به، فحاولت الأخيرة طمأنتها، مرجعة الأمر إلى التعب والإرهاق، محاولةً إعادة الثقة إلى نفسها وصحتها. صارت جنان تحدث ذاتها وتقول:

- اصبري يا جنان، إنها مجرد وعكة برد، ستنتهي مع اكتمال دورتها..

هذا الموقف حرّك أشواق العلاقة من منعطفات الجمود والتقيد. انشغل بالها بالوحدة، وبفراق زوجها، فدغدغت الغريزة منابت الشبق في ذهنها، وفي مواضع الجسد الحساسة، وألهبت نتوءات الشهوة في الأماكن الدبقة، لتستحضر لحظات اللطف والحنان والسعادة التي عاشتها مع زوجها في ليلة الدخلة، حين كانت مغمورة بعاطفة شريك الحياة ودفء حضنه.

ذلك الفراغ ولّد في حياتها تشعبات متداخلة، زادت من تعقيد أزمتها. لم تستطع ملء تلك الفجوات بما يرضي النفس، ولا بما يخفف عنها جزع القدر. ظلت تتنقل بين سلالم الأزمات، تصعد درجة وتنزل أخرى، ترتحل من سطح إلى آخر، من توتر إلى اضطراب، من اختلاط إلى بؤس، ومن مشقة إلى أخرى؛ حتى ملت قدرها، وجزعت من ذاتها ومصيرها، مع توالي أيام الروتين، كبّرت همومها، جعلتها مهزوزة، واضحة للعيان.

ضاقت عليها مجالات الألفة والشجن، وانكشفت عورات الذهن والقلب، حتى باتت الأسرار تكحل العيون، وتختمر الشكوك في قلوب المغرضين. وكأنها خرز عقد تبعثر في طرق شائكة، طمعت بها العيون الشبقة، حين شعرت ببعض شبان الكامب من المهاجرين يودون التحرش بها. فانعزلت، وانكمشت على نفسها، والتصقت بهنادي وأميمة تجنبا لهؤلاء المغامرين، الذين لا يهمهم سوى الغريزة. الوحدة عمّقت مشاعرها، وأحدثت تغيرًا ملموسًا في سلوكها العام مع المحيطين بها.

ومع اتساع الفراغ، اتسع الظن، وتفاقم الشجن. دخلت عقارب العقد مساحات الفراق بصمت وحيرة، تطرق أحاسيسها مطارق خوف ورعب من غدٍ مجهول، لا تدري متى تستتب الأمور وتنتهي أزمتها مع دائرة الهجرة، التي لا تحدد زمنًا في منهجها لأنهاء العقد، لتُنقذ نفسها من شرك التفكير في دائرة الشك والوحدة اللعينة، وعبء مرض كورونا الذي يحيط بها.

متى يأتي ذلك اليوم الذي تنتهي فيه منغصات الحالة، لتعيش حياة طبيعية مثل سائر الزوجات، كملكة على عرشها

ومملكتهـا، كبلقـيس وزنوبيـا وكليوبـاترا؟ لتغـدو فـي عالمهـا المستقل، بعيدًا عـن التـدخلات الخارجيـة، فهـي فـي عـرف زوجهـا لا تختلف عن عشتار في مكانتها لديه.

كل ذلك العصف اجتاح خاطرها، فقالت لزميلتها هنادي:...

- منـذ أن دخلـت مبنـى دائـرة الهجـرة، تغيـرت نفسـيتي... هجست بشيء كتم على أنفاسي..
- أنـا أشـعر بـك كونـك عروسـة، تحتـاجين لرعايـة ومـداراة وعطـف وحنـان وألفـة، انـا أعـرف بـأن العسـر طـال أمـده ولكن لابد من بعد العسر يسر، دعي ايمانك قوي بربك
- والنعم بالله..

كانـت تحـاول أن تطيـب خاطرهـا، وتزيـل عنهـا نشـاز الـزمن الغـابر العـالق فـي فكرهـا وهواجسـها. تفاقمـت أزمتهـا النفسـية تحـت وطـأة الـروتين المسـتعر، خاصـة بعـد أن حُرمـت مـن نقـل إقامتهـا إلـى جانـب زوجهـا القـاطن فـي مدينـة لايبـزك، التـي تبعـد 140 كيلـومترًا عـن كامـب شـنيبر، كمـا أشـرنا سـابقًا. شـعرت بـاختلال حواسـها، وكـأن خلايـا الـذوق والتـذوق قـد تبخـرت، وهـي مركونـة كحجـر زاويـة فـي ركـن مهمـل، بـلا ونـيس أو أنـيس يمـلأ فراغهـا، يـداعبها، يخفـف عنهـا وطـأة العزلـة فـي تلـك الهـوة السـحيقة مـن الـزمن. مهملـة، ضـالعة كالمصـباح الوحيـد الـذي يكـاد نـوره يختنـق فـي جحـره وهـو يعـت غرفتهـا بإنـارة لا تفـي بالغرض في وسط ذلك السدم المحيط بها..

مـا إن تجلـس علـى سـريرها، حتـى تهجـس بـأن سـرائرها قـد اهتـزت، ونواياهـا اهتـرأت، وغاياتهـا تقرحـت. تحولـت سـعادتها إلـى حلقـة مفقـودة ضـمن سلسـلة حيـاة الأسـرة، تلـك الحيـاة التـي ترتـع بالألفـة والمسـامرة. فـي غضـون ذلـك شـعرت بـذاتها تتحلـل كمـادة غازيـة، لتمـوه فـي فضـاء التفكيـر الواسـع كحالـة مـن الصـمت، كـذكرى عـابرة، لمـا أصـابها مـن عسـف وهـوان وضـغط نفسـي وهيـاج غريـزي. تهجـس بـذاتها وكأنهـا قـد تحولـت لشـكل مـن أشـكال الهبـاء فـي ذلـك المـد الفكـري مـن التناقضـات الواسـعة ضـمن صـيغة الحيـاة، لعـدم اسـتقرارها وثبـات تواجـدها فـي أبعـاد العـين والنظـر، إلا كخيـال فـي مخيلـة زوجهـا الغائـب الحاضـر دون فعالية، دون أثر فعلي.

الـروتين الجـائر الـذي انغمسـت فيـه غيّـر طباعهـا، فأضـحت مـرة المـرام، شرسـة الرغبـة، منكسـرة الخـاطر، ضـعيفة الإرادة. كأغصـان شـجر لا تحتمـل عصـف الريـاح، تهـرب إلـى جـوف النوم قدر الإمكان، علّها تنسى مصابها.

أحيانًـا تهجـس بأنهـا مـادة شـمعية تـذوب فـي مكانهـا، لا تظهـر إلا إذا طـرق بـاب غرفتهـا زائـر، كإحـدى صـديقاتها. وأحيانًـا أخـرى، تشـعر بأنهـا جـدار آيـل للسـقوط، أو حجـر مركـون فـي ممـر للمشـاة، بـلا جاذبيـة أو تـأثير، وقـد أصـابها جمـودٌ فـي الحركـة والفكر والحياة.

لـم يبـقَ لهـا مـن لدانـة السـعادة سـوى اسـمها العـالق فـي ثنايـا ثيابهـا، كعـروس لـم ينشـف دبـق العـرس. طغـت عليهـا حيـاة كآبـة ذائبـة فـي خـواء ووجـوم، علقـت بروحهـا كطـوق قـلادة، خـارت بـين الأنـاة

والرجاء، تنظر لذاتها عبر نافذة الصبر كسجينة مقيدة بسلاسل الشوق والمحبة، تنتظر لحظة عصف ترفق بها، تعيد لها بهجتها والحرية المفقودة مع حبيبها.

فُرضت عليها الحالة كقدر لا مفر منه، ظرفٌ قاهر جعل أيامها تنساب في روتين عبثي لا روح فيه. وجدت نفسها أسيرة غرفة لا تنصت لوجعها، تتعامل مع كرسي أجرد لا يبادلها أنينًا، وطاولة مهملة في زاوية تشكو الإهمال كأنها مرآة لخذلانها. قرب النافذة، يرقد سرير منهك يطل على تلول جرداء تحيط بغابة صماء من أشجار الصنوبر والصفصاف، تحمل في صمتها هالة من الجزع والرهبة والجمود، تُشعر الناظر إليها بخمولٍ نفسيٍ وبجحٍ داخليٍ لا يُحتمل. يرافقها في وحدتها دولاب حديدي صديد، صدئ، يصرّ على الوقوف في الزاوية كشبح شاخص، يراقبها بصمت، يستجدي العناية بعدما تراكم عليه الزغب والغبار، كأنه خُلق ليكون شاهدًا على حركاتها، مراقبًا لحالتها كعميلٍ سريٍ لا ينام.

تتساءل: كم من البشر مرّوا على هذه الغرفة؟ كم من جسدٍ نام على هذا السرير واحتضن تلك الوسادة؟ كم من أمنياتٍ وأحلامٍ تدهورت ودفنت في طياتها؟ كم من بشر وضع خده عليها، تهجس بالوسادة كسلة نفايات تراكمت فيها هموم وأهواء وخيلاء وذنوب مئات من العابرين، كلٍ منهم ترك في مفصل الوسادة جزء من مفاصل حياته، ترك في السرير شيء من آلامه وآهاته وعبثه وعنائه وأهوائه وشجنه وقرفه وغاياته وأمنياته، فتجمعت تلك التركة كصيغة وهن.

تجمعت تلك التركة كصيغة وعثاء مريرة، شكلت انعكاساتٍ من الأنفاس والشجون، تتحرر من الوسادة كأنها انبعاثات حرارية وسحرية، عقدٌ غازية صُبّت في جوفها، فزادتها غصةً وحسرةً وألمًا يتغلغل في أعماقها.

أضحت بوحدتها كدمية مهملة فوق فرشة بالية، تصرخ خيوطها من كثرة الدعس والهز والرز، وقد تهلهلت مكنوناتها من الغسل والشطف المتكرر. فالسرير ليس سريرها، والفرشة ليست فرشتها، ولا المخدة التي أسملت خيوطها تخصها، لكثرة ما عبثت بها الأنفاس والأحلام والتهيؤات المختلفة، التي أثّرت فيها وخزقتها، وملأتها بخزين من الكوابيس تفل منها على حين غفلة.

تهجس بالوسادة، تلك التي تنبعث من ثناياها زنّات وهمسات وخرشات وحرشات، كأنها مأوى لعقارب وهوام شيطانية وجنية، تخيفها في وحدتها، وتلسعها في منامها، لما تراكم فيها من غرائز وأفكار هجينة تسافح مخيلتها وتغزوها.

أما تلك الخزانة المركونة في الزاوية، فلا تحمل في جوفها سوى سترة واحدة وحذاء، لضيق حجمها. كأنها خزانة دمى، لا تتسع إلا لعلبة مكياج، مرآة صغيرة، وزجاجة عطر، وزوج أحذية مركونة في قاعدتها. هي الأخرى تكاد تشكو وحدتها، وإهمالها، كما تشكو جنان، لقلة اهتمام الزائرين بها، ولعبثية الحالة والفوضى العامة. خزانة متلبسة بالأنانية، تخص منتسب شرطة، لا عروسًا في شهر عسلها.

هكـذا بـدأت تشـكو ذاتهـا لـذاتها، تلـوم تلـك الأفكـار العبثيـة التـي تجتاحهـا مـن داخلهـا ومحيطهـا دون اسـتئذان، فتجردهـا مـن طبيعتها، وتدفعها نحو اليأس والتجرد والكآبة.

حين زارتها زميلتها هنادي، حكت لها بما يثقل صدرها:...

- يـا هنـادي، أنـا منهكـة نفسـيًا. أحيانًـا أجـدني أكلـم السـرير أو الكرسـي أو الـدولاب الشـاخص أمـامي، وأسـأل نفسـي: كـم ستطول معاناتي مع هذا القدر؟
- كمـا قـال المـارتيزر محمـد (رجـل أمـن)، هـذه مرحلـة مؤقتـة، تـدرس فيهـا دائـرة الهجـرة ملفاتنـا تمهيـدًا لنقلنـا إلـى أماكن ثابتة نمارس فيها حياة طبيعية.
- لكنهم بطيئون جدًا في الإجراءات.
- أوافقـك الـرأي، وعلينـا أن نتحمـل همجيـة القـدر. نحـن مـن قصدناهم، ليس هم من استدعونا.

فـي غمـرة الوحـدة، كانـت تحـاكي السـرير والفرشـة. ومـع سـاعات الليـل، صـارت تشـكو لهمـا عبـث الحيـاة، تجـد نفسـها مقيـدة بقيـود الوسـن، دون أن تغفـو إلا نـادرًا، ودون أن تهجـس بهـدوء يعينهـا على التمعن في ذاتها.

الـروتين جردهـا مـن الإغـراء والأهـواء، كبلهـا بالعنـاد والتصـلب، حتـى فقـدت القـدرة علـى تغييـر مصـيرها أو تحريـك بيـدق رغباتهـا. لـم يعـد الكـرى يزورهـا بطيـف الحبيـب الـذي لا يكـف عـن مشاكسـتها فـي خيالاتهـا. لـم تنسـه قـط، لكـن المعانـاة والوحـدة شـغلتها عنـه، واسـتحوذ المصـير علـى تفكيرهـا، وألهتهـا لحظـات

الغـزل التـي علقـت بهـا، متـذكرة مداعباتـه التـي كانـت تحفزهـا على الصمود والثبات لتجاوز المحنة.

ذلـك مـا أثارهـا، شـغل بالهـا، وأطفـأ شـغفها. فصـار الغضـب جـدار صـد يحـول بينهـا وبـين أعصـابها المرهقـة. وكـأن طيفـه العابـث بمنحـل ذهنهـا، يحـاول أن يمـزق كفـن الفـراغ والفـراق، ليـنعم كطفل بحضنها، وكحمل يسرح في حنانها.

رغـم مأسـاة الوحـدة والعنـاء، بقيـت ملازمـة غرفتهـا كأنهـا صـديقة لهـا، تصـاحب عقـدها، تحـاول فـك أحجيـة كربهـا، تيسـر أوقاتهـا، وتصـبر ذاتهـا علـى مضـض. لـذا تجـدها غالبًـا مسـتاءة مـن النـوم فـي سـريرها، ومـع ذلـك تلجـأ إليـه عسـاه يخفـف عنهـا ضـغوطات الحياة، ويحول وجعها وأحزانها إلى حبور ينسيها محنتها.

حـين وقعـت عيناهـا علـى روايـة طريـق الجحـيم بـين يـدي زميلتهـا هنـادي، طلبتهـا منهـا بشـغف. كانـت تتعلـق بـأي شـيء يبعـد عنهـا ذبـاب التفكيـر، ويجليهـا مـن لسـعة الفـراغ الـذي كبلهـا. أنهـت الروايـة فـي يـوم واحـد، وكأنهـا تـود أن تتشـبث بـأي طـارئ يخفـف عنها منغصاتها.

فـي غرفتهـا، ومـع رتابـة الأيـام، صـارت تهجـس بـذلك الغطـاء العفـن كأنـه يعوضـها حنـان زوجهـا، يحميهـا مـن لسـعة البـرد وكـوابيس الشـتاء، يرفـأ بهـا وهـي مكـورة تحـت شـجون خيوطـه الباليـة كجـوهرة ثمينـة متلألئـة. فهـي بطبعهـا أنثـى ناعمـة، رقيقـة، هادئـة، تهجـس بالقناديـل التـي تسـرق منهـا ومضـاتها. وفـي

عرفها، هي حكيمة، تخلق من شواهد اليأس فتنة وجودها، وتزرع بسمة على شفاهها.

ومع ذلك، تشعر وهي في السرير البالي بلا تميز، كأنها لا تختلف عما تحويه الغرفة من أثاث قديم باهت، بلا صفة تقيمها أو تعتبر لها. اندمجت بأنفاس النفوس التي مرت على الغرفة عبر الزمن، حتى أحالتها تخيلاتها المتشعبة إلى شاخص بلا روح، إلى جانب الدولاب والكرسي والطاولة، كأثاث جامد لا أهمية له.

هجست بذاتها كمكمل من مكملات الغرفة، كأنها قطعة من أثاثها. ففي عالمها المرائي، هي هائمة، كسمكة تجرفها الأمواج إلى حيث المصير، أو كورقة توت لازبة في غراء الطين. ما إن تخرج من محنة العذاب، حتى تغرق في فيض الخيال والجزع، فيصيب فكرها المستشيط ما يصيب الجسد من هرش ونهش وهراء وحدة وتوحد

لانحلال تفكيرها وهوانها، أصيب جسدها المنهك بوجس السهر والأرق. غدت تهجع لملاذ الليل كعاشقةٍ ساهدة، ناهدة، مستاءة من لياليها الطويلة الأدهم. لا تستطيع النوم إلا بعد ساعات متأخرة، وأحيانًا تبقى يقظة حتى تطرق خيوط الفجر جفنيها، نتيجة دوران فكرها بمحاور الحياة الذي أغشاها بالقلق. لذا، كانت تميس الرجاء بحبوبٍ منومة من موظفة الصحة المسؤولة عن شؤون المهاجرين.

مـا إن تضـع رأسـها علـى الوسـادة، حتـى تـرتبط حساسـات فكرهـا بطيـف الحبيـب، كـأن امتـدادات مـن شـعر رأسـها تتصـل بـه لاسلكيًا، لتحكي لـه مـا تلاقيـه ومـا تشـعر بـه. تشـرح لـه عـن أنفـاس رفاقهـا فـي الغرفـة، عـن الهـواجس المدفونـة فـي السـرير والمخـدة، عـن المـآثر المتروكـة فيهـا. لقـد اعتـادت أن تـرى فـي السـرير طـابورًا مـن العشـاق والمحـرومين والسـجناء والمشـردين، ممـن اسـتوقفتهم الظـروف ليكونـوا ضـيوفًا علـى هـذه الوسـادة. هـم ذاتهـم اسـتخدموا ذلـك الـدولاب القـابع أمامهـا، وذات الكرسـي، ليتـأملوا لحظة هناء من تلك النافذة.

لكنهـا تختلـف عـن كـل الـذين وطئـوا هـذه الغرفـة. فهـي لا تتخيـل قـدرها، بـل تلتمسـه، تـرى بـأمّ عينيهـا مـا لا يـراه الآخـرون. لحسـنها وألقهـا، تهجـس بالأشـباح، تعاشـرها دون إرادة، لأنهـا عـروس مكبّلـة بـالهم. تأتيهـا الأطيـاف مـن ثنايـا الغابـة والوديـان المحيطـة، لتـنعم بثـرى فكرهـا وشـعورها، وتلـوذ معهـا تحـت غطائهـا البـالي. ربمـا تخـرج لهـا مـن السـرير، لتشـاركها العاطفـة ومـا تفتقـده كعـروس، فتغـدو فـي يقينهـا مومسًـا لكـل مـن نـام فـي سريرها. ذلك الهاجس كان يحزنها، وهي العفيفة المتدينة.

فـي الوقـت الـذي تلاحـق فيـه صـور زوجهـا فـي مخيلـة المحـيط المـبهم، تلاحـق طيفـه، تتبـع ظلـه، فيختفـي بـين ثنايـا الشـوق واللهفـة، بـين الفكـرة والرغبـة. تغمرهـا هـالات الحـزن، تحـاول جاهـدة طـرد وسـن الحلـم عـن جفنيهـا لتتصـل بـه، لتسـتمر فـي سـعيها خلفـه، حتـى يخيـب ظنهـا فـي ظـل العقـد. حينهـا تهجـس بـه

كهمسة تتماها في غياهب الظن والفكرة، خلف حواجز الرغبة. الوحشة جعلتها تغرق في مجموعة أفكار مفروضة عليها.

لكن الغياب لا يطول، سوى برهة، ليعاود كرّته عليها، كأنه يلاعبها لعبة الغش والاختفاء. يتردد في خيلائها، ويختفي سريعًا حين تقترب هواجسها من ملامسته. هكذا تتجسّم صورته أمام عينيها، ثم تتلاشى. ثم يعاود زياراتها مرةً تلو الأخرى، ليحكي لها قصة شوقه وهيامه وتلهفه ومودته وصبابته. تبتسم له حين يهمس لها بصمته، فتنسى مصابها، وتغرق في أتون الكرى، لائذةً في سرّها بين اليقظة والحلم.

أحيانًا تشعر به يعاتبها، وأحيانًا يعاكسها، فهي بذاتها مفتاح سعادته. ما إن يراودها هذا الإحساس حتى تجفل من غفوتها، لتجد نفسها جالسة في سريرها كمجنونة، شعرها مشعشع منفوش، لا تدري ما تبغي وما تفعل.

لشدة وقع الفراغ وتأثير الوحدة عليها، تعود بعد فترة وجيزة تعانق وسادتها مضطرة، تبحث في صرتها عن ذلك اللغز الذي يثير حفيظتها، الطيف المختبئ في ثنايا فكرها. ما إن تضع خدها على وجه الوسادة، حتى يزورها طيفه في وحدتها، بحرشة تخدش غفوتها، في صمت وجنون يشدها. تشعر بطيفه يخرج من جلدها، من أعماق شعورها ووجدانها، ليستقر في قلبها وذهنها. وما إن يشاقها الوسن، حتى يناور بصوره في سماء ذاتها، يحاكيها، فتحاكيه، وتناجي الوسادة بشيء من الانطواء والرجاء والغضب:

- تـرى، مـا بـكِ يـا وسـادتي؟ لِـمَ تعـامليننـي بارتيـاب وقسـوة؟ لِـمَ تشـعرينني بالوحـدة؟ ألسـتِ صـديقتي فـي الظـرف والمكـان؟ ألسـتِ رفيقتـي حـين تحاصـرني الحجـج؟ أضـع رأسـي فـي حجـرك، فأيـة وسـاوس تخـرج مـن معـدتك؟ أيـة عقـد ترمينهـا فـي طريقـي؟ لا أسـتطيع تحمـل مشـقة هـذا العبـث. كمجنونـة أهجـس بالشـياطين تشـاركني وسـني وغفـوتي، تحتمـي بظلـك، بـت أخـاف منـك، أرتعـب مـن عبثك بأحداقي... يـا تـرى، لِـمَ هذه القسوة؟ لـم أجـد برفقتك سـوى هـواجس تسـرح بأطيـافي لا أحتمـل صـحبتها، لا أحتمـل تلـك الشـرارة التـي تنبعث مـن أعمـاق الظـن الكـامن فـي عالمـك المـوحش. إنـه عـالم ميتـافيزيقي لا يمـت لـي بصـلة، ملـيء بالفنتازيـا، غـارق فـي بحـور الشـك والارتياب والتكهن.

حينهـا، لا تجـد سـوى الصـمت يطغـى علـى أجـواء الغرفـة. ترفـع الهاتف وتتصل بزوجها:

- ألو... أحمد، أنا مشتاقة لك، لا أستطيع النوم.
- وأنـا مشـتاق أكثـر حبيبتـي، تحملـي هـذا العبـث، فـلا حلـول لدينا.
- لأجـل عينيـك سـأتحمل. سـلِّني، قـل لـي كـلام حـب وغـزل، عسى أنسى الوحدة ومنغصاتها.
- أحبـك... أحبـك. أتعلمـين؟ حـين تزقـزق العصـافير عنـد المسـاء، يخطرنـي طـارش يـذكرني بـك، وعنـدما تعـاود الكـرة فـي الصـباح، يجلجلنـي ذلـك الطـارش بحيـث أود

احتضانك لأفض كيس عنائي. ترى، ماذا يبغي مني هذا الفراق وأنا المكبل بمحبتك؟

- الله، حبيبي، قل لي أنت، ماذا يبغي منك؟
- يبغي أن يرى الحبيبة في حضن الحبيب، يتفقد جمالها. فأنا ذلك العصفور الذي يجهش بالبكاء حين يكون وحيدًا، أنا ذلك الطارش المشتاق لسحر عينيك ورقة شفتيك الجميلتين.
- حقًا ما تقول؟
- هل عندك شك بأنك أحلى وأغلى امرأة في الدنيا؟ هل عندك شك في ذلك؟ لولاهما ما فكرت أن أرتبط بك. هما اللتان جذبتا روحي لروحك الترفة، ثم بعد ذلك تعلقت بسر الروح وسحر الجسد ورقة الأنوثة التي لا تشبه غيرها. أنت لستِ زوجتي فحسب، بل حبيبتي وصديقتي وعشيقتي.
- شكرًا لك، الآن منحتني جرعة كافية من الراحة لأتحمل الصبر. الساعة الآن تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، دعني أنام، ولتنام أنت أيضًا، لتذهب إلى عملك في الصباح بذهن متفتح.
- تصبحين على خير.
- وأنت من أهله.

بعد تلك الموجة العارمة من الإرهاصات التي تعصف بها، تعود تدريجيًا إلى سكونها المعتاد. يراودها شعور بأنها انزلقت بعيدًا في دروب الوحشة أكثر مما ينبغي، فتسعى جاهدة لاستعادة توازنها، للانكفاء إلى ذاتها، متجاهلة تلك الأنا

المتسكعة في أزقة الخيال. تود أن تنتشل روحها من متاهات التيه، من قيد الأرق، أن تزيح وشاح الظل الذي أضلّ البصيرة وأرهق الروح.

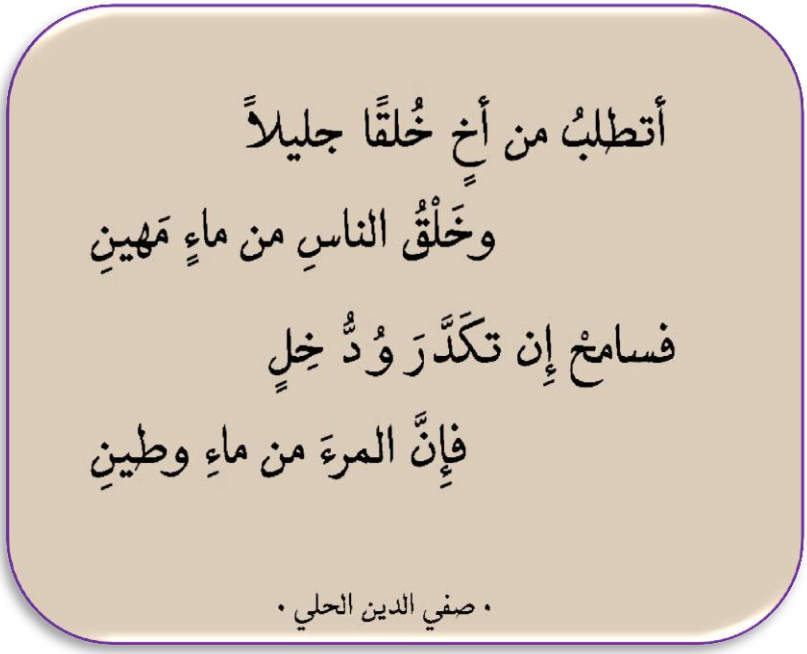

3- الطنطل

في صباحٍ روتيني كئيب، جلست مكدّرة، منزعجة، تدور في مكوك العقد، ينهشها ملٌ راكد في ذهنها، وسط ظرفٍ طمس ملامحه طقسٌ عجف لم يغادر دكّته، ولم ينتهِ قرفه. إلى جانب ظرفٍ مماثل، يدور في حلقة الهجرة، بلباس الروتين المتّبع في الكامب. ما أثقل نفسها هو غياب وجهٍ للتغيير في محيطها؛ الأفكار ذاتها، السلوك ذاته، المعاملة، اللباس، المأكل... كل شيء يدور في فلكٍ رتيب لا يتبدّل.

لم تجد ما يلهي ذاتها أو ينسيها وجودها في الكامب، ولو لفترةٍ وجيزة، لتتحمّل الصبر وعقدة الوحدة. صارت تتجوّل في تلك المساحة الضيقة من الغرفة، تتحرك من السرير إلى النافذة، إلى الدولاب، إلى الطاولة، وكأنها تبحث عن شيءٍ ضائع، أو عن تسليةٍ ما، محاولةً تغيير نهج حياتها بأي طريقة.

بادرت بتغيير مسارات العين نحو الأشياء المحيطة بها، محاولةً إعادة التفكير في قيمتها ووجودها ضمن طوق المصاحبة. رغبت في رسم هياكل أشباح تؤانسها، تحاور ذهنها؛ حتى لو كانت من الجماد، المهم أن تلهي ذاتها. أرادت أن تتحرّك بذاتها عن نقطة الجمود الفاصل بينها وبين تلك الأشياء، لتتحرّك وتتحرّر معها، مع تحرّك الفكرة في ذهنها. تخيّلتها بأرواحٍ حيّة، تهجس بها، تعيش معها. فربما يكون التغيير قادراً على جلاء صدأٍ تراكم على صدفية الذهن، وعلى إزالة لزوجة العسر والشؤم من سُرى التفكير.

مع أولى دقائق الصباح، أضحت مرهفة، حالمة، رقيقة كنسمة، دقيقة كهمسة. ما أن تنظر إلى شيء ما حتى تتشبث به ، تحاول أن تجلي عنه غبار الإهمال، تمسحه، تصبغه بصبغة الود، وتعيد صياغته بروح جديدة. تبحث في مكنونه عن صلة، عن صدق، عن معنى يربطها به، أو يخلق بينهما صداقة تهمس بأنها لها دور في تسوية العقد ولملمة الأجزاء المبذرة من الحياة. صارت تتأمل الأشياء المحيطة بها، تحاول أن تحلقها ببعض الأعمال التي تخترعها لذاتها، أو تعلقها كأقراط في ذهنها لتشغل تفكيرها بما يسليها، أو توضبها في مسارات فكرها لتبجيلها وتنعيمها.

نظرت إلى الطاولة التي أهملتها طوال فترة المصاحبة، رغم أنها تنقلت من غرفة لأخرى بسبب مخالفتها لقواعد الكامب وهروبها لحضن زوجها. أسبوعان من العناء تركا في الغرفة الكثير من الأشياء التي لم تنتبه لها. وجدت الطاولة مكومة، متسخة، مهملة، تتراكم عليها أشياء كان ينبغي أن تُرمى في سلة النفايات.

تلك النظرة جعلتها تحن للطاولة، ترق لوجودها، حتى عاتبتها بالأشياء المتراكمة عليها، كأنها لم تكن تراها من قبل. وكأن الطاولة قالت لها: "أهملتني لعقدة تخصك، فتنك، فكفى إهمالك لي. اهتمي بي كما تهتمين برشاقتك، بجمال وجهك، بدفتر أسرارك. جنبيني قرف الأشياء التي تركتها على عاتقي دون اعتناء." هجست بها تحاورها، تعاتبها عتاب العشرة، وقد تكللت بحمل أشياء جزلت لونها ورونقها وبريقها. عجزت عن

رفع تلك العناوين عن كاهلها، لعدم وجود مكان آخر يشاركها الهم.

صارت تحصي ما فوقها: علب عصير فارغة ومملوءة، علبة حليب وأجبان أصابها العفن، صارت تخنق الغرفة بعطنها، علبة سمك السلمون التي أصبحت مصدر تغذيتها الرئيسي بعد أن كرهت ما يقدم في المطعم، صمونة جلدة نشفت وتحولت لحجر، أكياس فواكه، علبة شامبو وفرشة أسنان نسيتها منذ الأمس.

بدأت ترفع عنها الأشياء غير الضرورية، تمسحها بقطعة شاش، تستعيد نضارتها وحيويتها، تبتهج في داخلها، وتعاتب نفسها: كيف تركتِ هذا الجمال يذبل؟ كيف سمحتِ للروتين أن يمتص فتنتك دون أن تشعري؟

أضحت تبتهج في داخلها، وتعاتب نفسها بصوت خافت:...

- ما بكِ يا جنان؟ لمَ كل هذا الإهمال؟ ما كنتِ هكذا من قبل. عودي إلى جنان ما قبل الزواج. هل أثر فيكِ حبيبكِ إلى هذا الحد؟ تخيّلي نفسكِ غير متزوجة، أخرجيه من فكركِ.

لكنها ردّت على نفسها:...

- لا يا جنان... فيما مضى كنتُ أعيش بين أهلي، أمي، أخواتي، يحيطون بي دفئًا وونسًا. أما الآن، فأنا محاطة بالوحشة، بالسرير، بالطاولة، بالدولاب، بالكرسي.

كيف أنسى؟ أنا مكبّلة بقيود لا أستطيع تجاوزها. كنتُ أمتلك الحرية، أما الآن فأنا مقيدة بالهم والروتين. ومع ذلك، أعشق قيود الزواج، رغم ما تسلبه مني... آه يا جنان... متى تنجلي هذه الدوامة؟ متى تعود الحياة لمسارها الجديد، لألقها وفتنتها؟ أنا مشتاقة للحرية، لحضن حبيبي...

عادت إلى غرفتها بعد أن أخذتها الأفكار بعيدًا. نظرت إلى الطاولة نظرة ثانية، كأنها ابتسمت لها، شكرتها على إعادة الحيوية إليها. بدت أفضل مما كانت عليه. عزمت على تنظيف الغرفة، الدولاب، الكرسي...

اتجهت إلى الكرسي، خاطبته في سرّها:...

- ما بكَ حزين؟ لا تهتز لوجودي؟ هل الغبرة أعمت بصيرتك؟ أم الوحدة والإهمال؟ لا بأس، سأجليك، أنظفك، أراعيك. سنكون أصدقاء...

أخذت قطعة شاش ومسحت عنه الغبرة. هؤلاء هم أصدقاؤها وشركاؤها في الغرفة: الكرسي، الطاولة، الدولاب، السرير، النافذة. عليها أن تبادلهم العناية، حتى تهجس بشيء من البهجة.

بعد أن أنهت تنظيف الكرسي الذي بدا وكأنه يبتهج بدوره، اتجهت نحو الدولاب. وجدته شاخصًا في الزاوية كشبح، لنحافته وضيق حجمه، لا يتسع إلا لعلبة مكياج وسترة تقئها شر البرد. بدا أفضل حالًا من ذي قبل بعد العناية.

ثـم اسـتأذنت عامـل النظافـة الـذي يـأتي كـل صـباح بـين الثامنـة والتاسـعة، لتسـتعير منـه مكنسـته، لتزيـل بهـا الغبـرة عـن أرضـية غرفتهـا، التـي يبـدو أنهـا لـم تعرهـا اهتمامًـا منـذ أن سـكنتها.... هكـذا، تمكنـت مـن تنعـيم أجـواء الغرفـة، وتبـديل شـكلها، لتضـفي عليهـا شـيئًا مـن الألفـة والراحـة، لتجعلهـا باسـمة فـي وجـه ضيوفها، وفي وجهها هي أولًا.

بسـبب الـروتين كانـت جنـان قـد نسـت ذاتهـا واهملـت حالتهـا، اضـحت أشـبه بالمريضـة، أضـحت تعجـز مـن المحـيط ولا تحتمـل ذاتهـا، لا يعجبهـا العجـب، ولا تغريهـا أكـلات المطعـم. لا تهجـس بلـون فـرح يؤنسـها قـط حتـى لـو تخـيط بـه جفـن الحـدق. ظلـت تعـيش فـي ظـل وحـدة عجفـاء، فاقـدة الألـق والعاطفـة، بسـبب حجـم الكبت المراق في جوف حياتها...

بقيـت مشـكولة بـالهمّ والعُقـد؛ كأنهـا لعنـة الغربـة والحسـد، لعنـة الهجـرة والفـراغ الـذي بـات يبتلـع الأشـياء مـن حولهـا دون أن تهجـس بمـدّ أو فطنـة. غـدت حاجاتهـا الخاصـة بـلا أهميـة تُـذكر فـي حياتهـا؛ ذهبهـا مركـوم فـي الخزانـة، وسـاعتها مطروحـة علـى الطاولـة، وعلبـة مكياجهـا وأمشـاط شـعرها منسـية فـي الـدولاب. صـارت تنظـر إلـى حاجاتهـا بـازدراء، فقـدت تلـك الأشـياء ميزاتهـا ومعانيهـا فـي حياتهـا وفـي عينيهـا. عاشـت معهـا الغربـة والوحـدة بـذات الكبـت، فافتقـدت قيمتهـا، تحولـت إلـى أشـياء تافهـة مغشّـاة بالغبـار والهبـاء. خفّـت حاجتهـا إليهـا مثلمـا خـف بريـق الاشـياء، كأنهـا ارتـدت لـون الـروتين الـذي جفّـف رونقهـا، لبسـت ثـوب

الوحـدة، وصـدأت فـي أركانهـا، تجـردت مـن الغايـة والعنايـة، طالما لم تجد من يقدّر ألقها ونضارتها.

تلـك الجـواهر الماثلـة بـين يـديها، هـي مـن منحتهـا القيمـة حـين ألبستها فتنتهـا، وألفتهـا حسـنها ورشـاقتها وألقهـا. هـي مـن صـنعت لهـا هالـة فـي عـين الحبيـب والنـاس المحيطـين بهـا حـين ارتـدتها. هـي التـي سـنفرت نضـارتها بنضـارة بشـرتها وحسـنها، غـرّت أعـين النـاظرين بجمـال قـدّها الميّـاس، وبطـراوة بشـرة جيـدها المرمـري. لمعتهـا، وغرّتهـا بحـلاوة المظهـر وسـحر البشـرة، منحتهـا مـدًّا مـن الألـق، وخصـلة مـن الـروح، بمـدى التماسـها مشـاعرها، وعطفهـا، وأحاسيسـها، وفتنتهـا. هـي التـي ألقـت عليهـا ظلالهـا، ولونـت بهجتهـا، ومـدت بريـق ابتسـامتها، وصـقلت سـرّ نجواها.

كـل تلـك الصـفات المطروقـة علـى سـحرها ورقيّهـا، ذابـت فـي نـار وحـدتها السـليطة، واختفـت عـن شـبكة العـين والـذهن، وغـارت فـي متاهـات القلـق والتفكيـر، بعـدما طُفئـت شـعلة أنوثتهـا فـي الجسـد. هجسـت أن الجمـال لا صـلة لـه بالجمـال الـذي تقصـده دون حرشـة الحبيـب؛ فهـو لا يعنـي لهـا سـوى قـبحٍ يلعـق الجسـد دون إطـراء الحبيـب ولمسـة يـده الحنونـة. لـذا، لـم تعـد تتجمّـل، ولا تصـقل ذلـك الحسـن والبهـاء بـدرجات لـون الحيـاة، إذ غـاب الحـافز الـذي يـدفعها لتجديـد حيويتهـا. وفـي الوقـت الـذي كرهـت فيـه العيـون المتلصصـة بهـا، عجـزت عـن فهـم التجمـل دون أن تقـرأ حروفـه ومعانيه في عين الحبيب.

لمن تتجمل؟ لمن تشيع أبداع الجسد والروح وهي غارقة بفيض الآهات وصخب الجدران الصماء؟ تلك التي لا تفقه معنى الصمت والتأمل والجمال الغائر في ذهنها.

باتت تأكل من المؤن الموزعة عليها قسرًا، تأكل لتعيش، لتبقي على فتيل الحياة مشتعلًا في جسدها، كي لا تنطفئ تلك الطاقة التي بالكاد تسندها. لا تأكل إلا ما ندر، وتحتفظ بما تبقى في أكياس معلقة بخيوط تتدلى من نافذتها، تحاول بها أن تقي الطعام من التعفن، إذ لا براد في غرفتها يحفظ الطعام من الفسد، ولا دفء يقيه من البرد القارس الذي يهبط بدرجات الحرارة إلى ما دون الصفر بدرجات كبيرة.

ورغم أنها تقطن في الطابق الرابع، لم تسلم من عبث الفئران التي تتسلق الجدران وتهاجم أكياس الجبن والخبز لتفسدها، كما تفسدها البكتيريا إذا ما تركت داخل الغرفة ليوم أو يومين. كل شيء يهاجمها: الفئران، البكتيريا، البرد، الأطياف التي لا تفارق ذهنها، والوساوس التي تنهش سكينتها، والكوابيس التي لا تفارق أحلامها.

في غرفتها الصماء تهجس بذاتها محاصرة بين قسوة الطبيعة وبعد الأسواق، وبين الوحدة التي تعصف بها، وفقدان الحبيب الذي ترك فراغًا لا يُملأ. تنتظر قرارات دائرة الهجرة، تلك الغارقة في روتينها، دون أن تملك إرادة أو قدرة على تغيير شيء. هكذا تمضي أيامها، بين بردٍ لا يرحم، وجدرانٍ لا تحمي، وانتظارٍ ينهك الروح.

كانت تضطر إلى الاحتفاظ بعلب الأجبان والحليب والخبز والعصائر في الشبابيك للحالات الطارئة، خاصة وهي تعيش في بقعة نائية تبعد عن أقرب متجر بأثنين إلى ثلاثة كيلومترات مع عدم وجود موصلات سلسة تفي بالغرض، في بقعة معزولة تحيط بها أسلاك شائكة وثلوج كثيفة تزيد عن ارتفاع قدم، تمنعها من ان تجازف بذاتها وخاصة إذا ما هبت الرياح السهكة في المكان.

في ظل الثلج والمطر، تتعذر الحركة وتضيق السبل. يصعب الوصول إلى مركز المدينة دون عجلة خاصة، فالمطر والثلج يفرضان زلقًا لا يُحتمل وبردًا يلسع الجلد. النفس تقف عاجزة، لا تملك وسيلة تذلل بها هذه غضب الطبيعة، ولا قدرة على قطع المشوار الطويل وهي تجر ذاتها بوحدة تنهش من فكرها ورغباتها الكثير. وإن وُجدت رغبة في تجديد الحيوية ومقاومة الكسل، فإنها لا تصمد طويلًا أمام عصف الطقسٍ والرياح المغلة، طقس تتخلله الزوابع أحيانًا، خاصة في منطقة جبلية تعلو المدينة الغارقة في عمق الوديان. تلك الظروف تتطلب جهدًا استثنائيًا لا تقوى عليه كأنثى بمفردها.

كان النزيل البوسني يسكن مع عائلته بجوارها. يمتلك سيارة صغيرة من نوع "فاكس واكن"، ينقل بها أفراد عائلته السبعة إلى المدينة للتبضع. أحيانًا، يقدم خدماته للنزلاء مقابل مبلغ بسيط يعوض به مصروف الوقود. كانت جنان وهنادي وأميمة يستعنّ به لإنجاز مهامهن الضرورية، مرة أو مرتين في الأسبوع.

فـي غرفتهـا، جلسـت علـى الكرسـي الوحيـد، ذلـك الكرسـي الـذي طالمـا تجاهلتـه لغثاثـة سـكونه. لـم تلتفـت إليـه، لـم تحركـه، ولـم تسـتعمله. كـان سـاكنًا، مهمَـلًا، كـأن وجـوده وعـدم وجـوده سـيان. لـم ترفـأ بـه ولـم تحيلـه لخـدمتها، ولـم تقـدر وجـوده كمـا فعلـت مـع الطاولـة والخزانـة. لكنهـا كانـت تتخيلـه أحيانًـا يحتضـن ظـل الحبيـب الغائـب، جالسًـا أمامهـا، يمـلأ الفـراغ بصـمته، يواسـيها فـي وحدتها.

مـا إن جلسـت عليـه، حتـى دبـت فيـه الحيـاة. شـعرت بخشـبه يـرتعش برعشـةٍ خفيفـة، كأنمـا اسـتعاد حيويتـه باحتضـانها. مسـحت عنـه غبـار الـزمن بشـاش أبـيض، فأعـاد لهـا شـيئًا مـن دفء الحضـور. صـار لـه قيمـة، رغـم بسـاطته، مجـرد كرسـي خشـبي أجـرد، لكنـه يفـي بـالغرض حـين تتخيـل الحبيـب جالسًـا عليـه، يحاورها وتحاوره.

لكـن خشـب الـزان كـان جلـدا، عقـر مقعـدها، سـلب منهـا راحتهـا. لـم تـدم جلوسـها عليـه سـوى دقـائق معـدودة، ثـم تركتـه لتقـف عنـد النافـذة، تسـتطلع الأفـق. منـاظر مبعثـرة، بعضـها بهـيج، وبعضـها يكتنفـه الكآبـة. منـاظر تـدفعها للتفكيـر فـي سـر القـانطين فـي تلـك البقعة النائية.

وهـي تحـدّق مـن نافـذتها نحـو ذلـك الفضـاء البعيـد المترامـي، نحـو الغابـة الغارقـة فـي سـواد الظـلال المحشـوة بـالخوف بـين الوديـان، هجسـت بالوحشـة تتسـلل مـن هنـاك، كـدخان يزحـف بـبطء علـى الأمـاكن المحيطـة بهـا. ترهلـت الهـواجس مـع شـرع الخـوف الـذي بـدأ يتسـلل إليهـا، تشـنجات غيـر مبـررة بـدت تتعشـق فـي مخيلتهـا

مع قنوات تخيلات تتبلور بعيدة عن الواقع، تلك الصور غذّاها السكون الطاغي الذي يلف المكان بأذرعه، إلا من صفير ريح يخترق لهواجس ودندنة قطرات مطر رخيم تزيد الوجس عتمة.

تخيلت الغابة، في ظل هذا الهدوء الموحش، مأوى لوحوش وشياطين وجن، كما كانت تسمع من جدتها في لبنان حين كانت طفلة. بدت لها وكأنَّ الأشجار الشامخة ملاذ لتلك الكائنات، وخنادق الوديان العميقة خلف الهضاب طرق ومخابئ لها، تعيش هناك، بعيدًا عن صخب البشر، خلف حاجز الظن والسكون والرعب، حيث ترتعد الفرائس.

تراءى لها ذلك الوحش الافتراضي يدور في مخيلتها، بل تجسّد كحقيقة في نظرها وظنها وهو يقترب من سرائرها مع تدفق الوجوم ووحشة الليل في بطون العتمة، من تلك المهادن الغائرة في جوف الليل خرج طائر الرخ ليقتحم أسوارها برفقة جيش من الكوابيس التي تنتابها أثناء غفوتها.. لم تفارقها تلك المخيلة إلا مع تباشير الفجر، حين طارد النور الوحشة من حولها ومن داخلها، عندها صمت صرير الخوف واستكان سكون مطبق على هواجسها.

ومع مرور الأيام وتجدد الظرف، وجدت في صحبة الغابة تسلية لها، تحولت الحالة إلى طقوس يومية تشغل ذاتها بها، سرقتها من محيط وحدتها الكئيب، جعلتها صحبة جديدة تكمل قيافتها، أعانتها على تجاوز أزمتها النفسية، لتنقلها إلى أزمة أخرى تحمل تعقيدًا غريبا. تخيلت ذاتها شجرة بين تلك

الأشجار، سرقت منها الوحشة والتأمل، كأنها تعودت على جزوع حفيفها، تلك الأشجار الباسقة تبدو لها عن بعد تحت أضواء المصابيح كظلال وكهوف عتمة تتحرك مع مرج الريح وزخات المطر، وكأنها طناطل تتهافت في باطن الوديان، تحف السبل مع صفير الريح ووجل العتمة. هجست أن حالها لا يختلف عن حال تلك الأشجار الكالحة، مرمية في أرض جرداء مقفرة، كالسجين القابع في زنزانة من الوحدة والظلال.

باتت الصور تتقلب أمام ناظرها بأشكال متعددة، تتجسد بأوجه وأقنعة متغيرة، تبدو كوحش يتقمص هياكل الأشياء الجاثمة خلف النافذة. أحيانًا تهجس به جانًا يلتف على أعمدة الكهرباء، أو طنطلًا أو شيطانًا يحرك الريح، خيل إليها أن أعمدة المصابيح تتحرك، تقترب منها. بل تهجس بها تلبست شكل عمود النور القابع خلف البناية، بات يتحرش بها، فيميل فكرها مع فورة الضياء المتوهج تحت رذاذ المطر، فتراه يتراقص مع موجة الريح السهجة، حين تسف حبات المطر الساقطة على زجاج النافذة، فيشتط الوهج تحت وابل المطر ونثار الثلج.

وما إن يستعيد الطقس بعض عافيته، حتى يخف الوجل في داخلها، لكنها فترة هدوء قبل العاصفة، تهجس به يتخلل مشاعرها، يخفت ويخفق هدره، كأن روحًا ما تتجسد في قوام عمود النور وتلك الأشجار الغائرة تحت جنح عتمة الليل. كأنها قرفت زمهرير الريح ومجانة المطر فخرجت من مخابئها معترضة على سخط الطقس...

كل شيء بدا غير طبيعي، حركة غريبة تدور حولها؛ الأشجار، أعمدة النور، زخات المطر، والريح السهجة، كلها تتراقص في تظاهرة احتفالية بوجود جنان في تلك البقعة، تتناغم مع نشيج الرعب المتدفق في داخلها، والمتمثل بعزفِ حفيف خفيٍّ يأتي من عمق الغابة النائية، من تلك الأشجار الجلية، كأنها تطلقها كرسالة تحذير أو صرخة عناء عبر الأثير بذات الوحشة التي تدركها. أيكون عزاء سكون ووحشة، أم كرنفال فرح واحتفالا بحضور الأميرة جنان حفل تتويج الطقس. كل شيء يُعَدْ مع حكم الظرف بصمت؛ حتى الظلام، والقدر، والسَحَر...

ومع تتبعها المستمر لاختلاف شكل المنظر، بدا كل شيء من حولها بارقًا بسراج قلق غير طبيعي..... مع تهافت وشاح النور تجاه الأرض، ركبت الأشباح صرصرة الريح ومركب المطر، الهاجس أجبر قلبها أن يخفق بخفقان متسارع. صار النور يتراءى لها عن بعد كشاخص هيولي لا يمكن تحديد مكانه، يتحرك مع رشق الريح وزخ المطر. أصيبت برجفة وجفلة اخترقت مفاصلها، خارت ظنونها، مما أجبرها أن تلوذ مرعوبة بجوف السرير لبرهة ليست قصيرة.

لم تصبر على إهمال المشهد، عاودت وقوفها في النافذة وهي تراقب رقصة الأشجار وذلك النور المنفلت في عتمة الشارع مرة أخرى. استمرار خرير الماء يجهد السكون عبر المزاريب، اضحى تدفقه الشديد يقلقها، لم يخف وطأ المطر أبدًا منذ يومين، كأنَّ السحب تجمعت وشرعت تحضر زفة عرس،

انسجام دائر بين وهج ضوء العمود وميلان أغصان الشجر مع عصف الريح العابثة بكل شيء، هكذا تراءى لها المشهد العام بعد أن شط ضوء شديد كان قد توهج يشكل غريب ثم خفق بريقه وتلاش في العتمة. كأنه برق قصف عمود النور أو شجرة ما.

وهي تحدق من مكانها عبرَ النافذة، خُيِّل إليها أن عمود النور ابتسم لها، طمأنها، ثم اختفى في سدم العتمة. ما إن تصيبها رجفة حتى يعود النور إلى وضعه الطبيعي، ينير محيطها. كأنه يلاعبها لعبة الاختفاء، كأنه يسكنه جانٌّ اغترّ بفتنتها، فصار يوافق مشاعرها مع تراشق المطر وعزف الريح. هكذا تراءى لها مشهد عمود النور وكأنه بهر بفتنتها.

وما إن تهدأ مخاوفها، حتى يعاود وهجه كرةً أخرى، برفقة العصف الدائر، فيزداد بهاءً وألقًا، حتى تسعى الأشجار خلفه بتظاهرة نحو النافذة مبتهجة. الجداول لم تكفّ عن مسيلها... وما هي إلا هنيهة حتى نفد صبره، فانتحر المصباح بعد أن توهج وهجته الأخيرة، فعمت الأجواء دُماسة مريبة. قدح نارًا ثم انفجر على حين غفلة. عندها خفقت الدائرة المحيطة بها، أخافتها، فتحوقلت في سريرها والرعشة تكبّل أطرافها، كأنها هجست بذلك الضوء المستفيض قد دخل غرفتها ثم اختفى في زاوية منها، ربما تدثر في سريرها أو في وسادتها أو تخفى في خزانتها...

على مدى أيام، ظلّت تراقب ذلك المحيط نهارًا، بوجس، وبشيء من التطفل الطفولي، خوفًا من المفاجآت التي تهابها في

وحدتها. فالمسافة التي تفصلها عن تلك الغابة مليئة بالوساوس والقلق والأشباح الطائرة، تقطنها أنفاس من الريبة والتخاريف، تختلف عن تلك التي تقبع معها داخل الغرفة، تلك التي تأنسها أحيانًا، وترافق مخيلتها في ظل الوحشة والوحدة.

تلك النظرة المتشائمة انعكست في مرآتها، لتجد ذاتها مرفأ استقبال للهواجس، ترفقها بخيلائها خارج مضمار الغرفة، تقيس بها حجم هوسها على مر الأيام، بالمحيط الذي يشاركها ذلك الوجس وريبة المكان. هكذا تشكّلت الفكرة، وتبدّلت النظرة لديها من يوم لآخر. ما إن تختالها الوحدة، حتى تركب مركب الخيلاء، ترغب في كسر طوقها والقيود المرفقة بها، لتنطلق نحو صرّة الحياة بشيء من الحرية، وإن كانت تحبط عزيمتها تلك المخاطر بالمخاوف. وما إن يشتد البرد، حتى تتكور مشاعرها ككرة الثلج، فتحتضن مخدتها، تناجي حبيبها البعيد بالتخاطر، بعيدًا عن عالم الغاب والوحشة.

ذلك الفضاء الطافح بالأشياء من حولها، كان عالمها الثاني، عالم التناقضات والوحشة والسكون. ففي اللحظة التي تحلم فيها بالحرية، تُسلب منها هويتها، كأن الوحش القابع في جدارية مخيلتها يتدخل في تكوين مصيرها، يعبث بثنايا قدرها، يهجع إليها كبعبعٍ يتسلل خلسة إلى نومها، يسطو على مخدعها وأحلامها، يخطف أسرارها وسرائرها.

تلك المخاوف جعلتها تهجس بأشجار الصنوبر، التي تعرّت أمام الصقيع، كأنها امرأة مومس لا تخجل من العهر. نضت أوراقها، تشرح عسر حالتها لكل من ينظر إليها، بعد أن تولاها

الخريف بوحشته. كأنها في ظرفها باتت تحسد جنان القابعة في غرفتها كملكة، بعيدة عن جلد الطقس، وعن لصلصة العيون، والريح السهكة التي تعبث بها وتجردها من لباسها.

حينها حمدت جنان الله على النعمة التي هي فيها. فالإنسان لا يرى النعمة بين يديه إلا حين يفتقدها، أو يقارنها بمحيطه. هكذا أقنعت نفسها، وهي تقارن ذاتها بتلك الأشجار النفظية، بأنها في نعمة...أما ما يعتريها فهو هوس ليس إلا، حالة شيزوفرينيا نفسية، انفصام وقتي، نتيجة تكبلها بعُقدٍ متراكمة. ليست حالة استنزاف كما كانت تظن، بل وعكة خريفية خفيفة، ستزول مع تجدد الفصول، كما ستزول الوحشة والعُقد بمجرد أن تعترف دائرة الهجرة بوجودها كلاجئة.

الأشجار، والشارع الأجرد، وعمود الكهرباء الذي يشتكي الظرف، وحراس الكامب الذين وضعوا أنفسهم تحت وقع ذلك الظرف كعبيد للمادة، جميعهم قيدوا أنفسهم بقيود الوحدة والتصحر، من أجل بضع دولارات لا تسمن ولا تغني من جوع، من أجل كأسٍ من الجعة وعلبة سجائر يقتلون بها الفراغ الذي يعيشونه. أولئك هم المؤسف عليهم، مجردون من المشاعر، كالهضاب وسور البناية وعمود النور. يمنعون عن أنفسهم نعمة الحرية، ويسجنون أرواحهم من أجل ملذات زائلة.

حين تنظر جنان إلى البيوتات المترامية في منحنيات الوديان، ينقبض صدرها. تراها أوكار شياطين وثعالب، خاوية بفعل العواصف والثلوج. لا يلوح منها أثر حياة سوى ضوء خافت مختنق في جوف العتمة والمنحنيات، يشكو زيف الحياة مرة،

مـراءة فـي تلـك البقعـة، وملـل القـاطنين بهـا. تهجـس بـأن سـاكنيها موتى، أو كأنها بيوت خاوية، مهجورة.

لرضـــاهم وقنـــاعتهم بـــالعيش بتلـــك الصـــيغة والجمـــود فـــي تلـــك النقطـــة النائيـــة المنعزلـــة، البعيـــدة عـــن التكلـــف والمتعـــة، يعيشـــون عيشـــة الحيوانـــات، كـــأنهم ليســـوا بشـــرا أســـوياء. وكـــأن الحيـــاة قـــد توقفت فـي تلـك البقعـة علـى حافـة الهاويـة، لـذا بـاتوا يتمسكون بهـا قبـل أن تسـقط سـقطتها الأخيـرة فـي حضـن الشـتاء القـارس، حيـاة تصـــرخ مـــن شـــدة البـــؤس وبالـــذات فـــي تلـــك البيوتـــات الخاويـــة المتنـاثرة علـى سـفح الـتلال. كـل دار تتخيـل تسـكنها امـرأة شـمطاء فقـدت ملامـح أنوثتهـا، فافتقـدت الجاذبيـة تمامًـا، فعكسـت صـورتها علـــى البيـــت والطبيعـــة القاســـية، فبانـــت الصـــورة فـــي عـــين جنـــان بذات المأساوية الجرداء.

وهـي تـركن فكرهـا علـى حجـر زاويـة المشـهد؛ لـم يبـقَ فـي يـد جنـــان ســـوى ورقتهـــا الأخيـــرة، تـــزيح بهـــا هـــم الوحـــدة والكآبـــة والقـــرف والتعاســـة التـــي تلاحقهـــا، لتحرقهـــا فـــي غرفتهـــا وفـــي مرافـق الكامـب. بـين فتـرة وأخـرى تلهـو فـي صـمت مـع الـذات السـارحة فـي ذلـك العبـث الـدائر حولهـا، كـان قـد صـبغ أظـافر أناملهـا بلـون الزعفـران، نتيجـة الضـعف الـذي أصـابها وإنعكـاس ضـــوء المصـــباح ذات الاشـــعة الصـــفراء علـــى أناملهـــا... تلـــك الورقـــة المغلـــة بـــالأحلام هـــي: زعفـــران الصـــبر، وقـــبس الـــدين، ولبـاس الـورع والعفـة التـي تتبجـل بهـا، تركـات عمـر بقيـت عالقـة فـي ذهنهـا. ورقـة لمـا فيهـا مـن صـفات مجلـة، تزيـدها شـأنا وقـدرًا، تضـفي عليهـا صـبغة الإبـاء والاحتـرام والهـدوء والألـقً ومحبـة

بين المتواجدين معها في الكامب، ورضا كل من يلتقيها ويكلمها، إنها فعلاً ورقة ساحرة كلؤلؤة نادرة، تزكي جاذبيتها وصفاتها وأناقتها التي تعبر عن مكنون جنان الحقيقي في مقابل عبث ذلك الظرف السليط المشاكس لشبابها. وهي الوحيدة من بين نسوة الكامب كانت ترتدي الخمار، الذي يبجلها ويميزها عن سائر النسوة.

4- شريط الاختبار

علـى مـدى أسـابيع، بقـي ظـل ذلـك اللـون الـداكن مـن الصـدع ملازمًـا لهـا، وإن تـدرجت ألوانـه بـين أطيـاف الظـرف واليـوم. وهـي تلـتهم الـزمن باحثـة عـن نفسـها، كانـت تـرى ذاتهـا مغروسـة فـي لحظاتـه كنبتـةٍ معدمـة، يائسـة، عقيمـة، يلفهـا البـؤس بغلاظـة، تبحـر بعتمـة السـدم دون مخـرج. وفـي لحظـات أخـرى وخمـة، رخيمـة، يلفهـا صـدع رمـادي مـن الكمـد حـين تتحسـس وجـع الألـم فـي الـنفس. هكـذا ظلـت تـراوح فـي مكانهـا بـين مسـاءات الوحـدة القاحلـة، وعسـرٍ حلـم تجـذر فـي قـراراتٍ دائـرة الهجـرة، تـتحكم بحياتها ومسكنها.

اسـتمر ذلـك المخـاض مـن الإسـفاف والحـزن طيلـة وجودهـا فـي الكامـب، لأكثـر مـن شـهر وهـي تعـاني بـين تجاذبـات المشـهد، حتـى غـدت قطعـة منـه، وهـي تنـزف وجـودًا وجنونـا فـي فتـرات العقـم المريـرة باحثـة عـن صـيغ الحلـول دون جـدوى. الحالـة دقّـت رفيـف عينهـا بمـرود المـرار، وبقـي ذلـك العنـاء يخفـق فـي تقـديرها، يجـزل سـعيها ومرامهـا، يربـك وعيهـا، يهمـل ثباتهـا وقوامهـا وهـي تنحـدر نحـو ظـل عجزهـا دون إرادة، لتعـيش حالـة غيبـة الوجـود بمـزاج متقلـب، بسـبب لا حـلا لـديها ولا حـلا آنـي يفضـي لإسـعادها، ولا سـبلَ فـرارٍ تخطفهـا مـن يـد القـدر العـام المصـاحب لمشاهدها.

صار الوجوم يعلو وجه قدرها، يرسم جفاه في صحن صبرها في ظل فترات اليوم المتباعدة، فتجد نفسها تحتضر، وهي أسيرة شوقٍ مغلٍ يتقافز بين هنات النفس المتعاقبة، كعصفور يود أن يدرك ظل عشه دون أن يتمكن، قابعة تحت جلد الوحدة السليطة دون أن تستطيع كسر ذلك الطوق المقيد لها.. مع تكرار المشهد وتوالي الأيام تفخم العناء، بات يشتد وقعه مع الفجر، تصحبها حالة غثيان في كل صباح، وألم قيء ولعبان نفسٍ تربكها دون أن تدرك السبب.

ارتعّ الشك في حقل أفكارها، غدا يمتد في يقينها، عاكسا ظل العناء على محاسن البشرة ورشاقة جسدها، بعد أن نحفت كثيرا واصفرت البشرة. شغب الفكر شغل القلب بإرهاصاته، امتد وجله إلى أجزاء البدن، حتى هجست أن جسدها قد خس ونحل كثيرًا عمّا كان عليه قبل القدوم والمكوث في هذا الكامب، أضحت زهرة ذابلة.

في ذروة همّها، جذبتها الذاكرة إلى أعماقها، فتراءى لها طيف الحبيب، يلامس فكرها، يلفّ جسدها، يتغزّل برقتها ومفاتنها، حتى غدت أسيرة هيامٍ ينسج سحر الحنين في عمقها، أنساها قدر المكان وقبح المحيط ولو للحظات هدلت عليه راحة، فهي تكاد لا تفارق ظل خيال حبيبها قط.

ما إن تَظِلْ، تظلل الكآبة سحر شفتيها، حتى ينضب ريقها ويشفّ رضابها، تهجس بخشونة الحشفة تمنعها من الكلام، تستشعر بجفاء غلالة الود الذي يركبها، فيطفح وجع الفراق

علـى جفنيهـا كظـلال تعـبٍ وأرقٍ تـراكم بفعـل الصـمت الطـاغي في حياتها.

صـارت نـار الاشـتياق تتجـدد وهـي تغلـي بـداخلها، امتـدت فـوق قـوام الجسـد كحمّـى لا تهـدأ، غمـرت مواضـع الفتنـة بلفحـات الرجـاء، غـرزت لهيبهـا فـي كـل خليـة، فـي كـل ثنيـة، حتـى تحـول جسدها إلـى جمـرة تشـعّ صـمتًا تحـت لهيـب الفـراق، تحتـرق بعبـث الألـم فـي مرافـئ الحنـين.... هكـذا قادتهـا الوحـدة إلـى وهـدة الجنـون، حيـث تفجّـرت قواقـع الحمـى فـي داخلهـا كنبـع سـخونة تلفـح مفاصـل الأنوثـة، تهـيج حـسّ الرغبـة الجنسـية لـديها، فتتـأرجح تحـت ظـلال الـنفس كـالثمرة الدانيـة قطوفهـا، ترهـف نحـو طيف الحبيب الدائر في مخيلتها.

كانـت قـد طفحـت بقـع ورديـة علـى مرابـع الجسـد جعلتهـا ترتعـب مـن وخـز المكـان، هجسـت بهـا علامـات رصـع أو مـرض أو وشـم لهفـةٍ مكبوتـة داخلهـا. رافـق تلـك العلامـات غثيـان وتقيـؤ، خاصـة فـي أول الصـباحات مـن بعـد الاسـتيقاظ، فلـم تتـرك لهـا لحظـة راحـة أو شـعورٌ بـالوجود. اقتحمـت الجفلـة صـمتها، أودعـت فـي قلبهـا شـكًا متقـدما فـي نفسـها، ووجـلا رائبـا فـي ذهنهـا، مـن أن تكـون مصـابة بجائحـة كورونـا التـي اجتاحـت العـالم كلـه، خاصـة كانـت لا تـدرك أعـراض المـرض الجديـد ولا تميـزه عـن مـرض الفلاونزا.

لكنهـا اعتبـرت مـا يحـدث لهـا مجـرد عصـارة تراكمـات الوحـدة، غصـات ألـم وشـحنات لعينـة تفجّـرت فـي أعماقهـا، فأصـابها مـا أصـابها مـن جـزع تمـادى كـألم سـرى فـي جسـدها، شـرّع تـأثيره

ينتشر على كل موضع من مواضع الفتنة، على الشفة والحلمات والأماكن الحساسة وكأنها هي الأخرى باتت تتبع قدرها، تبحث عن سر الألم ولغزه... دون جدوى.

العياء بدأ ملازما الجسد، غزاها كحشرة خبيثة، تسللت إلى ظنها وفكرها وشعر رأسها، استباحت ثناياها، غطّت على سحر مفاتنها. أضحت لا تدرك حقيقة تلك الحشرة اللعينة: أهي رديف روح زوجها الدائرة في فلك ظنها، أم زيغ العيون الحاسدة، أم أنفاس المغرضين والمغرمين بفيض حسنها وفتنة جسدها، أم عبث شيطان استهام بها فأولغ الشك في صدرها وظنها، أم ضريبة الوحدة اللعينة.... لقد أضرّ بها المرض، فأصبح ذلك الجسد البريء، المحشو بالجاذبية والأنوثة، كخيش من الألم والدنف والشك، لا طراوة فيه ولا رقة ولا جاذبية.

مال بها الشك إلى الاعتقاد بأنها مصابة بلعنة الكورونا التي لا تفرّق بين الفتنة والقبح. انحدرت حالتها، إذ تجاوزت شكواها حدود النفس فأضرت بها. أضحت أسيرة هوس وقلق وهوى وأحلام غائرة في جوف العدم، ما عادت تنعم بسنا نجم ساطع، ولا ترأف بنور قمر وادع، ولا بضياء شمس ساطع. لا تدري ما تفعل حيال نفسها، كي تجرد ذاتها عبث الظرف وقيد الوحدة ولغز التفكير، وهي تستمع لوتر التغير الفسيولوجي الطارئ، الضارب على أعضاء الجسد. لقد تحملت نكد الظرف المحيط بها مدة شهر ونصف قبل الزواج، حتى تعلقت بزوجها؛ ثم نكث بها القدر المراع، فقيدها في صرّة العقد مع دائرة الهجرة لشهر ونصف آخر، ليركنها في هذه البقعة الرخوة، المليئة

ببكتيريا الوحشة والتوحد والانغلاق والجواء منذ أن حلت بالكامب، والتي صارت هوامها تجيش في الذاكرة بكمّ العقد، حتى افتقدت قابليتها على التناغم وتحمل منغصات اليوم المتجددة.

ظلت تعاني أسبوعين كاملين من حالة الضعف والهوان وفقدان الشهية والتقيؤ، وفقدت قابليتها على تحمّل أزف الحالة. بل إنها باتت تنزعج من دبابيس الشك وصعقتها، ففي قرارة نفسها أيقنت أن حالة الصداع ليست مرضية، لكن استمرار التقيؤ أكّد شكها بمرضها. ما يخيفها أن أحد المعنيين نُقل إلى المشفى ثم فارق الحياة وهو في غرّ شبابه، نتيجة إصابته بعدوى الكورونا.

بددت زميلتها هنادي شكوكها حين أخبرتها بما تمرّ به، وهي التي تبدو أكثر خبرة منها في شؤون الحياة، كونها بكر والدتها، وقد اعتادت أن تكون مرجعًا في مثل هذه الأمور. هنادي، بثقة الأم التي تعرف خفايا الجسد، أبعدت عنها فكرة الإصابة بمرض الكورونا، وقالت لها:.....

- لا أرى فيك أعراض المرض. الكورونا لا تصبر على مريضها أسبوعًا كاملًا. ما تشعرين به أقرب إلى وعكة حنين، وسرير زواج، وتغير فسيولوجي.

تأملت كلماتها مليًا، وبدأت تفكر في حالتها. بالفعل، لم تكن أعراضها تشبه نزلات البرد المعتادة؛ لا قشعريرة، ولا ألم في المفاصل أو عضلات الساقين، ولا تعب في التنفس، ولا سعال.

تلك الأعراض التي تطرأ على الذهن حين يضطرب، لم تكن حاضرة. شعرت بشيء يزيح عنها وطأة الشك، فسألت هنادي:..

- ماذا تقصدين؟ وما الذي يصيبني إذن؟

كانت الحالة تتكرر كل صباح عند استيقاظها: صداع يرافقه غثيان وتقيؤ ينهك جسدها ويستنزف طاقتها. هنادي، بنبرة من تعرف، سألتها:....

- ألا تشعرين بتغيرات في المناطق الحساسة من جسدك؟ كحلمات الثدي، المهبل، أو رائحة جسدك؟

أجابت بتردد:...

- بلى... حلماتي تلطخت واصطبغت بلون وردي غامق، رائحة جسدي تغيرت، اصبح فيها شيء من النتانة والقرف، هكذا اشعر، وأشعر بسائل لزج عند التبول...

كانت قد لاحظت بالفعل تغيرًا طفيفًا في تلك المناطق، إذ بدا لون الحلمات أغمق مما اعتادت عليها، غدتْ ورديةً، كوردة متفتحة نضرة. كما شعرت برطوبة دائمة في المهبل، وتبدلت رائحة جسدها، فغلب عليها شيء من الزناخة، كأن جسدها باح لها بسرّ خفي. عندها، تسللت إليها مخاوف من أمر غامض، طل عليها من ثنايا الفكرة، لا تعرف له اسمًا، لكنه طرق باب وعيها بإلحاح حتى أصابتها جفلة من حضور الفكرة.

كانت قد شكت لزوجها ما يصيبها؛ حتى أنها عزلت نفسها عن الاحتكاك بزميلاتها بعدما هجست بتغير رائحة جسدها، وكأنَّ بها زنخة تقرف أنفاس المحيطين بها. هجست حينها بأنها مصابة بمرض غريب، وأن حالها ليس على ما يرام.

في البداية، حاولت تأويل ما تمرّ به الى الوحدة، وأوعزت ذلك إلى تفاقم حالتها النفسية المتعبة، نتيجة للظروف المجحفة التي مرت بها منذ دخولها دائرة الصراع مع دائرة الهجرة، واستقرارها في كامب شنيبر السيء الصيت.

ربما كانت تلك الحالة المضطربة قد أودعت في جسدها تلك المخاوف والتغيرات. وربما نشأت نتيجة الفراغ الكبير الذي وجدت نفسها فيه، وهي مكبّلة بأسلاك الوحدة، منشغلة البال بفراق زوجها. ذلك التجافي، وذلك الأرق قد يولد شحنات الوجع، نثرت في الجسد ذلك التغيير، بفعل المسافة من جهة، وطبيعة العزلة في الكامب من جهة أخرى. عندها تذكرت بيت شعر لأبن زيدون آلمها خيال وراحة بال...

أضحى التنائي بين تدانينا – وناب عن طيب لقيانا تجافينا

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ـ شوقا اليكم ولا جفت مآقينا

أطرقت الفكرة لصديقتها هنادي، تلك الفتاة الجذابة بهدوئها وطيبها وحسن ملامحها، وملازمتها لها كظلّها. أشارت إليها بما تعاني منه، فاقترحت عليها أن تجري اختبارًا للحمل. شجعتها على الثبات، ورافقتها إلى الصيدلية لشراء شريط

اختبار الحمل، تلك التي تقع على بعد ميلين من سكن الكامب، في قصبات مدينة شنيبر. ذهبتا سيرًا على الأقدام، عبر ممر السابلة، بين ثنايا الأحراش والحشائش المتجلدة، ومنحنيات الأرض الطينية الزلقة، وتراكم نثار الثلوج ولسعة البرد. اشترت شريطًا لاختبار الحمل بسعر يورو ونصف، لتقطع دابر الشك باليقين.

وفي صباح اليوم التالي، جلست باكرًا مع أول الشروق، نتيجة القلق الذي ساورها من رهبة الحمل... أسقطت قطرات من البول على الجزء الحساس من شريط الاختبار، ثم تركته على أرض مسطحة لدقائق، وهي لا تبغي مفارقته، منتظرة أن يجلب لها الخبر اليقين. انتظرت بترقب وتجلي دقائق التحليل والنتيجة...

مرت الثواني بقلق وتأمل، صاحبها ارتعاد ونزق مما قد يحدث، وعينها لا تفارق الشريط، وهي تنظر بعين الصمت إلى ذلك الشريط القابع امامها والذي بدأ يتأثر بتأثيرها تأثرًا طفيفًا بمحلول البول. ساورها شك، لازمها قلق، وأرهقها التفكير، استفاضت في أعماقها رغبة بتأمل النتيجة. أسرعت إلى الحمام بشيء من القلق مع تغير طفيف في خطوط الشريط الدالة على التحليل... وبعد مرور خمس دقائق نزل الوحي بعد أن كبل مسعاها، أصابها الذهول والهوس، وهي ترى خطين متوازيين باهتين يتخذان موقعهما على شريط الاختبار.

هنا كانت تلك هي المفاجأة...

لكنهـا لا زالـت فـي موضـع شـك، حيـث الخطـين بـاهتين، لا يفصحان عن حقيقة الحمل، قد يكون حملٍ كاذبٍ.

لكنهـا بقيـت نظراتهـا معلقـة بثنايـا الشـريط، وروحهـا مشـدودة إلـى ذلـك النـور البصـيص مـن الشـك الـذي يـراود فكرهـا وهـو يتحـرر مـن الشـريط، وعينهـا مصـبوبة إلـى ذلـك الأمـل الـذي يـدور فـي خلـد كـل امـرأة تتـوق إلـى التتـويج بالأمومـة. كأنهـا لـم تصـدق عينيهـا وهـي تتبـع الظـن ومـا تـرى، ومـا أخبرهـا بـه شـريط الاختبار...

ومـا إن مـرت دقـائق أخـرى، حتـى ثبتـت الفكـرة فـي ذهنهـا، إذ غمـق لـون الخطـين وازدادا وضـوحًا بلـون أزرق نيلـي، أكثـر دقـة سـمكا وبـروزًا. خطـان متجـاوران بلـون غـامق... عنـدها انحـدرت مـن عينيهـا دمعـة فـرح وغبطـة، رطبـت خـديها. أيقنـت أن مـا أصـاب جسـدها مـن تغيـر كـان بفعـل الحمـل. إنهـا حامـل... إنهـا حامل!

قفـزت مـن مكانهـا وهـي تضـم شـريط الاختبـار إلـى صـدرها، حينهـا هجسـت بخفقـة فـي فؤادهـا، كـأن همسـة غريبـة طرقـت أذنيهـا، لـم تهجـس بهـا مـن قبـل. همسـة مفعمـة بإحسـاس الأمومـة، قادهـا شـعورها إلـى سـماع صـوت خافـت يخـرج مـن بـاطن الشـريط، يـدعوها إلـى الصـلاة والشـكر. صـوت نـاعم، نـاغم، تخيلته صوت جنينها يقول لها:.....

- صباح الخير يا ماما...

عندها التمعت عيناها بالدمع، وتهلل فغرها بالبسملة والبسمة. لقد سمعت فعلًا صوتًا قادمًا من أعماق الروح، همس لها في أذنها عبر شارات مورس، تكورت أحرفه في ذهنها بكلمة "ماما"، ليخبرها أن نبضات قلبه قد ارتبطت بنبضات قلبها، وأن القلب بدوره نقل تلك الإشارة إلى المخ، ففسرها عبر مستشعرات الأعصاب الحساسة، والحاسة السابعة والثامنة.

ذلك الإحساس لا يشعر به سواها، جعلها تستجيب له بردة فعل سريعة لا إرادية، تمثلت في الغبطة ودموع الفرح. همست في قناعة وصمت، وهي تحاكي الشريط:...

شكرًا يا رب، احفظه سندًا لي...

ثم دنت من الشريط، قبلته، وانحنت عليه، قائلة:....

صباح الخير والنور يا حبيبي، يا روحي... لقد شغلتني طويلًا، وها أنت أخيرًا تصفح عن وجودك وتطل عليَّ بالفرح.

- أنا بخير يا ماما، لا تقلقي...

جاءها الرد سريعًا، نبع ذلك الصوت من أعماق الروح، هز كيانها وأربكها كمس كهربائي، جعلها ترتجف. جاء من عالم خفي يقبع في جوفها، جنح بها وليدها إلى مسرح الحقيقة، وانطلق مغردًا من ذلك الشريط الزمني العابر للأحداث، أشبه بالمارد، ليقول لها: "صباحك خير يا ماما". إنها مستشعرات حساسة تعمل عبر الأثير والباراسيكولجي، تخبرها بفعل الغائب...

إنها رسالة اطمئنان، تخبرها ألا تقلق، ألا تجزع، فهو قادم إليها قريبًا. سيحمل عنها وزر مصاعب الحياة، سيمحو شهقة الآه، ورجفة الأنين، وشجن الوحدة... التمعت عيناها، وتأملت جيدًا ذلك الشريط لتتأكد من حقيقة الصوت، لقد بدأ يظهر أمامها بأشكال الطيف. حلم كانت تسعى خلفه، هجست بذاتها تسمع كركرته، فابتسمت له لتطمئنه، ولتطمئن على سلامته.

المفاجأة جردتها من عالمها المادي، ودعتها تمرح معه في خيال طويل بألوان الطيف. كأنها كانت تفتقد شيئًا ثمينًا، وعلى حين غفلة وجدته أمامها، فتعلقت به. صارت ترفق به وتعتني به بلطف وعطف منقطع النظير. إنه شريط ابنها، ورابط قلبها، ستحتفظ به حتى تريه ما عانت لأجله حين يكبر في حضنها.

ما إن لمحت غمقة لون شريط الاختبار، حتى قفزت من مكانها، واضعة راحة يدها على بطنها تتحسس جنينها، حينها صاحت بوحدتها: "شكرًا يا الله..." كأنه سمع ندائها، فرد عليها بتلك الهمسة قائلًا:....

- لا تقلقي يا ماما، أنا بخير... أحبك يا ماما.
- ها حبيبي... ها يا روحي، أنت تسمعني؟ أنت معي؟ هجست بك تناديني، ها أنا قربك.

أدركت مع غمقة الخطين أن جنينها يحاورها ويقترب منها، بل أراد مفاجأتها بوجوده. فارتعشت أوصالها، رفّ جفنها، شغف قلبها، ارتجفت أطرافها، وصارت تتمعن بالشريط بدقة بين مصدقة وغير مصدقة. إحساسها هيّأ لها أنها تحادثه ويحادثها...

فعلاً، ها هو يبتسم لها. لقد برز لها من باطن ذلك الشريط أشبه بالمارد، كأنَّ طيفه يلاعبها لعبة الاختباء. سمعت همسته ترتد إلى صوان أذنيها:...

- صباح الخير... صباح الخير يا ماما...

يا الله، كم جميلة تلك النغمة التي تخرج من الروح! شعرت بنشوة وابتهاج واغتباط وانشراح وسعادة ما بعدها سعادة. تهلل وجهها بمسحة الفرح، وكأنها كانت تنتظر تلك المفاجأة منذ زمن.

عادت ودققت في شريط الاختبار مرة ثالثة ورابعة وخامسة، وكأنها في كل مرة تمسح الشريط بيدها أو بنظرة عينيها تشعر به يخرج منه كالمارد، يكلمها ويقول:....

- ما بكِ يا ماما؟ كأنكِ لم تسمعي همساتي ولم تصدقي وجودي؟
- أنت مرة ثانية تهامسني...
- كأنكِ لم تصدقي ولادتي... أنا قادم يا ماما، اعتني بنفسك واعتني بي، كي تكتمل أعضائي وتقوى عضلاتي وعظامي...
- سوف أفعل... أهلاً وسهلاً بك يا حبيبي، أنا بشوق لرؤياك، سأبذل قصارى جهدي لتعيش...

بقيت تنظر إلى الشريط بإمعان وذهول، إنه هو ذلك الطيف الذي كان يراودها. ها هو قد حل على حين غفلة، سحر

عالمها، وابتسم لها بلطافة من داخل الشريط، لا بل قلب كيانها رأسا على عقب، ما عادت تشعر بالمكان والوحدة.

كانت تهجس بملامح وجهه كدخان يخترق الأجواء، تختنق به ملامح ودودة. كلما دققت فيه، تهجس بلطافة وجهه. الطيف يحوم حولها، تود أن تحفظ تلك الملامح، ولكن سرعان ما تختفي الصورة في ديجور الفكرة، وتغوص في ذاك الدخان، كأنه يقول لها: "لا زلت صغيرا في طور التكوين، دون ملامح واضحة."

ما إن تهامس الطيف بإحساسها الرهيف، حتى يتماهى في دهاليز الفراغ المحيط بها، ليتشكل لها خيال طائر، يطوف في أروقة ذهنها والغرفة...

أحيانا تهجس به يتبعها، يغف بين ذراعيها، يغور في خيالها، تتقلب صوره بين عوالم الحقيقة والخيال، في امتداد عام لعروق مجسات مستشعراتها. هكذا ترتقي أبعاد الروح الذي عقص فكرها إلى مصافي اليقين. لم تستطع تحديد تلك الملامح، لكنها هجست بوسامته وبلطافة طبعه، بجمال صفاته وطيب قلبه وإذكاءه وإطلالته.

تركت شريط الاختبار على الطاولة ليذكرها به، لتتمعن به بين لحظة وأخرى، صارت تشعر بألفة مع تلك الطاولة التي حملت صورة وليدها، بقيت على تلك الوضعية لساعة زمن أو تزيد؛ حتى أرتقت الشمس درجات الأفق، حينها رفعت الهاتف لتفرغ

مخزونها به، لينقلها بصفة ساعي لجوف الحبيب، لتفرح زوجها بحملها، لتشركه فرحها.

صورت شريط الاختبار بهاتفها، ثم لفّته بمحارم ورقية واحتفظت به في حقيبتها. لم يكن مجرد شريط، بل قطعة من روح وليدها، وبشارة قدوم فلذة كبدها. لذلك أولته عناية خاصة، ليبقى ذكرى جميلة تهامس بها زوجها كلما اشتاقت له.

في ذلك اليوم، لم تذهب إلى المطعم. كأنها شبعت من الفرح وسبغت ذاتها بنعمة طالما تأملتها وهي صبية، والذي أغرقها بسرور وابتهاج، داهمها على حين غفلة، بدّد هالة الهم والغم التي كانت تخيّم على قلبها وذاتها وهي تعيش حيرة وقلقا في الكامب. سُدّت شهيتها عن ملذات الطعام، وغاصت مراكبها في بحور الخيال. راحت الأفكار تتهافت عليها، تتحفها برؤى الغد وصوره وملذاته، فأغمضت عينيها وطافت في حقول الأمل ومراعي الهناء والمستقبل.

في تجوالها، خالت وليدها يرافقها، يدور معها في مشاويرها، يضحك معها، يعبث بيديها. حلمت بشكل وجهه، بلون عينيه، بابتسامته، بحركاته وهي تداعبه وتلاعبه. مازحت زوجها، وتمنت لو يشاركها أحلامها، ليستشعر نبضها، فهمست له، وفي ظنها أنه يسمعها:....

- "يا أحمد، هل تسمع صوت صغيري؟ إنه يشبهك، لكنه أكثر وسامة منك... إنه قطعة مني. هل تسمعني؟ تعال واجلس بجانبي، فأني لا أطيق البعد عنك. لكني منذ

اليـوم، لـن أكـون وحيـدة فـي غرفتـي. وإن غبـت عنـي، سـتبقى روحـك معـي، تجـاملني، تسـليني، تسـبح فـي جـوفي، فـي جسـد صـغير... إنـي حامـل يـا أحمـد. سـأداعبه وكـأني أداعبـك، سـألاعبه وكـأني ألاعِبـك... هـل تسمعني؟"

شـعرت بلغـز الحيـاة يطـوف فـي أرجـاء الغرفـة، هجسـت بضـياء نجمة بعيدة تهمس لها:.....

- "لا تجزعـي، سـتكونين أمًـا قريبًـا، سيشـغلك وليـدك عـن هموم الدنيا."

تلـك النجمـة، كأنهـا كانـت مختبئـة فـي سـقف الغرفـة، فـي مصـباح الإنـارة، ظهـرت لهـا مـن خلـف وجـلٍ أصـاب سـماء فكرهـا، ثـم تماهـت فـي بـاطن الشـك كضـوء خافـت خبـا وتلاشـى فـي الأفـق بفعل ضياء الشمس.

ذلـك الخيـال بـات يتنقـل بهـا مـن قمـة إلـى قمـة، ومـن بسـمة إلـى بسـمة. هجسـت بلحظـة عـابرة تحتضـن فيهـا وليـدها بـين ذراعيهـا، تداعبـه، تناغيـه، ويناغيهـا. ومـا إن تعـود إلـى واقعهـا، حتـى يتلاشـى ذلـك الطيـف مـن بـين أناملهـا، كأنمـا كـان حلمًـا يسـكن أطياف قلبها.

بـين ابتسـامةٍ وحـزن، كانـت تمـر اللحظـات بأشـكالٍ متقلبـة، كأنهـا تراقصـها علـى إيقـاعٍ مـن الـذكرى والانتظـار. تـذكّرت مـا ينتظرهـا مـن رحلـة الحمـل الطويلـة، ومـا يعقبهـا مـن آلام الـولادة وعُسـرها،

تلك اللحظات التي لا تُنسى، ولا تُحتمل. كيف ستواجهها؟ كيف ستلد إن بقيت في الكامب وحيدة؟ لكنها عزمت أن تتحمل، في سبيل أن يحيا وليدها. تلك هي قمة السعادة والتضحية، حين ترى طفلها يرتع بين ذراعيها، تتأمل تفاصيل وجهه بدقة، واثقة أنه سيشبهها.

غاصت فترات كاملة في صورٍ متقلبة داخل ذهنها، عالمٍ غريب وبعيد، حتى رنّ هاتفها الآيفون. كان أحمد، زوجها، على الخط، يودّ الاطمئنان على صحتها:.....

– ألو...
– هلو حبيبي، صباح الورد والياسمين والجوري والفل والكادي والقرنفل والتوليب واللافندر والغزل والمحبة والصفاء...
– صباح الخير حبيبتي، أراكِ منطلقة هذا الصباح! ما وراءك؟ ثم من هذا "صفاء"؟ أتعبثين مع غيري؟ (قالها ممازحًا، يضحك على وجه الصبح)
– مشتاقة لك يا سليل الروح، بقدر البعد الذي يفصلنا، وبسحر وطلة صفاء...
– الله الله يا جميلتي، ما بك هذا الصباح، وما به صباحك الفاتن الذي تغردين فيه كالكروان؟ هل جننتِ؟ تكرّرين اسم صفاء، من هو؟ أوجدتِ حبيبًا غيري؟
– نعم، وجدت حبيبًا جديدًا... أنا بخير يا عمري، بخير يا سعدي، وأود أن أبشّرك يا أحمد بقدوم صفاء...
– لم أفهم، حيرتني... من هو صفاء؟

– ابننـا... قـررت أن أسـميه صـفاء، سـواء كـان ذكـرًا أم أنثى. أنا حامل يا أحمد...

ساد صمتٌ قصير، ثم انفجر صوته فرحًا:

- صـحيح؟ ألـف مبـروك! أنـا سـعيد جـدًا بهـذا الخبـر... هـذا يعني أنني سأكون أبًا قريبًا. كيف علمتِ؟
- افـتح الكـاميرا لأريـك شـريط الاختبـار... أو دعنـي أرسـل لـك صـورته عبـر الواتسـاب، فالنـت عنـدي ضـعيف جـدا وقد لا تعمل الكاميرا.
- يكون أفضل...
- دقّـق فيـه، سـترى خطـين متـوازيين. هـذا دليـل علـى صـحة الحمـل. لـو كـان خطًـا واحـدًا، فالحالـة سـلبية، أمـا الخطـان فهمـا دليـل إيجـابي. تمعّـن جيـدًا، سـتجد فيهمـا سـلامًا لـك من ابنتك صفاء. سترى كم هي جميلة الملامح...
- تقصدين ابننا عمر؟
- أي عمـر؟ أقـول لـك صـفاء! أتمنّاهـا بنتًـا، واسـم صـفاء يصلح للبنت والولد...
- علـى رسـلكِ، سـواء كـان ولـدًا أم بنتًـا، أتمنّـاه يشـبهكِ يـا حبيبتـي. مبـروك علينـا. المهـم أن يكـون بصـحة جيـدة. غـدًا سـآتي وآخـذك مـن الكامـب إلـى البيـت، لترتـاحي مـن قـرف المكان قليلًا.
- أفضل شيء تفعله، أنا في انتظارك...

فتحـت حقيبتهـا، أخرجـت شـريط الاختبـار، أبعـدت عنـه المحـارم الورقيـة، وتأمّلتـه جيـدًا. رأت وليـدها يتمثّـل لهـا فـي ذلـك الـدخان،

يبتسم لها، والخطان في الشريط ازدادا غمقة، يؤكدان أن الحياة تنمو في أحشائها.

- يا أحمد، انظر إلى الخطين... صارا أكثر غمقة من قبل، هذا دليل كافٍ على أنني حامل. أنا فرحة جدًا، لا أريد البقاء هنا. يجب أن تأتي غدًا لتأخذني من هذا السجن. أود أن أرتع في أحضانك، وأشم عطرك وأنفاسك. أنا متعبة نفسيًا...
- كوني مطمئنة، واهتمي بذاتك. غدًا سأكون عندك في تمام التاسعة صباحًا، فأنا أيضا مشتاق لكِ...
- هيا، مع السلامة... دعني أعيش لحظات الفرح مع صفاء...
- مع السلامة.

الغثيان والوحم عند المرأة الحامل خلال الاشهر الثلاثة الأولى.

5- نصائح أم هنادي

منذ أن علمت بحملها، تبدّلت طباعها، وانقلب حالها، وتغيّر مزاجها. غدت مرهفة الأحاسيس، شفيفة المشاعر، كأنها تخلّصت من أثقال الضغوط التي كانت تحاصرها وتنازعها على المكان. أصبحت أكثر مرونة، سلسة المزاج، هادئة، لطيفة، رقيقة، تنزوي في وحدتها كمن يعانق ذاته للمرة الأولى. كأنها أزاحت عنها لفائف العقد التي قيدت روحها، وتحرّرت من قيود نفسية طالما قوضت جمالها الداخلي. لا، بل أضحت أكثر إشراقًا، فتنة، وألقًا، رغم أنها كانت ترى نفسها قد خَسَت كثيرًا في عيون ذاتها. لكنها التمست وهج شعلة سعادة توردت في أعماقها، كأن الحياة تنبت من جديد في رحمها.

أدركت أن حالها تغيّر، شكله، لونه، إطاره، وحتى صمته وسكونه. لم تعد الأحداث تخصها وحدها، بل ركنتها في زاوية القدر، حيث الأحقاب التي أرهقتها لا تزال تهمس في داخلها، لكن حدتها خفّت وطأتها. لم يعد عليها سوى أن تتخلّص من وساوس الظرف، ومنغصات الأيام التي ابتلعت مزاجها وألقها وجمالها وذاتها على حين غفلة. وإلا، فإنها ستُرهق نفسها وجنينها، وتفقد زمام الأمور إذا ما بقيت متقوقعة في قسوة اللحظة، وتمسّكت بالعُقد التي آن لها أن تُحل وتتفتت.

عليها أن تواجه القدر الذي عاندها بالحكمة واللامبالاة. لا ينبغي لها أن تؤول العقد أو تغرق في تفاصيلها، بل أن تأخذ الأمور ببساطة، كما تفعل الفتيات الأخريات اللواتي يشاركنها

ذات الظـرف، بعيـدًا عـن تعقيـدات الواقـع. لتـنعش ذاتهـا وتعتنـي بصـحة جنينهـا، عليهـا أن تؤجـل رغباتهـا النفسـية والغريزيـة، وتؤمن بأن الزمن كفيل بفك العقد وحل المعضلات.

ومـع تكـرار نوبـات الغثيـان، نصـحتها أم هنـادي، بخبرتهـا التـي صقلتها عبر خمسة ولادات بعد هنادي، قائلة:.....

- "ابتعـدي يـا ابنتـي عـن محفـزات الغثيـان، سـواء كانـت أطعمـة فـي غرفـة الاسـتراحة، أو روائـح عطـور، أو مـذاقات تثيـر نفـورك. تجنبـي كـل مـا يـوقظ شـعورك بالغثيان.
تنـاولي وجبـات خفيفـة علـى فتـرات متقاربـة؛ المقرمشـات والساندويشـات الصـغيرة قـد تكـون خيـر معـين. احتفظـي بالفواكـه الحمضـية قـرب سـريرك، كالبرتقـال والليمـون، وتناوليهـا عنـد الحاجـة أو قبـل النـوم... جربـي مشـروب الزنجبيـل أو الشـاي، فهـو مفيـد فـي هـذه المرحلـة. ولا تنسـي جرعـات فيتـامين B-6-12، فهـو آمـن أثنـاء الحمـل وقد يخفف من حدة الغثيان."

شـكرتها بحـرارة، وشـعرت وكأنهـا فـي حضـرة عائلتهـا، بـين هنـادي وأميمـة وعائلـة هنـادي التـي أحاطتهـا بالـدفء. كانـت أحيانًـا تكلـف إخـوة هنـادي بجلـب حاجياتهـا مـن المدينـة، لتخزنهـا قـرب سـريرها لأوقـات الحاجـة. وجـدت فـي الزيتـون تسـلية مسـائية، وفـي الليـل كانـت ترفّـه نفسـها بكـرز حـب البطـيخ، وعـين الشـمس، والفسـتق المملـح، والعصـائر الجـاهزة، ومشـروبات تتسلى بها.

وهكذا، وكأنها أخذت بمشورة أم صاحباتها، بدأت تهتم بنفسها وصحتها دون التفكير بالغد. أصبحت شرهة، تلتهم ما يقع تحت يدها ليهنأ جنينها ويصح نموه. راحت تقتني من الأسواق القريبة كل ما هو مفيد وصحي: علب السردين، التونة، الدولمة، الحليب الدسم، خاثر اللبن، العسل... كل ما يمنحها طاقة قلوية ويشد من أزرها، وكل ما يحتوي على البروتين الذي يعينها على ضعفها، خاصة مع اشتداد رغبتها في تناول اللحوم. صارت تلتهم التمر، الدبس، الطحينية، زيت الزيتون، الزعتر، الجبن، وكل ما يعوض نقصها من الطاقة، مما لا تجده في مطعم الكامب.

زميلتاها، هنادي وأميمة، عنين بها، حملن عنها حاجياتها، أجبرنها على تناول الفواكه والبروتين، شاركنها الحياة بألفتها وضحكاتها. شعرت أنها كسرت قيد الوحدة، وإن كنّ لا يعوضن غياب عطفة أمها أو حنان زوجها.

ما كان يزعجها هو الغثيان الصباحي، الذي يداهمها باستمرار، ويشعرها بالاستفراغ والتقيؤ. ذلك ما يحدث للحامل في بدايات الحمل، خاصة خلال الأشهر الثلاثة الأولى، حيث يشتد الغثيان بعد الاستيقاظ، وقد يتكرر خلال النهار أو الليل، فيعكر صفو مزاجها.

كما أنه في حالاتٍ نادرة، يكون الغثيان الصباحي شديدً الوقع عليها يصاحبه قيء متقطع، فتتحول حالتها إلى حالة تُعرف **باسم القيء المفرط الحملي**، الذي يسبب فقدانًا للسوائل وضعفا

في البدن على ما كانت عليه قبل الحمل، هذا ما بان فعلا على هيكل جنان دون أن تلم بالأسباب وراء ذلك.

شغلها جنينها عن كل ما جرى في حياتها، فصار فكرها يدور في فلكه، لا يشذ عن ذكره، حتى وهي منشغلة مع زميلاتها في شؤونهن النسوية المشتركة. بات حضورها الذهني مكرّسًا له، يأخذ جلّ وقتها، حتى غدت لا تماري نفسها في نسيان ذاتها، وهي بين زميلاتها. تذهب إليه حافية القدمين، مثقلة بالهواجس، تخاطره بلهفتها، وتنحرف عن قوس الألفة بسرحان قد يطول أمده وهي بين زميلاتها، لتجد نفسها مصطفة خلف هاجسها المرهف، جانحة صوبه كأوراق الشجر المتشبثة بغصنٍ في مهبّ الريح.

كثيرًا ما كانت تسأل زميلاتها عن موضوع الحديث وجوهر النقاش الدائر بينهن، محاولةً الدخول مجددًا في دفء الألفة، لتثبت لهن وجودها على خط التواصل والحوار الساخن. ومع ذلك، كنّ يعذرنها ويضحكنَّ على شرودها، مدركات أن ما يشغلها أعمق من مجرد غياب مؤقت.

قد يكون نسيانها لذاتها شكلًا من أشكال الهوس بجنينها، نتيجة فرط التفكير والخوف عليه، والولع به، ومراعاة صحته وشكله وجنسه. كل ذلك غربل فكرها، فأنساها وجودها ومصيرها، وأبعدها عن عقدة الكامب، وقرارات دائرة الهجرة، ومدة الانتظار التي لا تعرف لها نهاية، وصدع العلاقات بين عناصر مجتمع المهاجرين... تلك التراكمات التي تثقل كاهلها.

وقد تكون المسألة طبيعية، نابعة من ثورة التغيرات الفسيولوجية التي طرأت على جسدها، فعبثت بسلوكها الشخصي، وأثّرت على مزاجها، وجعلتها تسبح في بحر من التقلّبات النفسية والعاطفية، لا ساحل له.

خلال مكوثها في الكامب، قبل أن تدرك أنها حامل، أصابها التيه كما أصاب أصحاب السبت. ظلت تعيش أزمة ضياع وشرود ذهني، تتقلب في أزمات نفسية مثقلة بالتناقضات، تصارع ذاتها المتقلبة، وتخوض لحظات تَحدٍ لم تتهيأ لها، ولم تعِدّ نفسها لمخاضها ونتائجها. كانت غارقة في أزمة ظرفٍ قاسٍ، ووحدة قاتلة، وفراق مرير نهش تفكيرها، زاد من أزمة ثقتها بنفسها في مواجهة واقع مرّ تعيشه بمفردها، مركونة في رفوف ذاكرة دائرة الهجرة.

الوحدة التي شعرت بها لم تكن وحدة وجود، بل وحدة فكر، وحدة صوم عاطفي أنهك روحها، وحدة مجانة وتفكير متواصل في غياب زوجها. ذلك البُعد عنها كلّفها ثمنًا باهظًا من صحتها وعافيتها، فجفّت عروق التواصل، غدت كنبتة في قفار جرداء لا تلامسها لهفة، ولا تعطفها طاقة، تصلّيها شمس الوحدة بلا رحمة.

كانت بحاجة إلى رواء جسدي، واعتناء ذاتي، وترميم نفسي، بعد أن تآكل جدار العرش بفعل الفراق. كانت بحاجة إلى مناقشة أمر الحمل، وإدارة العواطف عن قرب مع شريكها. فهي أنثى، تتوق إلى الاهتمام بمفاتنها، وصحتها، وراحة بالها، تسعى لأن تجعل من كيانها الوردي أصيص ورد بهيج في

كنف الحياة الزوجية، أن تكون نهر محبة ترعش على ضفافه سنابل الحبيب المطلة.

لقد قسى عليها الزمن بحكم الظرف، وجدت ذاتها كقشة تهفو بها الريح في ذلك الفراغ الشاسع المحيط بها، على الرغم من أنها تهاتف زوجها بشكل يومي وروتيني في الصباح والمساء، إلا أن ذلك لا يفي بالغرض ولا يعوض عن لحظات التناغم والتلاحم الجسدي بينهما وخاصة تكرار العبارات تجعل الاتصال ممل، حيث بمجرد انتهاء المكالمة تعود الأمور لسابق عهدها وتكهنات الكامب، تمحى هالات العواطف من ذاكرة الهاتف، تخف شهقتها للحياة، بالذات إذا ما وجدت ذاتها أسيرة وحدة وجدل ومكان بغيض لن يرحم مراوديه.

بأناملها الرقيقة أخذت قلما وورقة، صارت تدون عليها بعض منغصات الحياة التي تتكرر عليها خلال فترات اليوم، كما صارت تسجل عليها جدول يومها المجدول بالروتين والعبث كالتالي:.....

يوم السبت، 8\1\2021:....

الفطور: قطعة جبنة، صمونة دائرية صغيرة بقطر عشرة سم، ملعقة مربى، علبة حليب، بيضة.

الغداء: معكرونة، صلصة فطر، علبة كارتونية صغيرة من عصير التفاح المصنع، قطعة خبز الماني بحجم نصف الكف.

العشـاء: قطعـة جـبن، صـمونة صـغيرة، ملعقـة عسـل، علبـة حليـب 100 ملم

الطقـس؛ غـائم، مـثلج، ريـاح خفيفـة السـرعة، درجـات الحـرارة ستة تحت الصفر.

يوم الاحد: 9\1\2021

الفطـور: قطعـة جبنـة صـغيرة، صـمونة صـغيرة، ملعقـة مربـى، علبة حليب، تفاحة.

الغـداء: مغرفـة رز مـع فخـذ دجـاج، مـرق بطاطـا، علبـة عصـير برتقال نوع دالي.

العشاء: قطعة جبن صغيرة، صمونة ، ملعقة مربى.

الطقـس؛ غـائم، تسـاقط وفـر الـثلج، ريـاح خفيفـة سـرعتها 10 عقدة\ ساعة، درجة الحرارة خمسة تحت صفر.

النزول إلى المدينة لشراء بعض المستلزمات الضرورية.

الأثنين – الثلاثاء – الاربعاء – الخميس – الجمعة ...

نفـس الـروتين، كانـت قـد حفظـت المـنهج، أنهـا شـركة ربحيـة تمـتص دم المهـاجرين، فـلا تهمهـا مـاذا نأكـل ومـاذا نشـرب. المهـم أن تزيـد مـن دخلهـا، لتصـبح فـي نظـر الدولـة شـركة ضـامنة، لهـا باع في سرقة قوت المهاجرين، لـيجدد عَقْدُها مستقبلا.

في زاوية من غرفتها، دونت تاريخ اختبار الحمل على الجدار: 2020/11/21. لم يكن مجرد رقم ختم على الحائط، بل بداية فصل جديد من تقلبات حياتها. منذ تلك اللحظة، انشغلت بتفاصيل تكوين الجنين، بنبضه الأول، بصحته، وبعمره الحقيقي. كانت تراقب كل تغير يطرأ على جسدها، وكل شعور جديد يراودها.

لكن الغثيان والتقيؤ لم يتركاها، وكأن جسدها يعلن عن مرحلة جديدة لا تعرف عنها الكثير. فهي لم تخض هذه التجربة من قبل، كما أنها بكر أمها، وحيدة البيت، لم ترَ حملًا عقب ولادتها ولا عن قرب، لم تعش تفاصيله إلا الآن. وحين تشتد عليها الأيام، تلجأ إلى النساء من حولها، تسأل، تستفسر، أو تهاتف والدتها لتجد الطمأنينة في صوتها.

صارت تعد الأيام، أسبوعًا بعد أسبوع، تراقب عمر صفاء، تتعقب تعليمات عن جنينها، وكأنها تراقب حلمًا ينمو في رحم الزمن. تقلب صفحات الإنترنت بحثًا عن مراحل نموه، عن إجابات لأسئلتها المتراكمة، عن طمأنينة تطفئ قلقها. كانت تتمنى لو أن الزمن يسرع، لتحتضن وليدها، لترى وجهه، لتشعر بدفئه بين يديها.

طيفه لا يغيب عنها، يسكن خيالها، يرافقها في كل لحظة. اتصلت بوالدتها وحماتها، تخبرهما بخبر الحمل، تطلب منهما النصيحة. والدتها، التي تعرفها جيدًا، أوصتها بالهدوء، بالصبر، وبأن تبتعد عن القلق الذي يلازمها. كانت قد أخبرتها بالحمل في يوم الاختبار، فبادرتها بنصيحة حانية: كوني

حـــذرة، وامنحـــي نفســـك فرصـــة لتعيشـــي هـــذه الرحلـــة بكـــل تفاصيلها.

- ماما أبشرك أنا حامل!!!
- مبـــروك يـــا أبنتـــي، ألـــف مبـــروك، فرحـــي مـــن فرحـــك، أنتظـــر بســـرور قـــدوم حفيـــدي، أوصـــيك أن لا تجهـــدي نفســـك، لا تحملـــي حاجـــة ثقيلـــة، لا تشـــدي أعصـــابك وتقهـري ذاتـك، فأنـا أعـرف طباعـك العنيـدة، أنـت عجولـة والأمـــور لا تـــأتي إلا بالصـــبر، فـــاكبر عـــدو للجنـــين هـــو حالـة عـدم الاسـتقرار النفسـي لـلأم ، تلـك الحالـة تـؤدي إلـى تضـــخم البنكريـــاس وبالتـــالي يفـــرز مـــادة ســـمية حامضـــية تقتل الجنين.

كـوني حـذرة، هادئـة مـع ذاتـك ومـع زوجـك، أحـذرك للمـرة الثانيـــة مـــن حمـــل الأشـــياء الثقيلـــة خـــلال فتـــرة الأشـــهر الثلاثـة الأولـى مـن الحمـل حتـى يثبـت الجنـين فـي الـرحم، هـذه فتـرة حرجـة، فتـرة التصـاق الجنـين بـرحم الأم، أي عبـث منـك قـد يـؤدي إلـى موتـه أو إسـقاطه! وتكـون خطـرة على حياة الحامل.

- شـكرا مامـا علـى هـذه الملاحظـات، أطمـاني، أنـي أدرك تلك الخطورة، لقد قرأت عنها في صفحات الأنترنت.
- طيـب... أخبرينـي بكـل جديـد، وسأتصـل بـك فـي كـل يـوم، مبروك عليك الحمل ومع السلامة.
- مع السلامة يا أحلى ماما....

صارت تتصل بها يوميًا تقريبًا، تطمئن عليها، وتنصحها وترشدها كلما احتاجت إلى ذلك. وبفضل كثرة أبحاثها على النت والاستفسار من ذوات الخبرة، أغنت معرفتها بمعلومات دقيقة عن فترة الحمل والعناية بالجنين. كانت قد وجدت في أحد المواقع شرحًا وافيًا لحالتها، يوضح عملية الحمل وحساب عمر الجنين، إلى جانب ما استقته من طبيبتها.

من خلال تصفحها لمواقع الإنترنت، أدركت أن مدة الحمل تُحسب بعد بداية الحمل بأسبوعين، أي بإضافة سبعة أيام إلى أول يوم من آخر دورة شهرية، ثم إضافة تسعة أشهر لاكتمال نمو الجنين. وتوقعت أن تستغرق فترة الحمل ما بين 37 إلى 42 أسبوعًا.

ما دفعها لشراء شريط اختبار الحمل كان انقطاع الدورة الشهرية، أي بعد أن تكوّن الجنين في رحمها بأسبوعين تقريبًا. كان من المفترض أن تأتيها الدورة قبل عشرة إلى خمسة عشر يومًا، لكنها بدأت تلاحظ انتفاخًا في الأثداء وتغيرًا في لون الحلمة، وزيادة في حساسيتها. شعرت بتغيرات أخرى، منها اختلال في المزاج ورهافة في الإحساس، نتيجة اضطراب الهرمونات. أصابها شيء من الوهن والغثيان، جعلها تلجأ إلى الفراش لتريح جسدها ونفسها، خاصة حين تهجس بذاتها قد تراخت وذوت، أو حين تنزوي في غياهب وحدتها وخيالاتها. شعرت باختلال في الجهاز التناسلي، بسبب كثرة الإفرازات والتبول، مما أثار قلقها وزاد من حساسيتها. أضيف إلى ذلك

الإرهاق والإعياء والنعاس الذي خيّم على جسدها، وكوّر مزاجها المتقلب في ميدان الحيرة.

ما جعلها تلتفت إلى صحتها أكثر هو ظهور نقط حمراء على سطح الجلد، خاصة في الأطراف والبطن. هذه التغيرات شغلت بالها، فراجعت طبيبها وقامت بقياس مستوى السكر في الدم فوجدته مرتفع قليلا.

في البداية كانت قد ارتعبت من تلك التغيرات قبل أن تعرف السبب، كانت الأمور مبهمة، غير واضحة، لا تعرف بأنَّ طفح تلك التغيرات نتيجة انغراس البويضة في سقف الرحم. ما أشعرها بالغثيان والتقيؤ وتغير حاسة الذوق والشم وتغير رائحة الجسد ....الخ، يعزى ذلك إلى تغير مستوى الهرمون في الجسم....

كانت الطبيبة قد طمأنتها على صحتها وعلى سلامة حملها، كما أوصتها بوصايا أمها الروتينية وأم هنادي. خلال عملية التكوين يدخل الجنين في مرحلة نمو مبكرة بهيئة نطفة، ثم يستقر في قرار مكين ليتطور شكله لمضغة خلال الشهرين الأوليّن من النمو، ذلك ما أخبرنا به القرآن والعلم معا، في هذه المرحلة يبنى الهيكل العظمي للجنين، ثم تكسى العظام بالعضل والغضاريف، ثم يُعَرَّف بعدئذ بالجنين.

يتكون الجنين في البداية من بضع من الخلايا فقط. وعندما يأخذ دوره في النمو، تبدأ هذه الخلايا في الانقسامات والتطور،

وفي آخر الأمر تتضاعف إلى تريليونات من الخلايا التي تشكل هيكل الكائن الكلي.

بعد أن استطلعت تلك المعلومات، تصورت حجم الجنين في خيالها وهو في طور التشكيل في أحشائها. هذا ما جعل فكرها ينشغل به بشكل مستمر، وتراعي ذاتها في التغذية لألا يصاب جنينها بالضعف والتشوه.

المفهوم العلمي يطابق الحقائق التي تحدث عنها القرآن الكريم في التكوين ونمو الجنين، آيات تشرح مراحل نمو الجنين قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، وصفت خلق الإنسان في بطن أمه ومراحل تكوينه وتطوره بدقة، من لحظة تشكيله كنطفةً إلى أن يخرج من بطن الأم وليداً كامل الأعضاء، سليم الحواس. طفل في أحسن مظهر ومنظر وتقويم. مما أدهش العلماء وذوي الألباب برسالة الإسلام.

كان قد تحدث القرآن الكريم في قوله تعالى:....

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ*ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ*) [المؤمنون: 12-14] صدق الله العظيم.

إذا في مرحلة النطفة، يرتبط حيوان منوي من الرجل في إخصاب بويضة أنثوية، وينتج عن هذا الإخصاب النطفة المكوّنة من ماء الرجل ومن ماء الأنثى، **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ (قرآن)** : أَيْ مِنْ نُطْفَتَيْنِ مُخْتَلِطَتَيْنِ، والتي تنقسم لخليتين لتكوين الجنين والمشيمة.

في فترة الظهيرة استكانت عينيها على شريط الاختبار، وهي منسدحة على السرير لتقرأ طالعها السعيد في ذلك الشريط وهي تكلم ذاتها:....

- يا ترى أأنت ولدٌ أم بنتٌ؟ أني أتمناك زهرة، وأبوك يتمناك فارسا....

صارت تمعن النظر به وتحدثه وهي تهجس به مصباحا يضيء مستقبلها، متوهجا أمام عينيها كمصباح علاء الدين السحري، ما أن لامسته بأتراف اناملها؛ حتى هجست بدخان ينفذ منه، بان لها طيف وليدها وهو يدور في فلك ظنها مبتسما لها، مرددا:...

- أهلا بك يا ماما.. كيف حالك؟ أهلا بك يا حبيبتي...

فتستجيب خواطرها له دون كلف:....

- ها حبيبي من أين أتيت؟ من أين يخرج هذا الصوت الذي يهامس أذني؟
- هاهاها... من أين؟ ..أنتِ وأبي تلعبان معا وتقولين لي من أين أتيت؟
- هههههههههه, أنت ذكي.
- جدا. ألم تقرأ قوله تعالى" **فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**" لقد نزلت من ظهر أبي، حملت جيناته. ثم دخلت في نفق الحياة، وجدت أمامي بيضة، طرقت بابها ففتحت

لـي، فـدخلت لأغـرف منهـا جيناتـك لأضـيفها لجينـات أبـي، وإذ بهـا صـارت لـي مركبـا تجـري بـي فـي قنـاة مائيـة، حملتني وتزحلقت في تلك القناة أشبه برحلة نهرية..

- نعـم حبيبـي.... أنهـا الممـر السـري أو مـا تسـمى بقنـاة فالوب.
- هههههـه لا أدري مـن أيـن تخترعـون هـذه الأسـماء...ها إذا أنتِ تعرفين القصة..
- أود سماعها منك؟
- هـذه القنـاة اخـذتني لحـوض كبيـر جـدا، أهجـس بهـا كغرفـة مكيفة، هجست بدفئها فاستقريت بها.
- هـذه الغرفـة تسـمى الـرحم يـا حبيبـي، رحـم الأم وحضـنها الـداخلي، أو بيتـك، بيـت الطفـل حتـى يكتمـل نمـوك. سـأتحمل عبثـك فـي رحمـي حتـى تخـرج وأراك بعينـي وأحضنك...
- وأنا بشوق لرؤياك يا ماما لألعب معك.
- أحبك... أنت جزء من روحي....
- إلى اللقاء يا أمي

الامـام علـي بـن ابـي طالـب كـرم الله وجـه وهـو يتغـزل بثغـر فاطمـة الزهراء

6- المصاهرة بين جنان والجنين؟

بينما كانت تتأمل مراحل تكوّن الجنين على شاشة هاتفها، انساب بها الخيال إلى عوالم بعيدة عن الواقع، تخيلت جنينها في بدايته كنقطة صغيرة في صفحة بيضاء. نقطة لا تُرى، لا تُحسب في ميزان الأرقام، لكنها لها هالة جذب جلبت لها الأنظار، كانت كل شيء بالنسبة لها: روحها، حياتها، مستقبلها، وعشقها الأبدي. لأنها لم تكن مجرد نقطة عابرة من قلم عادي، بل كانت امتدادًا سري لروحها، قطعة من صبرها وأحلامها، وجودها يمنحها صبغة الحياة.

تبدلت أولويات الحسابات لديها، فبعد أن كانت ترى وجودها في الحياة ضرورة قصوى لإدراك السعادة، أضحى تسلسل وجودها يأتي بعد جنينها، تأخر من الناحية الاهمية والعملية لتحتل المرتبة بذاتها المرتبة الثانية بعد بروز نجمة جنينها تسطع في الأفق والذي في داخلها أسمته "صفاء" عسى أن يأتي خالي من العقد. حلّ في حياتها من هو يحرك ستائر حياتها، من هو أعز من روحها إلى ذاتها، من هو أهم منها في الحياة.

رغم صغر حجمه، لم يكن مجرد نقطة لجملة سابقة؛ بل كان مفتاحًا لحل ألغاز كثيرة في حياتها، ذلك النور الخافت والآتي من بعيد، كشف لها معانٍ كثيرة كانت مبهمة في قاموس الحياة، أعاد ترتيب أبجديات الحياة في داخلها، رتب مشاهد مسلسل حياتها حسب الأولوية، غير صيغة المفاهيم المطرقة والعبثية

منهـا لمشـاهد تراجيديـة ذا فتنـة وأهميـة وعمـق ووضـوح أكبـر فـي حياتهـا، أضـفى علـى فصـولها المبعثـرة صـبغة رجـاء ذات عمـقً ومعنـــى. أصـــبحت تـــرى الحيـــاة بصـــفاء ووضـــوح وبعيـــون، تمســـكت بهـــا، أحبتهـــا، تســـلقت صـــعوباتها، ارتفاعاتهـــا وانحداراتها، صـارت تمـرح فـي سـهولها وانبسـاطها كطـائر يحلـق فوق مروج خضراء مع النسيم.

تغيـــرت مفاصـــل حياتهـــا كليًـــا، غـــدت أكثـــر نضـــجًا وحيويـــة وكبريـــاء. ازدادت أهميـــة المرحلـــة فـــي كنفهـــا وتألقـــت فـــي عـــين زوجهـا، بعـد أن أخبرتـه بأنهـا تحـتفظ لـه بـأغلى هديـة قـد يتمناهـا. تلـك النقطـة التـي نشـأت مـن اتحـاد خليـة منويـة وبيضـة، غـدت ذات أهميـة وأفـق واسـع لعبـور كـل مراحـل التعقيـد فـي حياتهمـا، لـم تكـن مجـرد بدايـة حيـاة وتجـاذب، بـل كانـت بدايـة شـراكة روحيـة حقيقيـة، زادت مـن آصـرة الحـب بـين الأثنـين، قـوّت روابـط الوجـود المتبـادل. إنهـا تجـارة ربانيـة، صـفقة أبديـة بـين الـروح والروح، بين الحياة والحياة، بذات القدر المرسوم من قبل الإله.

حينهـا شـرعت تُبسـمل وتُسـبّح وتُحمـدل وتُهلّـل، مـرددة: "بسـم الله، سـبحان الله، الحمـد لله، لا إلـه إلا الله"؛ تعبيـرًا عـن خشـوعها أمـام عظمـة الخلـق وجميـل لطـف الله. تـذكّرت قولـه تعـالى: "وَمِـنْ آيَاتِـهِ أَنْ خَلَـقَ لَكُـم مِّـنْ أَنفُسِـكُمْ أَزْوَاجًـا لِّتَسْـكُنُوا إِلَيْهَـا وَجَعَـلَ بَيْـنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"" (الروم: 21).

بعـد إخصـاب البويضـة بـ حـيمن الرجـل، تبـدأ رحلـة التكـوين الطويلـة والمعقـدة، حيـث تتفاعـل الخلايـا لتنـتج "النطفـة"، وهـي أشـبه بـزرع بـذرة فـي رحـم الأم. غالبًـا مـا يـتم الإخصـاب داخـل

جسد الأنثى، لكن في حالات العقم، يُلجأ إلى الإخصاب الخارجي فيما يُعرف بـ"أطفال الأنابيب".

لكن ما يشغلنا هنا هو جنان، التي وجدت نفسها بعيدة عن زوجها، محصورة بين جدران التفكير والعيون الحاذقة والقلوب المراهقة في كامب للمهاجرين، حيث فيه تنحدر أفكارها ويتقلب مزاجها حسب الظرف والقسوة المحيطة بها، في وحدة تتسلل الهواجس لها من أفكارها، من جدران غرفتها وحاجاتها المتروكة فيها. لذا تسللت لوهدة التيه دون أن تفقه طرق التسلل تأخذها إلى مهاوٍ الخيال والتوحد.... بينما كانت تقرأ بعض الفقرات عن مراحل التكوين، نقلتها الهواجس بين صور الخيال، فشعرت بتقارب روحي بينها وبين أمها، فازدادت حبا لها وتعلق بها.

عفرت خدها دمعة حنين، انحدرت بوفاء من عينيها، دمعة خشوع وشكر وعرفان بعظمة الخالق. سرحت بخيالها بعيدًا، إلى جوف الزمن الغابر، إلى أول طفولتها وتذكارها، إلى عالمها المتقلب وهي تسبح في شجون ذاتها وما سيحدث معها غدا وبعد غد.. خالها أن تجد ذاتها ترضع وليدها، تحتضنه، تداعبه، تخيلت لحظة جوعه وبكائه حين تضطر لإهماله، تخيلته يضحك معها على أمور تافهة، بمجرد أن يهجس بوجودها، أو أنه لم يعتد على غيابها في لحظة لقائها.

سرعان ما أنقطع ذلك الوصل، لتعود إلى عالمها الملموس وهي تمسح دمعها بترف كفها.. تصورت ذاتها تلد وليدها في جحور الكامب، بعيدًا عن أمها وأقاربها، وحيدة تحتمل شجون

الـولادة ونغزهـا. كيـف سـتواجه ذاتهـا وتلـك الوحـدة؟ كيـف سـتعين ذاتهـا بـذاتها؟ مـا دفعهـا لهـذا التفكيـر هـو مشـاهدتها المـرأة البوسـنية وهـي تلـد طفلهـا الخـامس فـي الكامـب. قارنـت نفسـها بهـا، لكنهـا كانـت صـاحبة تجـارب عديـدة، أمـا هـي فهـذا حملهـا الاول، لـم تختبـر المخـاض مـن قبـل، بينمـا البوسـنية كانـت قـد تمرسـت صعوبات الحمل والانجاب فاعتادت على محنته.

أخـذت هاتفهـا لتتصـل برفيقتهـا هنـادي، لتبـوح لهـا بوحشـتها ووحـدتها فـي تلـك السـاعة المتـأخرة مـن الليـل. حاولـت مـرتين، لكـن شـبكة الاتصـال ضـعيفة جـدًا فـي تلـك البقعـة النائيـة، لـم تسـعفها على الوصول إليها.

عـادت تتـابع عمليـة الخلـق داخـل رحـم الأنثـى، وقـد علمـت أن الإخصـاب يحـدث فـي المجـرى السـري، فـي قنـاة فـالوب، حيـث تلتقـي البويضـة بـالحيوان المنـوي، ثـم تبـدأ رحلتهـا العجيبـة نحـو الـرحم، تنسـاب عبـر القنـاة الرطبـة، وكأنهـا تعـرف طريقهـا مسـبقًا، لتجد فيه مأوىً يليق بها.

خطـر فـي بالهـا سـؤالٌ عـابر، تسـلل كـوميضٍ مـن الدهشـة وهـي تتبع معلوماتها:....

يـا تـرى..... مـن الـذي أرشـد الخليـة الصـغيرة لتتجـه نحـو الـرحم دون غيرهـا مـن الخلايـا؟ مـا الـذي منعهـا مـن أن الانحـراف كمـا تفعـل ملايـين الحيوانـات المنويـة الأخـرى نحـو القنـاة البوليـة؟ حيـث ينتهـي بهـا المطـاف فـي المرحـاض؟ مـن الـذي يوجههـا

لتسلك طريقًا معاكسًا، لتستقر في المكان آمن الذي كُتب لها أن تبدأ فيه الحياة؟

وهذا السؤال أيضا موجه للقارئ العزيز، ليبدي رأيه ومشاركته الفعلية في رأيه وكتابة هذه الرواية وتوقعه لأحداثها....

بدأت تسبّح مع ذاتها في ترددات الاجابة وهي ترددد: سبحان الله العلي العظيم وبحمده... سبحان الله العلي العظيم وبحمده... الحمد لله رب العالمين، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، أهدنا السراط المستقيم، سراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.....

كل الخلايا حية، لكن هذه خالفت الاتجاه، وكأن فيها ميزة، وفعلا فيها ميزة ، أصبح فيها روح يختلف عن تلك الحيامن، أو أنها مسيّرة لا مخيّرة. إذا الخلية تتصرف وفق قواعد وعقل وتخطيط محكم بها، ولم تكن حركاتها عبثية، تهجس بها خلية حرة، فيها طاقة إيجابية ورمزية، مسيرة من قبل طاقة مجهولة دون إرادة، بل بإرادة خفية تتحكم بها وتقودها إلى هدفها.

تساءلت: هل تتحرك الخلية وفق عقلٍ داخلي؟....

هل هي مدفوعة بطاقة خفية تتبع إرادته دون أن تشعر بذلك؟....

هل في داخلها نظام معين، عقل صغير يتحسس، يوجّهها بدقة نحو هدفها؟ كأجزاء الكومبيوتر....

هذا التفكير شغل بالها، جعلها ترتد إلى ذاتها، تتأمل مخاوفها، تتساءل عن مصيرها. فإذا كانت الخلية مسيّرة من قبل طاقة مجهولة، فما بال الإنسان؟... هل نحن أيضًا نتحرك وفق إرادة خفية، نحو مصير محكوم ومرسوم لنا مسبقا؟ هل اختياراتنا حقيقة أم وهم، أم أن فينا عقلًا غير الذي نعرفه يقودنا كما يقود الخلية المخصبة؟

حاولت أن تقنع نفسها بأن الخلية تتصرف بعقل يكمن في داخلها، رغم صغر حجمها المتناهي. ذلك الإدراك جعلها تعيد النظر في قسمتها، في وجودها داخل الكامب، جعلها تتقبل ظرفها، وكأنه قدر مرسوم لها، كأنها اكتشفت معصية غير مكتشفة من قبل العلماء، معصية في فهمنا للحرية، وللقدر، وللخلق والإرادة. وتلك القوة الخفية لابد أن تعتني بها كما تعتني بتلك الخلية المتناهية الصغر.

لشغفها بحملها شغلها ذلك التفكير، صارت تكمل ما بدأت تقرأ، تغوص في تفاصيل الخلق الأولى، تتابع بدهشة كيف تتحول خلية صغيرة إلى كائن حي نابض بالحياة. علمت أنه في نهاية الأسبوع الأول من الحمل يُطلق على جزء الحمل في الأنثى اسم "جنين متقدم"، وفي تلك اللحظة يبدأ الرحم بدوره العظيم: تغذية الجنين وحمايته من المخاطر حتى يوم الولادة. بمجرد أن تلتصق الخلية بسقف الرحم، تتحول من مجرد بويضة مخصبة إلى جنين، كأنها حصلت على بطاقة دخول إلى عالم الحياة.

اكتشفت أن لحظة الإخصاب ليست مجرد اتحاد بين خلية وخلية، بل هي لحظة انتقال للميراث، حيث تُنقل إلى الجنين

الكثير من صفات الأبوين: لون الشعر، طول القامة، لون البشرة، لون العين، وحتى الذكاء والأصالة. تتحد صبغيات الكروموسومات من الحيوان المنوي والبويضة لتكوّن صبغيات الجنين المستقلة، تلك الأجسام الخيطية الدقيقة التي تحمل الجينات؛ هي بمثابة شيفرة الحياة، تنقل السمات الموروثة، وتحدد نوع الجنس، وتوجه نمط النمو والتطور في شكل الخلية.

ذلك التطور والانتاج يحدث داخل الجنين في تسلسل مذهل من العمليات الكيميائية المعقدة، أشبه بمصنع دقيق لأجزاء صنع عجلة. تمر قطع العجلة على الورش واحدة تلو الأخرى، حتى تكتمل في نهاية المطاف كعجلة تدخل ميدان العمل.

تُركب فيها القطع من الهيكل

ثم يُضاف المحرك

تليها الأجهزة الكهربائية

ثم التبريد

فالإضاءة

فالغطاء

وأخيرًا العجلات مع الأتراس التي تحكمها.

وفـي نهايـة العمـل، تخـرج العجلـة متكاملـة، صـالحة للجـري فـي الشـوارع، تمامًـا كمـا يخـرج الجنـين إلـى الحيـاة، مكـتملًا، مسـتعدًا لأن يبدأ رحلته في هذا العالم

إذا رحـم المـرأة مصـنعًا، فكـم عجلـة تسـتطيع أن تصـنع خـلال حياتهـا؟ ضـحكت مـن الفكـرة، لكنهـا لـم تكـن مجـرد مزحـة عـابرة، بـل تسـاؤل عميـق عـن معنـى الخلـق، عـن قـدرة الجسـد علـى إنتـاج رديـف لهـا فـي الحيـاة، عـن جملـة أرواح قـد تمـر عبـر قنطرتهـا، وتترك أثرًا فيها لن يُمحى.

وفـي اليـوم التـالي، ظـل الفكـر منشـغلًا بمـا تصـفحته فـي الليلـة السـابقة. كانـت قـد سـرقتها المعلومـات التـي طالعتهـا عبـر صـفحات المواقـع الإلكترونيـة، سـرقتها مـن واقعهـا، مـن أسـوارها، مـن حُـزم آلامهـا. وفـي لحظـة غفـوة تسـربت إلـى أعضـائها، وجـدت نفسـها تركـب مركـب الخـيلاء العجيبـة، تسـافر بهـا إلـى جهـة مـا، خـارج حـدود الكوكـب، حيـث لا حـراس ولا أسـوار، فقـط صـور جنينهـا وهـو يكبـر أمـام عينيهـا كنبتـة تداريها، يرافقهـا فـي مشـاوير الحيـاة وتقلبـات الـزمن. تخيلـت شـكله، طولـه، ملامحـه، رسـمته فـي مخيلتهـا كأنـه نسـخة مصـغرة مـن زوجهـا، كأنـه امتـداد لحـبٍ لـم يُكتمـل بعـد ملامحـه. حالـة النشـوة أنسـتها ذاتهـا، أنسـتها النـار والحديـد والأسـلاك والقـدر، أنسـتها الحـزن والوجـع والمـراهم وهـي تبحـر بـذاتها خـارج حـدود الكـون، لتلتقـي بتلـك الصـور العديـدة لابنهـا، وهـي تسـبح فـي فضـاء الخيـال، أسـيرة سـعادة رهينة، ذائبة في لحظات اللقاء القصيرة.

وفـي ذروة تلـك النشـوة، طـرق ذهنهـا صـوت هـامس، وهـي لا تـزال مغشـية فـي غفوتهـا. صـعقها الصـوت، جـاء مـن الأعمـاق، محمّـلًا بفـرح مفـاجئ عبـر غياهـب جـب الـذات والوسـن، عبـر عـالم الخيـال الواسـع المسـتعر. حضـر كبـرقٍ خـاطف شـج سـماء ذهنهـا بنـورٍ جعلهـا تنتبـه لمحيطهـا، جعلهـا تسـتيقظ مـن الخيـال، تتنبـه لـذلك الصـوت النـاعم الـذي انحـدر إلـى عالمهـا مـن داخـل جوفهـا المترامـي.... صـوت نـاغم لا يشـبه أي صـوت، تعرفـه تمامًـا، فيـه جاذبيـة، وألفـة، ومحبـة خالصـة. تعرفـت عليـه بأحاسيسـها، أنـه صـوت جنينهـا. هجسـت بـه كـودق الصـيف يلطـف أجوائهـا، كنسـمة الصـبح محملـة بغبـار الـورود، عـانق فؤادهـا بضـوع الياسـمين، همـس بأذنهـا همسـة العاشـق الحنـين، هجسـت بحـلاوة طبعـه وأناقـة سـحره، كتغريـد بلبـل الصـباح فـي سـره، كصـدح الكـروان والشَّـقِرَّاقُ، مـع تلامسـها خيـوط الشـمس عنـد العناق.

صـوت لا يشـعر بحلاوتـه وذبذباتـه غيرهـا، هفـا بخواطرهـا لواحـة الصـمت، لنشـيج الآه النـابع مـن روحهـا. حضـر بـوده ملاطفتهـا، حيث قال لها:...

- مساء الخير ماما، كيف حالك يا ماما؟
- روح مامـا، أيـن أنـت؟ كيـف تتحـدث وأنـت مـا زلـت نطفة، نقطة صغيرة؟

ضحك في خيالها، وهو يتهكم برقة طبعه على وصفها، قائلاً:

- هـذا لـيس أنـا... هـذه روحـي دخلـت غرفـة خيالـك، استشـعرت خوفـك وقلقـك علـيَّ، فارتبطـت بـك. أردت أن أهـدئ مـن روعـك، وأبـدد عنـك وحشـة الوحـدة ومخاوفـك الجافة. لا تقلقي يا ماما، أنا بخير.
- فدى روحك، كيف حالك؟ هل أنت بخير حقًا؟
- نعـم، أنـا بخيـر طالمـا أنـتِ بخيـر. لا تشـغلي بالـك بـي، عيشـي حياتـك بطبيعتهـا، اعتنـي بجمالـك ونفسـك، اهتمـي بتغذيتك وبتكويني. لا تعيري اهتماما لأمور الدنيا.
- أنـا سـعيدة بوجـودك فـي حيـاتي، لقـد أزحـت عنـي هـم الوحدة وعناء الكامب.
- سـأطل عليـك بـين حـين وآخـر، سـأخبرك عـن صـحتي وتطـور بنيتـي. سـأكون كمصـباح الطريـق، أراقـب شجونك وأتحسس جوارحك.
- وأنـا سـعيدة بـك، أنتظـرك فـي كـل وقـت. قـل لـي، كـم عمرك الآن؟ وبماذا تشعر؟
- أشـعر بسـعادتك، بلطفـك، واهتمامـك بـي. لا تقلقـي، أنـا مـا زلـت صـغيرًا. لقـد تجـاوزت الأسـبوع الثالـث مـن العمـر، وانقسـمت خليتـي إلـى خليتـين: إحـداهما كوّنـت المشـيمة، لتكـون أمـي الثانيـة داخـل الـرحم حتـى أولـد، والأخـرى بدأت بتكوين جسدي.
- يـا حبيبـي هـا أنـت تعـرف الـرحم، أريـدك نشـيطًا دائمًـا، لتبقى بصحة جيدة وتكبر بسرعة.
- هـذا يعتمـد علـى مزاجـك وتغـذيتك وحالتـك النفسـية. حالتـك النفسـية هـي مقيـاس صـحتي، وهـي ديمومـة بقـائي. كلمـا

كنتِ إيجابية، تنشط خلاياي بشكل طبيعي. أشكرك أنتِ وأبي، وأتمنى أن تتخيلي شكلي في عيونك الجميلة، فهي مفتاح الحلم والسعادة. في سحرها تأمل مدفون، وأنا أسبح في ذلك التأمل والخيال الجانح في ذهنك. كأنك تريننني أسبح بين النجوم، وأنا أقرب إليك من حبل الوريد. الآن أعيش كنطفة في رحمك، أتحسس بإحساسك، بآلامك، بخوفك وشجونك. أتبع مشاعرك، وموطئ الحب والغزل الكامن في نفسك. سأكون معك، إلى جانبك أينما كنتِ، أتبع ظنك وسرك وهواك كظلك، أتعلق بأطياف أحلامك، ستجدينني معك وأمامك في كل مكان تقصدينه.

- يا حبيبي، كم أنا سعيدة بذكائك، وتفانيك، وروحك الجميلة. جعلتني أشتاق كثيرًا ليوم اللقاء.
- سأزورك بين فترة وأخرى، لا تقلقي. سأخبرك بكل ما يعترينني، سأكون حاضرًا في ذهنك، كالشرارة الكهربائية قربك، بمجرد أن يلامس ظنك شرودك، أو يهف قلبك لملاقاتي، أو حين تطالعين بعينيك الجميلتين شريط الاختبار أمامك. لا تقلقي، لا تحزني، سأخبرك بمراحل تكويني. اعتني بصحتك وغذائك، كي يُبنى جسدي بشكل سليم... مع السلامة.
- حاضر يا حبيبي... مع ألف سلامة.

كأنَّ غياب طيفه بدّد الغفوة من عينيها، فغارت في سُدُم تلك السعادة التي استشعرتها وهي تحاكي جنينها. انكشفت عن جفنيها وسنها وأرقها، وانزاح عن جسدها إرهاقها وكدرها.

عادت إلى وعيها وهي غير مصدقة لما جرى معها، بعد تلك الإغفاءة السريرية العجيبة التي نقلتها إلى خيالٍ بدا لها أكثر واقعية من الواقع نفسه. ربما الحقيقة هزّتها دون أن تدرك، وكأن التيه الذي أوطف ذهنها بالغياهب قد أوشح ذاتها بالنسيان، وأصاب الأنا بحمى السكون في لحظات السهو والغثيان.

جلست مغمورة بنشوة أربكتها، غير مصدقة ما جرى ويجري معها. كيف لها أن تخاطب جنينها؟ كيف تستشعر تلك الأحاسيس؟ هل ما حدث كان من وحي خيال أم من صلب حقيقة؟ بقيت تدور في دوامة ذلك العصف، بين أن تجزم بالحقيقة أو تقر بالخيال، بين حلمٍ ورؤيا، وواقعٍ وظلال. اختلطت عليها الوشائج، راودها الحنين لغفوة تسكرها، تنسيها قلقها، لتستكشف المزيد مما لم تتأكد منه، لتلقف الحكمة من وراء ذلك الحدث الجلل.

لكن الذي مضى لا يعود بسهولة؛ طالما أن الذهن قد تحوّل من حالٍ إلى حال، من خيالٍ إلى واقع أو العكس، وطالما أن مسارها تغيّر وخرجت من سُدُم الخيال إلى حالة وعيٍ، صار حاجزًا منيعًا بينهما. ماضٍ تلاشت ذراته في صور الحدق، في حاضر الذاكرة، فتحوّل الحاجز الوهمي إلى حاجز مادي وفكري ملموس، لا يمكن تجاوزه، لا يمكنها أن تمسك بضفائره أو تتجاوز عصفه.

إلى جانب ذلك العصف، جنح بها القلق نحو الوجود الدميم؛ قلقٌ من أنها لا تعرف كيف تجاري ظرفًا مريضًا في مكانٍ

مـريض، ولا تملـك عصـا موسـى لتغييـر واقعهـا المتزمـت. ومـع ذلـك، سـاورتها نشـوة فـرحٍ ولـدت مـع انقطـاع خـيط وصـلها بـالجنين، فأدركـت حينهـا أن ارتباطهـا بـه لـم يكـن عبثيًـا قـط، بـل هـو عـالمٌ خفـي لـم تألفـه مـن قبـل، عـالمٌ مـن علـم قـراءات الباراسـيكولوجي، عـالم الغياهـب والتخـاطر والتـرابط الروحـي عن بُعد.

عـالمٌ يـرتبط بـذوبان الـوعي فـي العلاقـات الخاصـة الصـميمية عبـر الـزمن، تتحـول فيـه الأجهـزة الحسـية إلـى أدوات توصـيل وتخـاطر كهرومغناطيسـية، تعمـل تحـت كـل الظـروف بشـكل لا إرادي، وبآليـة ميكانيكيـة دقيقـة. يحـدث فيهـا خلـطٌ تـام بـين عمليـات الجـذب والتجـاذب والتـودد والتخـاطر، فتتحـول التـأويلات المشـاعة إلـى أحاسـيس تتبـع نـبض الفـؤاد وشـهقة الـروح وتـرددات غـزل الـذهن، فـي تنـاغمٍ إلهـي وفطـري بـين الطـرفين منقطـع النظيـر... أمثلهـا بجهـاز المـورس، حـين ينقـل المعلومـات الذهنيـة إلـى رمـوز كتابيـة عبـر المسـافات البعيـدة، لكـن هنـا... كانـت المسـافة بينهمـا لا تقـدر بالمسـافات البعديـة والزمنيـة، أنمـا بالمشـاعر والأحاسـيس فهـو أقرب من حبل الوريد إليها، يعيش في ذاتها وداخلها.

فـي نشـوة غامضـة، كانـت تتبـع خـيط الحقيقـة المتسـلل مـن تفاصـيل حلـمٍ غريـب، عـاجزة عـن تفسـير سـرب الذبـذبات التـي تطـنّ فـي أذنيهـا..... وبينمـا هـي غارقـة فـي ذلـك الهـوس، طرقـت بابهـا زميلتهـا أميمـة، ترغـب فـي مرافقتهـا وتخبرهـا بموعـد الغـداء فـي المطعم العام.

- تفضلي يا أميمة، تعالي أنقذيني من هوسي.

- ما بكِ؟ تبدين شاردة. ماذا جرى لك؟
- كلّمني.
- زوجك؟
- لا... حبيبي.
- أتحبين من وراء زوجك؟ يا لعوب!
- وقعت في الشرك، أجبرني على محبته.
- عودي إلى رشدك يا غثيثة.
- لا أستطيع.
- أنتِ لا زلتِ في أول عهد الزواج، لا تدعي أهواءك تفسد عليك حياتك.
- خرج الأمر من قبضة يدي، بات يتحكم بأهوائي دون إرادة.
- وأنتِ العاقلة تقولين هذا؟ كيف بنا نحن من لم تدخل قفص الاتهام بعد؟ كيف نستقي الحكمة من أفواه المجانين كأمثالك؟
- تعالي واسمعي ماذا قال لي.
- من هو؟
- حبيبي.
- أي حبيب وأنتِ عروس؟ ماذا جرى لك؟ وماذا ستقولين للذي في بطنك؟
- هو الذي كلّمني... هو الذي في بطني.
- (تضحك بجنون وتدور حول نفسها كراقصة الباليه) هههههه، كيف يكلمك وهو لا يزال بحجم حبّة الحمص؟

- والله العظيم، أهجس به، كلّمني. روحه خاطرت روحي. سألته: كيف تتواصل معي؟ قال: هذه روحي، ولست أنا. هناك شيء ما يجمعنا، سر لا أعرفه يربطني به. لقد ظهر لي مرتين.
- وماذا قال لك؟ دعيني أسمع، عسى أفسّر هوسك، أو أعرضك على شيخ يقرأ عليك تعويذات الجنون.
- (تغرق عيناها بالدموع) صدّقيني، إنها **عواصف الجنين** تضرب شواطئ قلبي وعقلي، تضرب قلاعي وخيمتي بين فترة وأخرى. شرح لي مراحل نموه، وصف لي هواجسه ومشاعره نحوي. تصوّري... قال لي: أحبك.
- هههههه، يعني أنا كلمت أمي حين كنت في بطنها؟ يكفي تخاريف. أمي لم تخبرني بشيء من هذا القبيل.
- على رسلك، لا تصدّقي، لكن لا تكوني فضّة وسخيفة. اسمعي ما قاله لي.
- هيا، جهّزي نفسك للغداء. دعينا نذهب إلى المطعم قبل أن يغلق أبوابه بوجوهنا ونبقى سكارى من الجوع، وفي الطريق كلميني.
- أنا أسررتك، وأنتِ تصفينني بالمجنونة. من يصدّقني إن كذّبتِني؟
- لا أكذّبك، ولكني لا أستوعب حالة الجنون التي ركبكِ. المهم أن نجهّز أنفسنا قبل أن يفوت وقت الغداء، فأنا أشعر بعصافير بطني توصوص. دعينا نمضي ونكمل حديثنا في الطريق.

- وهو كذلك...

خلال الطريق إلى المطعم صارت تشرح لأميمة الحالة التي مرت بها، وهي تلاحظ ما ظهر على وجه أميمة من تعابير واستهجان وغرابة، لذا حاولت أن توضح لها الأمر قائلة لها:....

- تلك تكهنات ما لها أساس في الواقع، لم تكن سوى ذبذبات خوف وقلق أعترت ذهنك، خبر الحمل عصف بكيانك، جعل تركيزك يصب في مجال واحد دون أن تبصري الجوانب الأخرى من الحياة. ذلك ما صور لك شكل الجنين وطيفه الذي هامسك. لذا أنصحكِ بقراءة القرآن وأن تطّلعي على معلومات تخص الجنين، وأن لا تعزلي ذاتك وحيدة في غرفتك، شاركينا إغواءنا..

غير أن جنان كأنها لم تسمع شيئا من حديث أميمة، جعلتها تذري كلماتها في حقل النسيان.....

في المطعم وقفن في خط الطابور الطويل ينتظرن ما سيملي صحونهنَّ الشيف الجزائري الشيف خالد مما طبخ، ترى ماذا سيكون الغداء؟ حتى أنه جزائري لا يفهم كثيرا في طبخ عرب آسيا. لا يعرفون سوى الكسكس والمكرونة التي لا نستسيغها. وما أن أدركنَّه مددنَّ أياديهن إلى الموجود من الطعام...

- أنه مجرد قطعة لحم دجاج مع مغرفة من الكسكسي. (قالت ذلك أميمة)...

- تـرى يـا أميمـة هـذا قـد يعجبـك كونـك مغربيـة ولكنـه لا يعجبنـي كـوني لبنانيـة، لمـاذا يطبخـون مـا يحبـون هـم لا مـا نحـب نحـن؟؟ ثـم أبهـذا الأكـل سـينمو الجنـين بشـكل صحي؟ إلى متى سنحتمل هذا الوضع المقرف؟
- والله أنـا زهقـت مـن الكسـكس والمكرونـة، ألله يكـون فـي عونـك وأنـت عـروس جديـدة وحامـل، تـرى كـم سـيتحمل الشـخص مزاجيـات دائـرة الهجـرة التـي لا تفكـر بنـا ولا بتنظـيم سـجلاتنا، ولا تـريح المـرابطين فـي الكامـب، ولا تسـرح هـؤلاء الحـراس الـذين يسـجنون أنفسـهم بأيـاديهم تبعـا للمـادة علـى حسـاب الصـحة والعائلـة، هـذا إذا كانـت لهـم عوائـل يهتمـون بهـا، هـؤلاء الـذين لا يهمهـم سـوى توفير قيمة الكأس والسيجارة.
- سـأخبر أحمـد بوضـعنا ويجـب عليـه أن يتصـرف، لا أن يعمـل العملـة ويتـرك الامـور علـى غـارب الـزمن دون تخطـيط ومراجعـة، فأنـا لا أسـتطيع تحمـل المزيـد مـن قرف الهجرة والعقد في حياتي.

بعـد أن أتممـن الغـداء، عـدن يجـرنَّ خطـوات الخيبـة للغـرف فـي ظـل الصـقيع الـدائر مـن حـولهن، درجـات الحـراة نائمـة تحـت الصـفر بخمسـة درجـات، البـرد يجبـرهن أن يـأوين إلـى غـرفهن التـي تعتبـر بمثابـة سـجن مؤقـت حتـى ظهـور الإقامـة. خـلال العـودة للغرفـة اطرقـت أذنيهـا أميمـة بخبـر ولادة البوسـنية قائلـة لها:...

- هيا شدي حيلك لأكون جارتك (القابلة) هنا، لنولدك عن قريب، المرأة البوسنية ولدت في غرفتها ليلة أمس كما تعلمين، هههههههههه...
- هل تتوقعين بأننا سنبقى في سجننا هذا لثمانية أشهر أخرى، سأموت هنا أن طالت المدة..
- لا لن تموتي أنا وهنادي وفاطمة وأخريات سنعينك على جلدك..هههههه.... لا أمزح معك بإذنه تعالى نخرج قريبا من هنا...

هي تجرّ خطواتها الحثيثة، خطر لها خاطر أعادها إلى لحظة اختبار شريط الحمل؛ تلك اللحظة التي فجّرت في داخلها شهقة ألم، هجست بشجنٍ يطوّق عنقها، فانحدرت دمعة ساخنة على خدها، وكأنها حفرت خندق صمت على وجنتها المورودة، خندقًا جفّت عروقه من فرط الحزن.

هجست بشقاءٍ عفّر وحدتها، وعقر بهجتها بخوفٍ على فلذة كبدها من غدٍ مرير مجهول، وهي مركونة في ذلك الكامب المقيت، كأنها مشاركة في قوضه، أو قاتلة، أو مجرمة. لا تدري متى يفك قيدها ويُفرج عنها، ولا كيف تتصرف بوحدتها. خاصة وقد رأت بأمّ عينيها جارتها البوسنية تلد طفلها الخامس في غرف الكامب المقيتة. تلك الجارة هي أمًا سابقة، اعتادت إنجاب طفلها الأول والثاني والثالث والرابع، فكان الخامس يسيرًا عليها، سلسًا، مألوفًا. أما هي، فهذا مولودها الأول، وحملها الأول، والخوف ينهشها من الداخل ومن كل زاوية.

ذلك ما شغل فكرها، وجعلها تسرح بعيدًا. فالحال معها مختلف، وهي لا تدري كيف ستواجه هذا الوضع، ولا كيف تكسر طوق الجمود الذي يقيّد علاقتها بولادتها وبزوجها. الحالة معقدة، تعيق سعادتها، وتُنغّص سعادتها وأحلامها. لا أحد هنا يرفأ بها، ولا أحد يستطيع تحريك بيدق حظها عن مكانه. الإدارة مربوطة بما تمليه دائرة الهجرة، ودائرة الهجرة مقيدة بقوانين عقيمة، بعيدة عن عالمها وعالم الرحمة، لا تشاركها مشاعرها، ولا تفهم وجعها.

انتبهت إليها أميمة دون أن تشعرها بذلك، ثم أمسكت بذراعها براحة يدها، وهمست في إذنها:.....

- ابتسمي يا جنان، أنتِ محظوظة. رزقكِ الله بزوجٍ وطفلٍ سيضاهي جمالكِ جمالًا، سيغنيكِ عن متاعب الدنيا. لقد تجاوزنا الفترة الحرجة من وجودنا في الكامب، وما تبقى لن يكون أطول مما مضى. قضيناها بالضحك والجدل والتعاون، ولن نتركِ وحيدة أبدًا. كوني على يقين أنني سأبذل الغالي والنفيس من أجل إسعادكِ. سأُنسيكِ همّ الدنيا. لم أصدق أنني ظفرت بأختٍ لطيفة في هذه الغربة اللعينة.
- شكرًا لكِ، فالشعور متبادل يا أميمة. ما ينقصني راحة البال، لا راحة الجسد، رغم أنني منهكة. خوفي من أن يطول يوم الغد حتى تحين الولادة، خوفي أن أبقى في هذا الكامب دون معين إذا ما ذهبت وهنادي.

- لا مستحيل، لا زلتِ في بداية الحمل، وحسب علمي، الفترة لن تدوم أكثر من ثلاثة إلى أربعة أشهر. كل من كانوا معنا لم يطيلوا البقاء، سوى الشباب من الذكور، لأن لهم معاملة خاصة.
- تقولين ذلك لتريحي بالي، لكن الحقيقة مجهولة. ها هي الألبانية والبوسنية، منذ سنة وهنَّ يُحبسنَّ هنا في هذا الكامب...
- لأنهنَّ من أصول أوروبية، بلدانهم ليست معقدة كبلداننا. ثم إنني أعلم بمَ تفكرين! لكني لا أظن أن ذلك سيحصل. رغم أنني لا زلت عزباء، إلا أنني أشعر بكِ، وأشعر بما تفكرين به وتحتاجينه. نحن ثلاث أخوات، رغم أن هنادي ستنتقل قريبًا إلى سكنها الدائم، إلا أنني على يقين أن دوركِ في النقل سيأتي قريبًا، وستنتقلين إلى جانب زوجكِ بإذن الله، وتنسين همّ الكامب. سنبقى على اتصال دائم حتى يحل ولي العهد، وأراه بعينيّ، وسأزوركِ حينها.
- إن شاء الله. الوقت لا يزال بيدنا، نحن في نهاية شهر كانون الأول والولادة ستكون في الشهر الثامن أو التاسع...

وفي اليوم التالي، حضر زوجها أحمد ليأخذها إلى مدينة لايبزك، لتقضي فترة نقاهة تمتد لأيام، تستعيد فيها عافيتها وحيويتها. ودّعتها هنادي وأميمة بالفرح، حملن عنها حقيبتها حتى عجلة زوجها التي كانت تنتظرهما في الشارع العام قرب مدخل الباب الرئيسي.

كـان زوجهـا أحمـد قلقًـا عليهـا، بعـدما علـم بهلوسـتها وجنونهـا بحملهـا، فجاءهـا مسـرعًا، خائفًـا مـن تفـاقم حالتهـا النفسـية. أخذتـه أفكـاره إلـى مـديات بعيـدة عـن الحقيقـة، كمـا فعلـت أميمـة حـين تفاجـأت بطرحهـا الغريـب. كـان يخشـى عليهـا مـن لسـعة الجنـون التـي سـيطرت علـى شـرود تفكيرهـا، نتيجـة حـديثها مـع أميمـة عـن هوسـها بـالجنين، وعـن ذلـك الهـاجس الرهيـف الـذي تنـاغم مـع حديثها الداخلي معه..

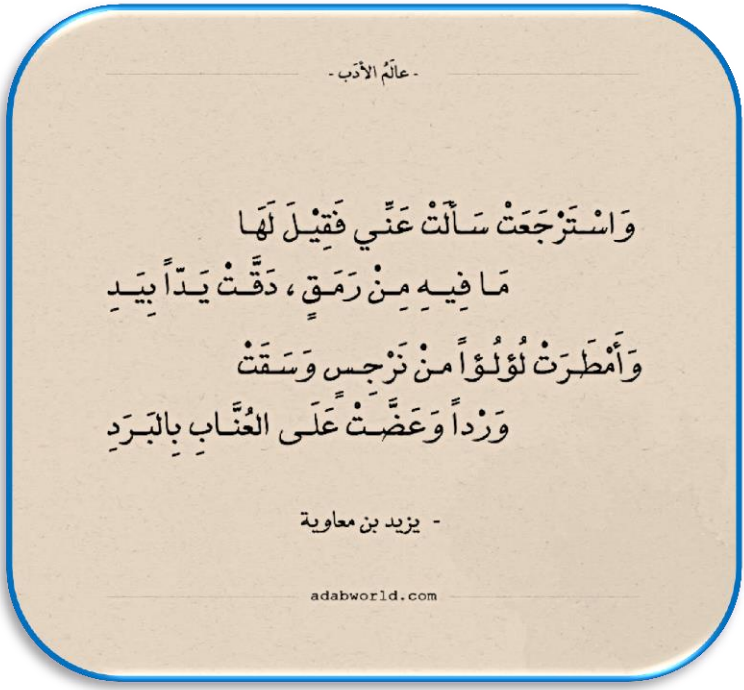
- عالَمُ الأدَب -
وَاسْتَرْجَعَتْ سَأَلَتْ عَنِّي فَقِيْلَ لَهَا
مَا فِيهِ مِنْ رَمَقٍ ، دَقَّتْ يَداً بِيَدِ
وَأَمْطَرَتْ لُؤلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ
وَرْداً وَعَضَّتْ عَلَى العُنَّابِ بِالبَرَدِ
- يزيد بن معاوية
adabworld.com

7- مشاكل النزلاء

في مساء يوم جمعة، اختطفها زوجها من ضجيج الكامب، حيث قامتْ في جفنيه وفي حضنه الدافئ في مدينة لايبزك. هناك، بعيدًا عن صخب الهجرة وتعقيدات الإقامة وروتين التعامل، عاشت جنان بين أحضان زوجها أسبوعًا من الاسترخاء والنقاهة، كأنها استردت شيئًا من عافيتها وذاتها التي أرهقتها الغربة والوحدة... لكن غيابها لم يمر دون أثر، إذ تفجرت خلاله سلسلة من الأحداث التي كشفت هشاشة العلاقات داخل الكامب، وعرّت الكثير من التوترات المكبوتة بين النزلاء، خاصة بين الفتيات والشباب.

من بين تلك الحكايات، تبرز قصة هنادي مع سليم أميمة مع الباكستاني، هنادي التي أُنيط لها الإشراف على غسالات جناح العوائل. لم يكن في خلدها بأن هذه المهمة البسيطة ستقودها إلى مواجهة عسرة مع سليم، ذلك الرجل الأربعيني سوري الجنسية، يسكن جناح العزاب، لكنه لهيافته وخسته؛ كان يتسلل إلى جناح العوائل بذريعة غسل ملابسه هناك وبحجة عطل غسالات العزاب. لم تكن غايته النظافة، بل التقرب من فتيات الكامب وبالذات من فاطمة، الفتاة اللبنانية الجميلة التي تسكن ذلك الجناح.

فاطمة فتاة مسكينة تجاوزت الثامنة والثلاثين من العمر دون أن تتمكن من فك شناطة العنوسة عن رقبتها، كانت تعيش قلق

العنوسة وهي مقبلة على أبواب الأربعين من العمر، على توالي فترة الأنوثة لدى المرأة، حيث تتوقف عندها فترة التبويض والتخصيب بعد سن الخامس والأربعين من العمر.. لذا كانت مكبلة بوضع قانوني هش يدفعها إلى التعلق بأي عابر سبيل يعجب بها وينتشلها من واقع العنوسة اللزجة. ترافقها والدتها المريضة التي أنهكتها حرب جنوب لبنان. كانت فاطمة تحمل في قلبها أملًا هشًا بعبور مرحلة التعاسة بأن ترفق ذاتها بالزواج، وسبب قلة حظوظها بالزواج على الرغم من فتنة ملامحها؛ قصر قامتها، والذي لم يتجاوز 140 سم، ورغم تجاربها السابقة التي أجهضتها نظرة المجتمع القاسية، إلا أنها كانت تتأمل ذاتها بعبور المرحلة بإذن الله. ورغم فتنة رجاحة عقلها وشهادتها الجامعية في اللغة العربية، إلا انها كانت تشعر بأن قطار الزواج يقف في محطته الاخيرة ويوشك أن يفوتها ويتجاوزها.

سليم، الذي يكبرها بعشر سنوات، استغل خيط ضعفها، واختلق لها قصة حب كقصة قيس وليلى فصار يتردد عليها دون مواعيد، واعدًا إياها بالزواج بعد التحرر من قيود الكامب. أخبر والدتها بنية التأهيل، فصدّقته ففتحت له باب قلبها والأمل. لكن الحقيقة كانت أكثر مرارة، إذ لم يكن سليم سليم القلب، فلم يكن سوى عابر سبيل سفيه، صاحب نزوات، خريج شوارع وسجون، لا يحمل من الصدق سوى اسمه المتناقض مع سلوكه.

هنـادي، التـي كانـت تراقـب تحركاتـه، أدركـت نوايـاه، ورفضـت أن تكـون بوابـة عبـوره إلـى فاطمـة. لكـن سـليم أصـر بخبـث، متذرعًا عطل غسالات جنـاح العـزاب، فارضًـا نفسـه علـى هنـادي التـي كانـت تحـاول حمايـة فاطمـة مـن خديعـة رجـل، لا يعـرف سوى التلاعب بالمشاعر.

فـي غيـاب والـدتها، التـي كانـت تتلقـى العـلاج فـي مشـفى مدينـة آوى، وجـدت فاطمـة نفسـها وحيـدة فـي غرفتهـا، استسـلمت لـوهم الحـب، لتكتشـف لاحقًـا بأنهـا لـم تكـن سـوى نـزوة فـي فكـر سـليم، وأن سـليم لـم يكـن سـوى خيبـة أخـرى تضـاف إلـى سـجل خيباتهـا. كـان قـد فـض بكارتهـا، ثـم تنكـر حبهـا، تاركًـا فـي ذاتهـا جرحًـا لا يندمل.

لـم يكـن سـليم وحـده مـن عبـث بـأرواح النـزيلات، فقـد كـان بعـض شـباب ومـن جنسـيات مختلفـة يتـاجرون علنًـا بالحشـيش وحبـوب الكبسـلة، ينشـرون الفوضـى فـي الممـرات، ويحولـون المكـان إلـى سـوق للنفايـات والضـياع. هكـذا كـان العمـل بعلـم رجـال المـارتيزر أو بالسـر فـي قلـب كامـب شـنيبر، كانـت الأرواح تتكسـر بصـمت بالحشـيش أو بالحـب الزائـف، اغتيلـت الأحـلام علـى أيـاد قـذرة لا طريقًا للرحمة.

فـي الحقيقـة كانـت تسـكن فـي جنـاح العوائـل الكثيـر مـن الفتيـات العازبـات اللاتـي هـاجرن بمفـردهن، مـن ضـمنهن الجميلـة فاطمـة ورجـاء التونسـية ودونكـا الكرديـة وميرفـت اللبنانيـة وإسـراء الافغانيـة ووالـخ، عازبـات ومتزوجـات ومطلقـات. هـذه الفتـاة كانـت تتأمـل بـأن تـرتبط برجـل حقيقـي يرفـع عنهـا ضـغط العنوسـة

ويـرأف قطـار العمـر بمحطـة سـعادة أخيـرة تجلـي عنهـا القلـق العمـر القـادم. لقـد وجـدت ذاتهـا مشـكولة بعنـق الزجاجـة، سـرقها العمـر دون أن تشـهد أحلامهـا، فلـم يبقـى علـى طاولـة الـزمن سـوى الرشـفة الأخيـرة مـن كـأس أمـل عـالق بأنوثتهـا وحيوتهـا وألقهـا، لـذا وجـدت ذاتهـا خاضـعة لأرادتـه بشـكل مسـلم بـه. قبـل أن تتعـرف علـى سـليم كانـت تحـاول مخالطـة شـباب الكامـب وبالـذات فـي المطعم، في محاولة منها خطف أنظار أحدهم.

حـين أقتـرب منهـا سـليم المـوارب تمسـكت بتلابيبـه تمسـك الرغبـة بـالحلم. هجسـت بـه الحلقـة الضـائعة قبـل أن يجرفهـا تيـار الـزمن، تأملـتْ أن يتعشـق حظهـا ضـمن قـوس المتزوجـات، قبـل أن تختنـق بحبـل العنوسـة الملتـف علـى عنقهـا. وجـدت بعرضـهِ بصـيص أمـل يجيـل عنهـا الهـم والغـم وعنـاء الـزمن، يحيـل حلمهـا إلـى واقـع واسـتقرار فكـري وعـاطفي دائـم، علـى الـرغم مـن عـدم وثوقهـا بـه بشـكل مطلـق، لكنهـا لـم تتجـرأ علـى معارضـته، خوفـا من أن تخسر ذلك الأمل.

تعلقـت بـه تعلـق ورقـة الخريـف بغصـن الشـجر، تأملـتْ أن يكـون ذا نخـوة وشـهامة وصـدق فـي نياتـه معهـا. شـعرت حينهـا بأنهـا عليهـا أن تتنـازل عـن كرامتهـا وشـرفها وقيمهـا وجسـدها لترضـيه مقابـل أن يعطـف عليهـا ويكتـب كتابـه عليهـا. عسـى أن تفلـح بإجبـاره الـزواج منـه، حاولـت غسـل حظهـا العـاثر بمـاء آسـن فأتسـخ أكثـر وأكثـر، ودت أن تجلـده بسـوط الفرصـة الأخيـرة فإنهار جداره وهلكت بين يديها.

هكـذا شـعرت بـذاتها المهـزوزة ككـرة الـثلج متدحرجـة نحـو وهـج مجهـول، لـم تصـبر علـى حظهـا، تركـت حبـل الهيـام يتعشـق بـأي طـارئ يصـطدم بعارضـها، فأفسـدت الفرصـة التـي دكنـت بلون سليم الاسود.

سـليم كـان رجـلا مريضـا، لـم يصـبر علـى فـراق زوجتـه فعشـق رغبتـه الجنسـية فـي أجسـاد نسـاء الكامـب. حـاول تسـليك أمـره فـي ذلـك السـجن حتـى تحـين فرصـة تحـرره منـه. بـل كـان يجهـد ذاتـه ويجتهـد فـي خلـق الفـرص مسـتغلا هفـوات بعـض النسـوة وضـعفهن دون أن يخجـل، دون أن يحـتفظ بكرامتـه. فـالإدارة لا تعيـر أهميـة للأمـور التافهـة قـدر جنـي الفائـدة الماديـة التـي وجـدت مـن أجلهـا، بـذلك كـان يـدخل جنـاح العوائـل تحـت ذرائـع واهيـة دون أن يحاسب. القانون لا يحاسب البالغين على افعالهم.

فـي الحقيقـة شخصـية سـليم عبثيـة، مزاجيـة، لا تتبجـل بـالاحترام قـط، تحـرش بهنـادي ورجـاء التونسـية وأميمـة فـنقلنَّ لفاطمـة مـا بـدر مـن سـليم تجـاههن، كمـا حـاول مـع أخريـات غيـرهن مـن اللاتـي احتقرنـه؛ هجـس بذاتـه زيـر نسـاء؛ لـولا أن فضـحنه علـى المـلأ بعـد أن شـككنّه إلـى المسـؤول المباشـر علـى الكامـب، ليمنعـه دخول جناح العوائل..

اعتـاد سـليم أن يجمـع ملابسـه المتسـخة كـل يـومين، متـذرعًا بعطـل غسـالات جنـاح العـزاب، ليحملهـا أواعيـه إلـى هنـادي فـي جنـاح العوائـل، متوسـلًا بهـا غسـلها. لكـن غايتـه لـم تكـن النظافـة، بـل نشـر غسـيل هـواه علـى مـن تتقبـل عرضـه، متربصًـا بفاطمـة، تلـك اللبنانية التي أنهكها الانتظار.

حـاول جـرّ هنـادي إلـى مستنقعه، لكنهـا صـدمته بصـرامة لا تلـين، ورفضـت أن تكـون بوابـة عبـوره إلـى جنـاح العوائـل. لـم تكتـف بـرفض غسـيله، بـل رفعـت شـكواها إلـى إدارة الكامـب ورجـال "المـارتيزر"، الـذين بـدورهم أهـانوه ووبّخـوه. ثـم توجهـت إلـى فاطمـة ناصـحة إياهـا بـالتخلي عنـه، مؤكـدة أنـه لـيس بالرجـل المناسب.

وبالفعـل، لـم تمـضِ أيـام حتـى تـرك سـليم فاطمـة، ليـرتبط برُجـاء التونسـية، التـي وافقتـه فـي السـلوك والأخـلاق وتدخينـه الحشـيش، تشـابهت معـه فـي العبـث والضـياع والغايـة. هنـادي، التـي أدركـت نواياه منـذ البدايـة، كانـت قـد تصـدت لـه بحـزم، لكنهـا لـم تكـن تعلـم أن فعلـه الـدنيء سـيفتح أبوابًـا أخـرى أمـام جـيش العـزاب، الـذين بدأوا يتخطون حواجز الحدود، متذرعين بسلوك سليم.

تحولـت أروقـة جنـاح العوائـل إلـى سـاحة عبـث ليلـي، حيـث تسـلل بعـض الشـباب، خاصـة الباكسـتانيين مـنهم الـذين كـانوا اكثـر المتواجـدين عبثـا وهمجيـة، صـاروا يجلسـون أمـام أبـواب الغـرف، يترقبونهـا أن تفـتح ليتحرشـوا بالنسـاء دون رادع، يطرقـون الابـواب بعـد منتصـف الليـل، وبالـذات غـرف العازبـات والمطلقـات. كانـت سـلوكياتهم تحمـل فلسـفة همجيـة نابعـة مـن حرمـان طويـل، لا يشـبه سـلوك غيـرهم مـن الشـباب مطلقـا. ذلـك ما فعلوه مع ميرفت اللبناية ودوكانا.

فـي زاويـة أخـرى مـن الحكايـة، كـان غـلام، الشـاب الأفغـاني، قـد نسـج خيـوط علاقـة غيـر شـرعية مـع إسـراء السـاكنة مـع أميمـة بـذات الغرفـة. كـان قـد اعتـاد لقاءهـا بعـد الثامنـة مسـاءً، فـي فسـحة

السلم بين الطابقين الثالث والرابع، يتبادلان الحديث بنعيب الغربان حتى ساعات الفجر، غير آبهين ببرد الشتاء ولا لازعاج الساكنين من طرن لغتهم الثقيلة.

وفي إحدى المرات، حين خرجت أميمة للتبضع برفقة جنان وهنادي، استغلت إسراء الفرصة لتنفرد بغلام داخل غرفتها المشتركة مع أميمة. وعند عودة أميمة، وجدت الباب مقفلًا من الداخل، حاولت فتحه ولكنها لم تفلح رغم محاولاتها. جنّ جنونها، وبدأت تطرق الباب بعنف، حتى انتبه الجيران وكل من في الممر. عندها خرج غلام مطأطئ الرأس، مهزومًا، خجلًا، غير قادر على إنكار فعلته.

أميمة، التي لم تحتمل خيبة الثقة، تقدمت بشكوى إلى إدارة الكامب، وطلبت تغيير غرفتها. انتقلت إلى غرفة مستقلة في طرف الجناح، باحثة عن مساحة من الهدوء، بعيدا عن الكلام الخائب والسمعة الغير جيدة.

أما أسراء فلم ترعوى مما حدث لها ولم تهتم لحديث المتواجدين قربها، بقيت على شاكلتها وسلوكيتها بعد أن أصبح الأمر سيان بالنسبة لها، دون أن ترى ما حولها وما تدور من شائعات وشغب يخص ذكرها... إلى ان اكتشفت في أحد الأيام المشؤومة من أنها حامل، حينها جن جنونها، صارت تنحب حظها العاثر وخاصة أنها لا زالت عزباء أمام أنظار أهلها الذين يجرمون هذا الفعل بواقع مجتمعهم وتقاليدهم ودينهم.

كانت قد أخبرت غلام بما حدث معها، طالبته إشهار زواجهما، إلا أن غلام لم يكن جاهزا للحَدثْ وقد لا يفعلها، فهو لا يختلف عن سليم بسلوكياته، كما أن ظرفه لا يسمح له بذلك، لذا طلب منها أسقاط ما في بطنها، مما جعلها تنفعل غضبا وتتشاجر معه بعد أن اكتشفت زيفه وضعفه.

جلست تحت سلم الطابق الأول، قرب غرفة الحرس تندب حظها، عصبت عينيها، كأنها تود أن تحجب عن نفسها قسوة الواقع. تشكو للمتواجدين فعل غلام معها، تنتحب بصمتٍ موجع، مرابطة في مكانها تلك الليلة، تتأمل مخرجًا لعقدتها التي استعصت الحل.

لم تُجدِ توسلات غلام طريقا في تهدئتها، ولا محاولات النسوة اللواتي تجمعن حولها يواسينها، يحاولن تأجيل أزمتها إلى حين آخر. كانت في حالة انهيار عصبي تام، يعتصرها الألم والحرج أمام أهلها والمجتمع الديني الذي تنتمي إليه، ما جعلها ترفض كل محاولات المواساة.... وجود غلام أمامها أثار غضبها، فاندفعت نحوه بنعلها، تضربه على ظهره وتنعته بالحقير الكاذب الغشاش، مطالبة إياه بأن يبتعد عن وجهها.

في الواقع، إدارة الكامب لا تبالي بمثل هذه الأحداث، فالمتهمون بالغون، وهم في نظرها أحرار في خياراتهم. بل إنهم يشجعون النساء على ما يسمونه "التحرر"، بحجة بلوغهن سن الرشد، وضرورة اندماجهن في المجتمع الألماني، والتصرف بحرية تامة في شؤونهن الخاصة دون الرجوع لأحد. يفسحون لهن المجال لممارسة الرذيلة تحت ستار

الحريــة. وجــدت كــل الأبــواب مؤصــدة أمامهــا، فعــادت تنــدب حظهــا العــاثر كــالثكلى، تفضــح نفســها وخيبتهــا وفعلتهــا، تــروي كيف سلبها غلام عفتها في لحظة ضعف مرت بها.

تلــك كانــت إحــدى القصــص التــي نســجت حيــاة الكامــب لــبعض الفتيــات العازبــات، فيمــا اختــار الــبعض الآخــر خــوض علاقــات مــع نســاء متزوجــات قــدمن للهجــرة دون أزواجهــن، فــي مشــهد معقــد تتــداخل فيــه الحاجــة والغريــزة والخــذلان والأمــان والوحــدة فــي وشــائج مختلفــة، فــي دورة البحــث عــن الــذات. قــال الشــاعر كــريم العراقي :...

لَا تَشْكُ لِلنَّاسِ جُرْحًا أَنْتَ صَاحِبُهُ

لا يُؤْلِمُ الجُرْحُ إِلَّا مَنْ بِهِ أَلَمُ

شَكْوَاكَ لِلنَّاسِ يا ابنَ النَّاسِ مَنْقَصَةٌ

وَمَنْ مِنَ النَّاسِ صَاحٍ مَا بِهِ سَقَمُ

فالهمُّ كالسّيْلِ والأحزان زاخِرَةٌ

حُمْرُ الدَّلائلِ مَهْمَا أهْلُها كَتمُوا

فَإِنْ شَكَوْتَ لِمَنْ طَابَ الزَّمَانُ لَهُ

عَيْنَاكَ تَغْلِي وَمَنْ تَشْكُو لَهُ صَنَمُ

وَإِنْ شَكَوْتَ لِمَنْ شَكْوَاكَ تُسْعِدُهُ

أَضَفْتَ جُرْحًا لِجُرْحِكَ اِسْمُهُ النَّدَمُ

أميمة

أسميتها الزنبقة، لرقتها وأناقتها وخفة دمها، وجاذبية بشرتها اللاذعة المُشرأبَّة بخمرة السمرة. إنها أميمة، الفاتنة، الفتية، ابنة العشرين عامًا، التي تبدو في تكوين جسدها الرشيق كزنبقة برية، متألقة في قمة نبوغها وعطائها، لماحة، ذات شخصية آسرة تحكمها الحنكة وتزينها الأناقة.

في مشاويرها اليومية، كانت تنزوي بين فتيات الكامب، تتنقل بخفة بين المطعم والأسواق، تتجنب الأعين المتطفلة، وتتحاشى معاكسات الشبان الذين يرون في جمالها فرصة لتسلق مفاتن جسدها، يلهون بها في غربتهم، خاصة أولئك الذين يشاركونها السن.

كانت تفضل النوم على رتابة الفطور، الذي لا يختلف عن مضمون العشاء بشيء، نفس المواد، نفس الطعام، نفس الملل.

ترقبها ذاك الشاب الباكستاني بسرية، تولع بخفة دمها، دون أن يبدي لها أي إشارة أعجاب بها. كان يترقبها عن بعد، ينتظر قدومها أثناء الغداء، لكنها لم تكن تأتي منفردة، دائما ما تكون بصحبة هنادي أو جنان أو إسراء ودونكا. وحين لمحها ذات مرة وحيدة تمشي الهوينا نحو المطعم، قادمة من غرفتها، أعد نفسه للقائها. اختبأ خلف البناية الثالثة المتروكة، القريبة من المطعم، والتي حولها مسؤولو الكامب إلى مخزن أواعي

شخصية متبرع بها من قبل أهالي المنطقة. في تلك النقطة أراد مفاجأتها، ود مصارحتها بما يجول في فكره وقلبه من عواطف جياشة نحوها بعد أن وصل الشوق به لقمة الولع، وطاف به لاعج الهوى في سحر الفتن.. هناك ود أن يغوص في بحر سحرها، ود يكشف لها عمق مشاعره، وما يعتمل في رأسه من فكر مضطرب بسببها، وما يزحف في قلبه من هوس وجنون. لعلها تنتشله من دوامة الغرق، وتعيد له توازنه بعاطفة تنقذه من الطوفان الغرام.

انتظرها بلهفة المتيم، كان يزداد شغفًا مع كل خطوة تخطوها نحوه. شغف بها كشغف قيس بليلى، تيم بها كتيم الأحنف بفوز، حتى خالف فكره تقاليده، وخرج عن طبعه المستكين وعاداته. أقنع نفسه بأن يفضي لها بمكنون أشواقه، أن يخطفها من بين الجموع قبل أن يميل بها الشوق إلى جهة أخرى، قبل أن يملأ قلبها بعاطفة لا يكون هو صاحبها. رأى في اقترانه بها سعادته، حريته، وأحلامه التي طالما تمنى تحقيقها.

كانت قد أسرته بمفاتنها دون أن تدري، جعلته أسير الشوق، يتبع ظلها كمن يتبع حلمًا لا يُطال. تراءت له من بعيد كزنبقة البراري، فواحة، يضوع عطرها في أجواء فكره، يشم نفحها المفعم بطيب الأريج وسحر البشرة الصحراوية. طالما فكر بها قبل أن يقحم نفسه في تيار فتنتها، قبل أن تجرفه مفاتنها إلى واقعها، أراد أن يجمع شتاته ويبوح لها بما يختلج في صدره من ضيق وشبق وعناء، ومن رغبة ارتباط بها دفعته إلى أن يتبعثر في طريقها، مهما كان الثمن.

وفي طريق المطعم انتظرها، أخذه الخيال إلى أجواء الهوس والجنون، هجس بها حقيقة زادت من ثقته بنفسه. اصطف وحيدًا خلف الجدار القابع في الممر، عد ذاته بكل ما يملك من جلد وإيباء ورجاء، ليتمكن من مفاجأتها بقرار لا يستطيع كتمانه ودفنه في غياهب الجب.

لقد عانى في وحدته ما عانى، دون أن يبوح بسره حتى للشيطان، حتى ذبلت وأصفرت أوراق صبره تحت حرارة الشوق اللاهبة. ذوى عطشًا في سمرة بشرتها الجذابة، كمن يذوي في أتون الوحشة، هام بها حتى استهام بظلها، جرفته الحيرة إلى وهدة الشوق والنجوى، إلى سهاد الليل الكظيم وهو يقشعر تحت غطاء الشتاء البارد.

كيف لا، وهي بملامحها الناعمة المتناسقة تبدو كشمس في أجواء باردة، وقد ارتقت درجات السحر ميزة، بألقها الشفيف بدت كغزالة البراري تسرق الأنظار. تحت أضواء الشمس، جاذبيتها الشفيفة عكست مكنونها، تبدو كمرآة لاذعة، كحجر الكهرب يفتن الانظار في العتمة، هكذا تتقد بطاقة كهرومغناطيسية تلتع الناظر بمحاسنها.

صف شعره بمادة الجل، فرك وجنتيه لتحمر قليلًا في عينيها، صور ذاته في مرآة ظنه دونجوان النساء، عسى أن يخترق عالمها المجهول بسهولة كما يتمنى.

وهي تمشي تخطو خطواتها ببطء، كمطر الصيف تلطف أجواءه، ولهدوئها المراق هجس بنسمة فتنة ترعش فؤاده

تلامس جمرة صبره. وما إن أدركت البناية المهجورة، حتى وثب أمامها وثبة الوشق المنقض على فريسته، فاجأها في النقطة الضيقة من الممر المؤدي إلى المطعم..

ما إن جفلت، حتى تخضبت ملامحها بورس الخوف والحيرة، تغير لونها بين السمرة والصفرة والحمرة، حركت ذوائب الشوق في أنفاسه، أضحى كمن لا يحتمل صمته ولا صبره. التقاها بجذل والتباس، بقلب مضطرب، مهزوز البدن، جرفته رهافته وخواطره إلى فيض نجواها.

تفاجأت بظهوره كوحش يود افتراس حمامة، ارتعدت أطرافها خيفة، فقد أرعبها سلوكه الأهوج. لم تكن قد رأته من قبل، ولا كانت قد انتبهت إليه مسبقا، لم تتعرف على ملامحه، ولم تسمع به أصلًا. ومع وثبته، وضعت يدها على قلبها، في لفتة مفاجئة، معبرة عن ارتعادها، وهي تتساءل في ذاتها:....

- يا ترى؛... من هذا المجنون؟ ماذا جرى له؟ لماذا تعرض لي دون مقدمات؟ ماذا يريد مني؟

بقيت مشدوهة البال لوهلة الأولى، مأخوذة بصدمة اللحظة، لا تدري كيف تتصرف، ولا كيف تتعامل مع الموقف. ففي لحظات العصف المفاجئ، تختنق المواجهة بدخان الذهول، وتغيب ردة الفعل خلف ستار الفعل الأهوج. ينسى المرء ذاته، يفقد تركيزه، ويغدو كمن تاه عن صحراء نفسه.

وجدت نفسها في حالة من الشد والذهول، فسألته باستغراب:

- من أنت؟ ماذا تبغي مني؟ –

– .Please speak English

- I don't know English.

– I love you

. – لا إله إلا الله... حل عني.

.I want to marry you –

– لا أريد رؤيتك مجددًا، غادر الآن.

.But I love you –

– امشِ، العن حظك، لابو اللي جابك!

دفعته بيدها ومضت بخطى متسارعة نحو المطعم، وقلبها يخفق بخوف واضطراب. انتفض جنونها، لا تدري كيف تتعامل مع هذا المتيم بها، صارت تهذي مع نفسها:....

- مجنون... هي هي، باكستاني؟! ناقصة قرف! لو كان عربيًا لقلنا لا بأس... أنت؟! استغفر الله العظيم. كيف أتصرف مع شخص همجي؟ أأشكيه؟ أم أنتظر؟ يبدو متوحشًا...

تركته متسمّرًا في مكانه، وهي تردد في سرّها ذكر الله.. لا اله الا الله.. بينما هو يحدّق في قوامها كمن يرأى ظبية تخترق

حقـلًا دون أن تنتبـه لـه. تركتـه خلفهـا، وفـي قلبهـا وجـس وخـوف مـن أن يـتهجم عليهـا أمـام النـاس. وجـدت فـي سـلوكه وقاحـة وشراسـة لا تطـاق، فتابعـت سـيرها نحـو المطعـم بخطـى متسارعة.

كـان يبـدو همجيًـا، غيـر مـتعلّم، كأنّـه لـم يلتـقِ بـأنثى مـن قبـل. لا بأس إن كان معجبًا، ولكن... آه...

أخـذتها نشـوة خفيـة، طالمـا أعجـب بهـا الآخـرون؛ فـلا بـد أن فيهـا مـا يفـتن، بـل أشـياء كثيـرة لفتـت انتباهـه. وقفـت أمـام المـرآة طـويلاً، تتظـاهر بغسـل يـديها، بينمـا كانـت تغـوص فـي تساؤلاتها:...

- تـرى، بمـاذا فُـتن؟ بملامـح وجهـي الناعمـة؟ أم ببشـرتي الذائبـة بلـون الغسـق؟ أم برشـاقة جسـدي المبرمـة بـالألق؟ أم بطـولي الممشـوق؟ أم... أم... يـا إلهـي، مـن حقـه أن يُفتـتن بـي. لقـد سـمعت هـذا الإطـراء كثيـرًا مـن شـبان وصـديقات فُـتنّ بـي، أغـرمنّ بـي، وأعجـبنّ بأوصـافي. لا أدري، ربمـا أنـا جميلـة حقًـا دون أن أعـرف قـدري. إذاً، لا خوف عليّ من المستقبل...

ثم ارتدت إلى وعيها، وقالت لنفسها ساخرة:...

- هههههـه... أيـه يـا هبلـة، أيـن ذهـب بـكِ التفكيـر؟ مـا زلـتِ فتاة مفعوصة، لا ميزة فيكِ. إنه هوس مراهق لا أكثر.

في المطعم، جلست قرب عائلة ليبية، لتضمن عدم تحرشه بها. وما إن أتمّت غداءها الذي لم تشعر بلذته، حتى عادت إلى غرفتها برفقة إحدى الفتيات، دون أن تفصح لها عمّا جرى. ذلك الشاب لم يترك مكانه، بقي متسمّرًا، يحدّق بها بصمت.

خلال رجوعها مرت من أمامه دون أن يكلمها أو يتهجم عليها، لكنه غرزها بنظراته الغضنة، نظرات ثاقبة، فيها عتب وأسف وشك وريبة. بقي واقفًا بذات الرغبة والوله، وفي قلبه تتقلب الحسرة على نار جمرة صلته، أبعدته عن الآخرين، شكمته قوانين ومحاسبات ومجادلات، وأمور اجتماعية وأمنية تخص الكامب واللغة والعادات، صارت حائلًا بينه وبينها.

يا ترى، ماذا ضمّر لها من شطط وجنون مقابل عجز داخلي وحسرة مغمورة بصدره؟ ماذا أراد من وراء تلك النظرات الوحشية، الجلفة؟ نظرات كمن فيها الكثير مما يخفيه. هجست بها نظرات ذئب، فيها وجسّ، فيها انتقام مؤجل، فيها وحشة فطيم متصحر. الهيام ملأ قلبه، أعمى بصيرته...

أما أميمة، فقد وجلت من تلك النظرات، هجست فيها التباسًا وتخمينًا وتحسبًا. كان مغيب الذهن، مرهقًا، متيمًا. خلف نظراته الحادة يقف تحدٍ واضح، وتكهنات واستفسارات عقيمة. وجدت في استفزازه مخاطرة يصعب تمريرها أو تجاوزها.

لشدة رهبتها، صارت تجري بقدميها ويديها، تحاول أن تلقف باب غرفتها بأسرع ما يمكن، لتتكب على سريرها. كانت قد

سمعت منه تمتمة خلال عودتها من المطعم، هذرًا لم ترطن له، فلم تفهم منه شيئًا.

المصيبة التي أرهقته، أن أميمة بوجهها العابس، الغاضب، بدت أشد فتنة مما لو ابتسمت. هجس بنور وجهها وهي جانحة بسخطها، كنور القمر يشع على واحة سحر. التمس فيها فتنة مرهفة، مرآءة، أرهقت ناظره، لما فيها من دبق وودق أغشت فؤاده. هجس بالألق يشتط كالدخان من فتنتها، كشعل مصابيح تخترق جوف فكره...

فكّر أن يتبعها دون أن تشعر، حتى عرف رقم غرفتها. عاد إليها بعدما أدركت شكله وغايته، ليُفتح لها صنبور أشواقه، علّها ترهف له وتلين أمام عصفه. كأنه شعر في قرارة نفسه أنه أخطأ بسلوكه الهمجي حين عاكسها في الطريق، فأراد أن يبهج قلبها بشبابه، بلحظة صمت بعيدة عن أعين الآخرين، آملاً أن يقطف منها نظرة إعجاب تريح أعصابه.

في تعامله الأول معها، وجدها عقدة معقودة، لغزًا يصعب فكّه، جبلًا أشمًا، أجردا، منيعًا، لا تُتسلَق قمته بالطرق المعتادة. المسألة تحتاج إلى حنكة وصبر ومكر. لذا أعد نفسه لجولة ثانية، يحدد موعدها بذاته، عساه يتمكن من سرقة مكنوناتها من الجواهر.

في ساعة متأخرة من الليل، بعد أن تجاوز السهب هزيعه بساعة أو اثنتين، في تلك اللحظة التي يغشى فيها السكون المكان والناس نيام، وقف عند باب غرفتها. ظل يدور في فلك

عشقه كدبور تائه، أو كضليع يرجو ظهور القمر في ليلة عتمة، ليسترق منها نظرة ود تُشفي غليله. طرق بابها مرارا، أشعرها بوجوده، لكنها لم تستجب له ولم تحادثه.

كان قد غاص بكيانه في وحل غرامها، تيم بها كتيم النوارس بالشواطئ، كبل بها، أسر بقيدها. لم يهتم للألسن الممعمعة، ولا للنظرات المشينة، ولا للعناء الذي سيلحق به في تلك الليلة الباردة وهو يرتجي فتح بابها. تأمل أن تحنو عليه بنظرة رؤومة، أن ترفق به بعطفة تميس كيانه، أو بهمسة، أو بلمحة، بشيء من ذلك القبيل الطفيف يطفئ شرر بركان شوقه.

ظل يجوب أروقة جناح الكامب ذهابًا وإيابًا، ساهيًا، مضطربًا، نافقًا فكره في عصف هواها. مترنحًا، ممسوسًا، مسعورًا بسلوكه المخل، كأنما فقد تركيزه كشارب الخمر، لا يعرف سبيلًا يعينه على كسب عطفها وسرقة نبض فؤادها سوى المواجهة.

بقي في حيرة من أمره يصارع الزمن، دون أن تلوح له في الأفق كنجمة الصبح، دون بارقة أمل يجل خاطره في ذلك السدم. ومع ذلك، ظل مرابطًا عند باب غرفتها، متحديًا الزمن، لا يأبه لنظرات الناس ولا لحديثهم، ولا لوسوسة الشياطين. جاء بجوارحه الجائعة، العطشى، الرهيفة، ليرميها في حضنها. جنح بفكره نحو شواطئ قلبها، متمسكًا بعهد قطعه على نفسه: ألا يعود خائبًا حتى يمسك بتلابيب ضوء القمر. لذا لزم بابها طويلًا دون ضجيج.

لابد من اقتناص الفرصة، لابد من قراءة طالعه. صار يراجع حساباته، عسى أن توائم صفات برجه، برج الثور، مع صفات برجها العاجي، برج العذراء. ففي سلوكه كان همجيًا كالثور، لا يرى أمامه سوى أميمه، بينما هي، في صفاتها، تميل إلى رهافة الفتاة العذراء.

كان قد التمس فيها جوهرة لا تقدر بثمن، وهي كذلك، كاملة الأوصاف، رزينة، طرية، لينة، بريئة، جميلة المعالم، تمتلك من الخصال ما تبهر الشاب، صفات خلجة من ثلج ونار. لذا تمسك برغبته المجنونة، هجس بذاته إذا ما أقترب منها سيهلك بأحد القدرين، أما سيحترق بلظى الجمر أو سيشل بثلج العناد، وفي كلتا الحالتين سيكون عبد هواها.

ترى ماذا عليه أن يفعل؟ أحيانا المجازفة تفي بالغرض، وأحيانا قد تنعكس على سلوكه بالسلب. في ظنه كان قد قدر الحسبة بشكل دقيق، أدرك بأن الأنثى الصعبة المراس لا تأتي لجادة الطريق إلا بمجازفة أو بمغامرة ما تلفت نظرها، مجازفة تتجاوز عصف التفكير والعناد، تفوق سحر فتنتها لتلين قلبها، لتحرف بوصلة الفؤاد نحوه....

لكي تكون المعادلة حقا متساوية بين الطرفين، يجب عليه المجازفة، ينبغي أن لاَّ تكون بذاتها وشخصيتها أقوى من جنونه وعصفه وعواطفه، ينبغي أن يكسر ذلك التباين لصالحه..... إذا لا بد من طفرة جدية تحصل في سلوكه، ليقوي عوده وليلفت نظرها.

قرابة الحادية عشرة والنصف، خرجت أميمة من غرفتها تبغي غسل وجهها وتقضي حاجتها، لم تنتبه على وجوده وهو مختبئٌ في الغرفة المظلمة، المهجورة، المقابلة لغرفتها، حيث كان يراقبها بشكل خفي طوال تلك الفترة. عندها طفق أمامها على حين غفلة، كشبح يرتدي السكون غطاء له، كشيطان أخرس سار خلف خطواتها.... هجست به، التفتت خلفها وهي مرعوبة من الموقف، وإذا بها تتفاجأ بوجوده قالت له بعصبية، وهي ترتجف من الغضب والخوف:

- هو أنت؟! ماذا تبغي مني؟!....

ردّ بتوسل، محاولًا اختراق جدار رفضها:...

- Please, hear me... رجاءً، اسمعيني." صرخت فيه:
- "Leave this place now! اترك المكان حالًا!"

أجابته بحدة أوقفت غروره، فتجمّد في مكانه، يتأملها بعينين متوسلتين، وقال:..

- "I want you... I love you. أنا أحبك، أريدك." ردّت عليه بصرامة:
- "I don't want. أنا لا أريدك."

بتلك الكلمات، قطعت عليه كل طريق، وعادت مسرعة إلى غرفتها، ترتجف من القلق والخوف. أغلقت الباب بالمفتاح من

الـداخل، خشـية أن يهجـم عليهـا ويغتصـبها. ظـلّ فـي خاطرهـا يحذرها، يهمس لها بهواجس مرعبة:...

- "يـا رب كيـف أتخلـص منـه؟ إنـه يلاحقنـي... فـي عينيـه شراسـة كلـب مسـعور. لا أحـد هنـا أسـتنجد بـه. يجـب أن أخبـر إدارة الكامـب، يجـب أن أوقفـه عنـد حـده... إنـه متوحش، الوقت متأخر جدا ."

ثم تنهدت بحسرة، تفكر في حالها:

- "كيـف أنهـي مشـواري فـي هـذا الكامـب وأنـا أعـيش بـين وحـوش ضـارية؟ هـذا يـروم وصـلي، وذاك يـدور خلفـي، وآخـر ينظـر إلـيّ نظـرة إسـفاف وإسـفاد... كـل يـوم أتعـرض لمضـايقات مختلفـة. هـل أذهـب إلـى أمـي فتـرة ثـم أعـود؟ لكنهـا بعيـدة، وإجـراءات إدارة الكامـب قاسـية، لا تبـدي أي مسـاعدة. هـل أقـدم شـكوى ضـده لـدى شـرطة التحـري؟ آه... قـد تُحسـب علـيّ مسـألة شـرف وكرامـة، وقـد تنقلـب ضـد سـمعتي. لا... دعنـي أصـبر قليلًا. يـا رب، مهد لي طريق النجاة، وأعني على مشواري."

عـادت لغرفتهـا وهـي قلقـة. أمـا ذلـك الشـاب، فبقـي مرابطًـا أمـام غرفتهـا، وأحيانًـا يتجـرأ ويربـت البـاب، يريـد إطفـاء جمـرة جنونـه فـي تلـك الليلـة، يريـد مراعـاة قلبـه بكلمـة مـن لسـانها. إنهـا فرصـته الأخيـرة، وقـد فعـل كـل مـا بوسـعه، لكنهـا لـم تسـتجب. صـدمها بعنـاده، وصـدمته بثباتهـا. لـم يسـتوعب عفتهـا وقرارهـا، ولـم

تستوعب هي غايته وتيمه. أصبحا في مفترق طرق، كقطبين متضادين.

في تلك اللحظة، سمع أبو سعيد صوتًا أمام غرفته، ففتح الباب ليرى شابًا غريبًا، نحيفًا، مشعشع الشعر والنظرات، يستند إلى الجدار المقابل لغرفة أميمة، شارد الذهن، مغيب العقل. عرف جنسيته من ملامحه، فسأله:...

- "أأنت عربي؟"
- ".No"

فحاوره بالإنجليزية:

- "?Why are you standing here"
- "Wait for a friend..." قالها بإحراج وخجل.
- But this is not a waiting place. Isn't it " better to wait in the mosque?

- "No, I'm waiting for him here..." قالها بصلافة واستماتة.

عرف أبو سعيد غرضه، فقد سبقه آخرون بنفس الهيئة والنية، فواجهه بحزم:

- If you don't go, I will tell the camp " administration. This place is for families only".

- "I know, but... well, I'm going".

غادر الشاب ضجرًا، كأن وجود أبي سعيد قد حرمه من قطران الشهد. في تلك اللحظة، شعرت أميمة ببعض الطمأنينة بعد أن سمعت صوت أبو سعيد وهو يجادله؛ خرجت إلى المغاسل لتغسل وجهها، دون أن تبوح له بتفاصيل ما حدث معها، ربما خجلًا أو حياءً. هدأت الأجواء، وانزوى أبو سعيد في غرفته، كانت الساعة قد تجاوزت الساعة منتصف الليل.

لكن الشاب، حين غادر، لم يغادر بكليته؛ ذهب بجسده فقط، أما فكره وروحه وظنه، فقد بقي يدور في رواق الكامب، هواجسه معلقة في مقبض باب أميمة. لم تغف له عين تلك الليلة، ظل ساهرًا يناجي صبره، يعتصره الشوق ويؤرقه الفراغ الذي يعاني منه الجميع. ومع اقتراب الفجر، عاود الكرة، يربت بابها ربتا خفيفًا، كأنَّ لهفته منعته من الاستكانة والاستسلام. لقد فعل فيه الشوق ما لم يفعله العقل، حتى تجرد من وعيه.

أما أميمة، فبقيت عصامية، تسمع الطرق ولا تبالي ولم تستجب له، ولم تفتح الباب. تركته يتوسل كطير مذبوح، وهي بين خوف من سلوكه الهمجي، وحزم في موقفها الراسخ. قضت ليلتها وجلة، لم يغمض لها جفن، لكنها بصبرها وثباتها كانت كالسيف على رقبته، قطعت دابر شكه باليقين. عجز عن مواصلة سعيه، واضطر أن ينسحب مكسور الخاطر مع شروق الشمس، قبل أن يقع في المحظور وتنفجر عليه فضيحة التحرش، التي قد تودي به إلى غياهب السجن.

وفـي صـباح اليـوم التـالي، تقـدمت أميمـة بشـكوى رسـمية ضـده لـدى إدارة الكامـب، التـي بـدورها هددتـه بعقوبـة التحـرش، ثـم نقلتـه إلـى إحـدى القـرى النائيـة فـي ذات الأسـبوع، جـزاءً لصـلافته. وهكذا، تمكنت أميمة من التخلص من ملاحقته.

عنـد عـودة جنـان مـن مدينـة لايبـزك، وضـعت أميمـة وهنـادي بـين يـديها تلـك القصـص. اسـتقبلتها هنـادي بعـد طـول غيـاب، حملـت عنهـا حقيبتهـا وكيسًـا بلاسـتيكيًا كـان زوجهـا قـد سـلمه لهـا عنـد بـاب الكامـب. وفـي الممـر، احتضـنتها أميمـة بحـرارة، وحملـت عنهـا حاجاتها الأخرى إلى غرفتها.

قالت أميمة:

- الحمد لله على سلامتك، كنت مشتاقة لرؤياك.

ردّت جنان بابتسامة مشرقة:

- وأنا أيضًا في شوق إليك يا أميمة.

أميمة، مازحة:

- وجهـك يبـرق، وابتسـامتك أكثـر إشـراقًا... تـرى مـاذا فعلـتِ في هروبك؟ هههههه.

ضحكت جنان:

- لعبنـا... صـدقيني، دونـك ودون هنـادي، الحيـاة هنـا مـرة. لولاكمـا لمـا طقـت هـذا المكـان أبـدًا. فـي عـودتي، هجسـت

بشعور فرح هنادي، كانت قد اشترت للجنين جوارب صغيرة كأنها جوارب دمى، هههههه. تركت في نفسي أثرًا طيبًا، جعلتني أشعر بفرحتها، وكأنها أول هدية لابني. غيابها سيترك فراغًا لا أحد يستطيع ملأه.

أميمة، متأثرة:

- لقد تأخرت عن المغادرة بسبب فيروس كورونا، لأكثر من أسبوعين. أتمنى لها السعادة والزواج، لقد تجاوزت فترتها، فتاة خلوقة وطيبة، ذات قلب نقي لا يعرف الحقد أو الكراهية. بحسن سلوكها، تشعرك بصفائها وطيبها.
- آمين يا رب العالمين.

ما إن جلسن في الغرفة حتى تعالت ضحكاتهن، يتبادلن القصص والمواقف، وكل واحدة تتهم الأخرى بإثارة حفيظة الشباب بشيء من البلاهة والنكتة. وحين حان وقت الغداء، قالت جنان:

- في وحدة تقول إن زوجي تقدم لي خمس مرات، وأبي كان يرفضه، وفي النهاية وافق. وبعد خمس سنوات من الزواج، ذكرها برفض أبيها له، قال لها: أبوك كان يريد مصلحتي، لكني حمار ما كنت أفهم. هههههههه.
- ضحكت أميمة وردّت بطرفة:
- في شاب قال لأمه: ادعي لي يا يمه، يقولون دعاء الأم مستجاب. فقالت له: اللهم أسكنه في بيت من غير

إيجـار، وأرزقـه أكـلًا حـلالًا مـن غيـر فلـوس، واجعـل نـاس تحرسه ليل نهار... ثاني يوم دخل السجن. هههههههه.

- هههههههـــه، حلـــوة! أكـــل ونـــوم بـــبلاش وحـــارس يحرسه..هههه
- دعينـا نفـرش السـفرة، جلبـت معـي وجبـة تكفـي لثلاثـة أشخاص من ما لذ وطاب، كنت قد تذكرتكم.

جلسـن يـأكلن حتـى شـبعن، وامـتلأت الغرفـة بـدفء الصـداقة، وضـحكات النسـاء التـي تطـرد عـن المكـان كـل أثـر للقلـق والخوف.

- عالَمُ الأدَب -
جَاءَتْ بوَجْهٍ كَأَنَّ البَدْرَ بَرْقَعَهُ
نُوراً عَلَى مَائِسٍ كالغُصْنِ مُعْتدِلِ
إحْدى يَدَيْها تُعاطِيني مشَعْشَعَةً
كَخَدِّها عَصْفَرَتْهُ صبْغَةُ الخَجَلِ
- يزيد بن معاوية
adabworld.com

8- قلق جنان على جنينها

مرّ أسبوع على انتقال هنادي إلى سكنها الجديد في قرية زفيكاو برفقة عائلتها، هناك اشتد ضوء الحلم بينما انتشى ظل الوحدة بفراقها زميلاتها. ومنذ ذلك الحين، أصبح التواصل بينها وبين جنان وأميمة شبه روتين يومي، صار التذكير بهن يتدفق مع قراءة البخت وتأمل الغد، إذ تجمعهن رابطة حميمة لا تنفكّ. كانت جنان تهاتفها كلما شعرت بوحدتها، وها هي جنان برفقة أميمة تحاول زيارتها في سكناها الجديد. الهاتف يبعث بنداءاته عبر الأثير، وهنّ ينتظرن ردها بعد أن ذكرن سيرتها، وها هي تستجيب الآن...

قالت هنادي لجنان:...

– ألو، كيف حالك يا جنان؟ كيف صحتك؟ شغلتي بالنا...

– الحمد لله، أنا بخير. الغسالات مشتاقة لك، هههههه. (قالت ذلك أميمة مازحة). أخبارنا؟ فاطمة انتقلت إلى مدينة آوى، وسليم كَلَّبَ ذاته بالعنقاء رجاء، أما أميمة فقد اشترت حذاءً وحقيبة نسائية ماركة بأقل من نصف قيمتها من لصوص المتاجر في جناح العزاب. هذه هي النشرة المسائية. أميمة تجلس بجانبي وتخبرك السلام. كنا قد ذكرناك، واشتقنا لك...

– وأنا مشتاقة لكنّ، أبعث بوساتي لكنّ، وبوسة خاصة لأميمة التي لم تودّعني...

– كنت مشغولة مع أمي يا هنادي، لا تأخذيني، أنتِ أختي. قولي لي، أين أصبح سكناك؟ يقولون إنها مدينة جميلة، كيف رأيتها؟ خبرينا...

– ركنونا في "هايم" (سكن مشترك) فوق تلة في أطراف مدينة زفيكاو، في مكان لا أعرف له اسمًا. لم أطلع على المدينة بعد، لكنها لا تختلف كثيرًا عن شنيبر؛ بيوتات مبعثرة في الوديان وفوق التلال.

– الله يعينك، ربما هي فترة مؤقتة. اصبري يا هنادي. الآن وقد استقرت نفسكِ، سنزورك أنا وأميمة يوم الثلاثاء القادم. جهّزي لنا عزيمة خاصة.

– يوم سعد أن أراكنّ مرة أخرى. أنا بانتظاركن، لا تتأخرن...

– وهو كذلك، أرسلي لنا عنوان الموقع (اللوكيشن).

– وهو كذلك، مع السلامة.

يقال إن خلية الجنين تنقسم تباعًا إلى خليتين، ثم إلى أربع، فثمانٍ، حتى تتجاوز الملايين. هكذا بدأت رحلة صفاء، حبيبي، من خلية واحدة لا تُرى بالعين المجردة، والآن هو في طور التكوين الأولي، بطول سنتمتر أو اثنين. ما يحيرني: كيف يخاطرني؟ كيف ارتقت أحاسيسه إلى أحاسيسي، وهواجسه إلى هواجسي؟ كيف جعلها أكثر طراوة ونعومة وسط مرارة الحياة التي أهيم بها؟ إنه لغز يصعب على العقل تقبله أو تفسيره أو تخطي جوانبه النفسية.

ليتني أعرف لون عينيه، تقاسيم وجهه. كل يوم أتخيله بشكل مختلف، أتمناه شبيهًا بطفل لفت إعجابي، ثم أتناساه، وهكذا دواليك يراود مخيلتي.

العلاقة بيني وبين جنيني مزاجية، متقلبة، أهجس بها شيئًا من وحي الإله، ترتع خارج نطاق العقل البشري. لغز من الرحمن، يتربع على بساط السرد، ويجيش في خضم أسرار الزمن. ليتني أستطيع أن أتدبره، أن أقنع ذاتي بحقيقة وجوده...

أخاف أن أبوح بهذا السر. أخاف من ألسنة الناس أن يقولوا: جنان قد جُنّت بحملها، أصابها الهوس. لا أحد سيصدق أن وليدي يخاطرني. ثم، كل الناس لها أسرارها؛ فلمَ لا أحتفظ بأسراري لنفسي؟ لمَ أجلب عين الحسد والكلام العقيم لذاتي؟ دعني أعيش عالمي وحدي، وبوحدتي، خارج نطاق البشر.

بعد أن تُخصب الخلية، تبدأ رحلتها عبر قناة فالوب، من خمسة إلى عشرة أيام. إنها رحلة البدو في قطع الصحاري. المسافة طويلة جدًا إذا ما أخذنا صغر حجم الخلية في الاعتبار. وقد تكون رحلة بحرية باستخدام قشر البيضة كقارب. فعلاً، الرحلات البحرية بطيئة؛ فالمسافة بين دبي والبصرة تستغرق يومين بالباخرة، بينما يمكن قطعها بالطائرة في ساعتين، غير أن الخلية تقطع قناة فالوب بعشرة أيام، تخيلوا المسافة.

في نهاية المطاف، تصل النطفة إلى جوف الرحم، وهناك تبدأ قصة التكوين العجيبة. هناك تبدأ المعجزات في الخلق، وتبدأ مرحلة الانتعاش والاستقرار. خلال فترة وجيزة تنبثق من

الجنين استطالات خلوية تنغمس في جدار الرحم، لتثبته بسقفه، وتمتص المواد الغذائية من دم الأم. في هذه المرحلة، يُطلق عليه اسم "العلقة"، إذ تعلق النطفة بجدار الرحم وتتشبث به بإرادة خفية لا تُرى.

يا ترى، من علّم تلك الخلية المتناهية في الصغر كل هذا؟ من أرشدها إلى هذا المسار الدقيق؟ لماذا لم تلتصق في قناة فالوب؟ لماذا لم تُقذف إلى مجرى البول كبقية الخلايا غير المتفاعلة؟ أسئلة كهذه تخطر على البال فتزيدني إيمانًا بعظمة الله، وتوقظ في النفس دهشة الخلق وسرّه.

على الملحد أن يتأمل هذه التفاصيل ويراجع ذاته في أفكاره المتطرفة، أن يتوقف أمامها طويلاً، لعلّه يعود لرشده. فالدنيا ليست سوى نزوة قصيرة، وميدان اختبار، ودار عمل وإثبات وجود. عليه أن يراجع جبروته، ويعيد النظر في تقديراته للحياة، عسى أن يدرك وجود الله القابع في كل شيء قبل فوات الأوان.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ (الطارق)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ...* ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ (المؤمنون)

تتبع هذه الآيات مراحل الخلق بدقة مذهلة، من الطين إلى علقة ثم إلى النطفة، فالمضغة، فالعظام، فاللحم، ثم الخلق الآخر. ثم يُنسف هذا الخلق، لنعود إلى أصلنا، ثم نُبعث ليوم الحساب. إنها دورة الحياة والموت، والبعث، والخلود.

الدنيا إذًا ليست سوى محطة عابرة، دار اختبار، ومرحلة بناء للذات. لا ينبغي أن نبالغ في تعقيد علاقاتنا، ولا أن نغرق في همومها. أين ذهبت الأجيال السابقة؟ أين عظام رجال التاريخ ونسائه؟ كلهم عبروا هذا الطريق، وتركوا لنا العبرة.

في الأسبوع الرابع، يتحول الجنين إلى طبقتين: داخلية وخارجية. وتبدأ المشيمة بالتطور، بتأثير الهرمونات التي تمنع انسلاخ خلايا بطانة الرحم، فتزداد سماكتها، وتتفرع الأوعية الدموية فيها لتصبح المطبخ والمخزن المغذي للجنين في مراحل نموه.

صارت تحاكي نغسها؛...يا ترى، ماذا عليّ أن أفعل لأجنب جنيني عقد الحياة ومشاكلها؟ يجب أن يكون سليمًا ليكمل دورة الحياة. الأم تتحمل المسؤولية الأكبر في سلامة بدنه وعقله، من خلال اهتمامها بذاتها وتغذيتها. كما أن دوره يعتمد على الأب، الذي عليه أن يقدّر نفسية المرأة، ويسندها في حملها، ويرفع من معنوياتها، ويخفف عنها همومها. إنها مرحلة صعبة، تحتاج إلى صبر وتفاهم مدروس، واستقرار نفسي وعاطفي، لتجتاز الأم آلام الحمل وثقله وتعقيداته.

وفـي نهايـة الشـهر الأول مـن الإخصـاب، يكـون الجنـين علـى هيئـة أنبـوب، يبلـغ طولـه نحـو 6 ملـم. وتكـون منطقـة الـرأس منحنيـة، مميـزة بارتفاعـات ضـيقة وأخاديـد وفتحـات خيشـومية، تتحـول تدريجيًا إلى ملامح الوجه، مع تطور البناء العام.

لا أريـد أن أطـول فـي هـذا الجـزء ولكـن خطـر فـي بـالي سـؤال: يـا تـرى لـم لا يخطـأ موضـع الـرأس فـي الجسـم؟ كـأن يكـون مكـان القـدم مـثلا إن كـان الخلـق طبيعيـا دون تـدخل سـر الخـالق مثلمـا يـدعي بعـض الوجـوديين؟ لِـمَ لا تكـن اليـد مكـان الرجْـلِ مـثلا؟. هـذه اسـئلة عـابرة فقـط لتـذكير المغـالين والمختـالين والمتكبـرين بأنفسـهم مـن الملحـدين وأصـحاب نظريـة التطـور لـداروين ومـا شابه ذلك..

في هذا المجال تذكرت طرفة كانت قد مرت على بالي:....

كان قد سأل الولد أباه:...

- يأ أبي من أين جاء البشر ؟

قال الاب للولد:....

- كـان الله قـد خلـق آدم وحـواء ومـن ثـم تناسـلوا وازداد نفوسـهم جيـل بعـد جيـل حتـى وصـل الخلـق إلـى مـا نحـن عليه....

اراد تأكيـد جـواب ابـوه فـذهب إلـى الام سـألها ذات السـؤال، فقالـت له: ...

- يـا أبنـي أصـل البشـر كـان قـردا، ثـم تطـور الخلـق عبـر آلاف السنين ليتحول إلى بشر.

الطفل أحتار في أجوبتهما فقال لهما:..

- أجـوبتكم لا تطـابق بعضـها، أيكمـا قـد أصـاب فـي جوابـه؟ على أية أجابة أعتمد؟

عنادها أجابه الأب: ..

- يـأبني كـل منـا تكلـم عـن أصـله فأنـا تكلمـت عـن أصـل أجدادي وأمك تكلمت عن أصل أجدادها
- - هههههههههههههه.

خـلال تجوالهـا فـي المدينـة كانـت قـد اشـترت كتيبـا للحمـل، وبـدأت تقـرأ فيـه بشـغف، وأحيانًـا تلجـأ إلـى الإنترنـت الـذي وجدتـه خيـر صـديق يعينهـا علـى تجـاوز عجزهـا فـي فهـم مراحـل الحمـل. شـيئًا فشـيئًا، بـدأت تتعـرف علـى تفاصـيل مذهلـة: تلـك البـراعم الصـغيرة علـى جـانبي اسـتطالة الجنـين، التـي سـتنمو لاحقًـا لتكـوّن الأذرع والأرجـل، وتلـك القوالـب النسـيجية التـي تُعـرف بالجسـيدات، الممتـدة علـى طـول ظهـر الجنـين، والتـي سـتتحول إلـى العظـام والعضـلات المختلفـة. سـبحان الخـالق العظـيم، كـل شـيء بحسـاب، كل شيء بتقدير.

هكـذا أصـبحت تسـتقي معلوماتهـا مـن مصـادر متعـددة، تـود أن تعـرف كـل شـيء عـن جنينهـا، لتكـون أكثـر رعايـة واهتمامًـا بـه،

لتكون أمًا حضرية متطورة، لا تفاجئها مرحلة من مراحل نموه فتقع فريسة إشكالات هي في غنى عنها.

تلك المعرفة جعلتها تحسب حسابًا لكل حركة، لكل لقمة تشتهيها، لكل انفعال يجتاحها. بدأت تتعامل مع الروتين الجديد بقانون صارم من عدم المبالاة بالمؤثرات السلبية؛ جنّبت نفسها الأطعمة المبهرة والفلفل الحار، وتحولت إلى آلة ترقب وإحساس، تراقب ذاتها بدقة، وتبتعد عن المهاترات والانفعالات العصبية التي كانت تفتعلها مع زميلاتها أو حين تكون بحضرة زوجها. غيّبت الحركات الصبيانية عن بدنها، في سبيل الحفاظ على سلامة الجنين من أي مؤثر خارجي أو إفراز داخلي قد يضرّه.

كما علمت أن في الأسبوع الخامس يبدأ قلب الجنين بالنبض، ينتظم، ويبدأ بضخ الدم في جسده الصغير. حاولت جاهدة أن تتحسس نبض ذلك القلب الذي يرفأ في رحمها، فتلاحمت مشاعرها معه عبر الأوردة والشرايين، لتطمئن على صحته، لتشعر به، لتتبادل معه الأدوار والحب.

طالما أصبح له قلب، إذًا سيحس بها، سيبادلها الحب، سينمو سريعًا مقارنة بالأسبوعين السابقين. في هذا الأسبوع، ستظهر براعم الأطراف العلوية والسفلية، لتأخذ دورها في النمو، تماشيًا مع باقي أعضاء الجسد. كما تبدأ أعضاء أخرى بالظهور رويدا رويدا، مثل الكبد والكليتين والأمعاء والجهاز التناسلي، وتبدأ ملامح الوجه بالتكور والتكوين.

صارت تدعو الله أن يحفظه ويرعاه، وتتمنى أن تشابه ملامح وجهه ملامح أبيه، أو على الأقل أن يرث لون عينيه الزرقاوين.

قالت في نفسها: "عندما يكبر، سأخبره كيف كنت أتعامل مع الظرف لأجله، كيف كنت أتحاشى إرهاقه، سأشرح له كل ما مررت به، سأدوّن الأحداث في دفتر المذكرات، وبالذات ما أعانيه في الكامب من وحدة ووحشة وعناء. سأكتب له كل شيء، حتى إذا شبّ وفهم، أدرك قسوة الحياة التي واجهتها أمه من أجله."

في هذه المرحلة، لم تكن جنان تكتب لمجرد التوثيق، بل كانت تبني جسرًا من الحنان بين حاضرها ومستقبلها، بين قلبها النابض وقلب صغير بدأ للتو بالخفقان في رحمها. شعرت بشيء من الراحة، إذ خفّ القيء والغثيان، أو توقفا تمامًا. كانت قد اجتازت تلك الأسابيع القليلة بصبر وأناة، تحملت ما لا يُحتمل، وتسلّحت بالإطاقة والتبصّر والتجلّد.

وضعت كيسًا من الليمون قرب سريرها، ساعدها على تخطي تلك الفترة الحرجة بتعديل درجة الحموضة في معدتها التي كانت تستقبل إفرازات مفتعلة من البنكرياس تؤدي إلى التقيؤ. كما ابتاعت أقراص النعناع، التي بدورها غيّرت طعم الفم ورائحته وحموضة اللعاب، هدّأت مزاجها، لتشعر ببعض الراحة، خصوصًا قبل وجبات الطعام وبعد استيقاظها صباحًا.

كانت تستأنس بكلمات الله في كتابه الكريم، حيث شرح مراحل الخلق بتفصيل مدهش، فقال سبحانه تعالى:...

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: 5]

تلك الآية كانت مرشدها، تتبع مراحل نمو الجنين على ضوء ما بيّنه الله، وما أكدته الطبيبة، وما أغدق به عالم الإنترنت من معلومات دقيقة. كل ذلك جعلها أكثر حرصًا، أكثر رغبة في رعاية جنينها، وأكثر وعيًا بأهمية الثقافة الطبية للأم، فالثقافة هي السلاح الذي يحميها ويحمي وليدها من المخاطر.

رغم ذلك، لم تكن الحياة في الكامب سهلة. شعرت جنان بالقلق، بالتعب، بالإرهاق، بالخوف على جنينها من الغير المتوقع الذي يباغتها. فالمنغصات كانت تفرض نفسها، والانفعالات لا تُكبح دائمًا. المرأة ليست آلة مبرمجة، بل كائن حساس قد تمر بظرف يفرز فيه جسدها أنزيمات تضر بالطفل. كانت تدرك أن الأشهر الثلاثة الأولى حرجة، وأنها تفتقر إلى الخبرة في إدارة شؤونها والسيطرة على انفعالاتها.

لذا، آثرت المكوث في غرفتها أطول فترة ممكنة، لتجنب الإجهاد الفكري والجسدي، ولتحصين نفسها من تقلبات المحيط الخارجي. خلال هذه الفترة، اعتمدت على أميمة، التي صارت تجلب لها الفطور والغداء، وأحيانًا العشاء، وتتسوق لها. بذلك

خففت عنها عناء التنقل إلى المطعم البعيد، الذي يقع في نهاية الكامب، والمسافة إليه تتجاوز 200 متر.

كما جنّبتها أميمة تحرشات العزاب الذين يتربصون بالفرص في ظل ظرف أهوج وطقس فيه من القساوة ما يذل الفرد، حيث الجليد يغطي الممرات، مما يسبب لها حرجا نفسيا في ذهابها وإيابها إلى المطعم، ما كان يرهب جنان هو الانزلاق والسقوط الذي يجانبها خلال رحلتها. كذلك، وفّرت لها الحماية من درجات الحرارة المنخفضة التي كانت دائمًا منخفضة تحت الصفر في شهري كانون الثاني وشباط، فالبرد أيضًا كان عاملًا من عوامل القسر، يدفعها للمكوث قرب سريرها أطول وقت ممكن.

صارت تداعب بطنها بين الحين والآخر على مضي الأشهر التي قضتها داخل الكامب، قبل أن يأتي قرار تحريرها من سجن كامب شنيبر، حينها بدأت تتحسس بطنها الذي كبر حجمه قليلا بعد أن توقفت عادتها الشهرية، صارت تمسده براحة يدها وكأنها بذلك ترسل إشارات تخاطر لجنينها، كأنها بذلك تداعبه وتحاكيه بلمسات اناملها ليتطمأن في قراره. تلك الحركات تشعرها بالراحة وهي سليلة وحدتها قابعة بين أربعة جدران صماء، لا تسمع فيها طنينا ولا لاغية.

بعملها ذاك كأنها تمسد ظهر الجنين فتستجيب لأحاسيسه. كأنها تهيئه لينشط داخل رحمها أو لتشعره باهتمامها به.. تضع يدها على بطنها في موضع الرحم تحت الصرة حيث يكمن لتدفئه. ذلك ما يشعرها بالراحة، تهجس بذاتها تتحسس نبض قلبه،

عسى أن يشعر هو الآخر بنشوة الحنين حين يجس كهربة أناملها الاستاتيكية ترفق به عبر ذبذبات الحث الكهرومغناطيسية المنبعثة من قلبها. لتبين له قدرتها على ترويضه وهي تزلف إليه مشاعرها تجاهه؛ حتى وهو مضغة أو علقة، أنه يتحسس ذلك، فتذهب بذاتها لعالم الخيال، لتراه كما تتخيله طفل يناغيها في حضنها، يكركر على صدرها، يرفع عنها كأبتها المختلقة والوحدة بسبب الظرف.

هكذا تنغمر في تلك المتاهة بكل مشاعرها وأحاسيسها فترة من الزمن، حتى تعود أدراجها لوعييها لتجدد نشاطها مرة أخرى، هذه هي حلاوة رحلتها لتعيش نشوة تختلقها بنفسها، تنسيها محيطها فترة زمنية ما.

هكذا صار ديدنها كل صباح ومساء، يملي عليها الفراغ فراغا في وحدتها، فينقلها لعالم الخيال والتحدي تنسى به لوعة ذاتها وشقاء الأنا الدائرة حول محور الوحدة، فتذهب إلى البحث عن ما لذَّ وطاب مما موجود تحت يدها لتغذي ذاتها وجنينها..

خلال بحثها عثرت على صمونة قديمة وقطعة جبنة وبرتقالة، صارت تأكل وتشرب الشاي الذي صار سليل وحدتها وهي التي لا تأكل إلا لتهجس بذاتها تغذي جنينها. هكذا أستمر بها الحال عبر الأسابيع الأولى من فترة الحمل إلى أن استقرت ذاتها على سكينة من الصبر جزلت عنها شقاء الأشهر الثلاثة الحرجة من الحمل.

لم تفارقها أميمة قط، كانت تطل عليها كل ليلة لتطمأن على صحتها، لذا طلت عليها في غرفتها لتسليها في جلسة سمر يتناولن بها الحديث عن ما يجول في خاطرهما وعن رحلة وصولهن إلى ألمانيا.....الخ من أحاديث وما لاقن من صعوبات ومعاكسات خلال حياتهن شغلت بالهن.

بينت جنان لأميمة علاقتها بزوجها أحمد قبل الزواج قائلة:...

- أحمد هو أبن خالي، هاجر إلى ألمانيا وهو صغير السن نتيجة أوضاع لبنان الغير مستقرة قبل ثمان سنوات. أبوه كان يمتلك مطعما في لبنان، تعلم فن الصنعة من أبوه في صغر سنه، وعندما جاء خلال زيارته الأخيرة إلى لبنان؛ تعلق بي، صارحني برغبته الزواج مني.
- رضيت على طول؟...
- أكيد، وددت أن أعيش حياة رفاهية ومستقرة، ثم أني اكتشفت طيبة قلبه وصدقه وحنانه، فلم يبخل قط عن متطلباتي، هذا كل ما أريده منه، محبته وكرمه واحترامه لي. كنت قد شرطت عليه نقل أمي معي، فهي لا تملك في الدنيا غيري، كان أبي قد توفى في أحداث لبنان.
- الله يسعدك ويهنئك أنت تستحقين الثناء.
- من ثناء؟ هههههههه
- أبنة خالي هههههههه. أما أنا امي تطلقت من أبي وأنا صغيرة السن بعمر خمسة سنوات، بعدها تزوجت من

رجل آخر يعيش في المانيا، وبعد أن كبرت طلبت مني أن التحق بها...

- دعينا نعمل وجبة سريعة من صمون وجبن مع هذه العصائر المدرجة في رف الشباك قبل أن تتلف، ما رايك؟.
- فكرة لطيفة، أساعدك في الأكل. هههههه
- شكرا لمشاعرك الجياشة، هيا. هههههه.

9- اللون الاسود

في بداية حملها كانت قد شغلت بالها مجموعة أسئلة غريبة أفرزتها الظرف والوحدة، سلتها وأرهقت تفكيرها في نفس الوقت....اسئلة من وحي الخيال والواقع، تعلقت بالوحدة في خضم العناء والمشقة...

يا ترى:..... كيف أنجب وليدا في هذا الكامب التعيس؟ كيف وأنا بعيدة عن أمي وعائلتي وزوجي ووده؟.....

إذا ما حصلت الولادة في الكامب في ظل أجواء جدب، عقيمة، جعدة؛ فلن أستطيع تحمل عناء الولادة والوحدة قط، لا أحتمل تيار المخاض وصده.... ما حصل مع المرأة البوسنية قد يحصل معي. فهي ذا خبرة، وأنا فقيرة حال، أفتقد قدراتي في أوقات الشدة، لا استطيع السيطرة على انفعالاتي، أخاف من المسؤولية والظرف الشائك وشيطان التفكير وقسوة الحياة.... لازلتُ صبية، بريئة، طين لازب لا انفع بشي ولا استطيع مساعدة نفسي.. بينما هي جمرة مستعرة، بمثابة فطنة، فضة، جدة، لها خبرة طويلة، ومن علامات وخطوط وجهها أهجس بها أبنة شقاء وفلاحة في البوسنة، أي أنها خبرت الحياة وغرفت من جداولها التجارب لما شاقت من جلد.....

ظرفي يختلف عن ظرفها كليا لازلتُ ندية، طرية من ورق، وكم من النساء وافتهن المنية في أثناء الولادة أو في خلال أيام العدة للإهمال الذي تعرضنَّ له، أنها حالة حرجة للأم والجنين معا، أنها عقدة ولا أظن أستطيع أن افك أسري منها...

جاء ذلك التفكير نتيجة حملها الأول من جهة وتأخر استجابة دائرة الهجرة بفك أزمتها وبعض النزلاء كما الحال مع البوسنية والالبانية من جهة أخرى، إضافة لما يرافقها من يأس وبطء وروتين حيال مصير المهاجرين المبهم والذي يقيد سعيها، هناك من هم عاشوا سنوات طويلة دون أن يتمكنوا من أن يحصلوا على الإقامة الشرعية.

على الرغم من خطورة الموقف؛ جلّ النساء يقدمن على تقبل وضع الحمل بإرادتهن، المرأة أن لم تحمل وتصبح أما؛ لا تشعر بسعادة الحياة قط، دائما ما يكون هناك هدف تسعى إليه، تهجس بأنه هناك شيء ما ينقصها لتكملة مشوار الحياة، إن لم تحمل تلوم حظها ونصيبها.... فكلمة ماما هي أثمن من مكنوزات الدنيا ومغريات الحياة، تلك الكلمة الساحرة التي تسعى خلفها، تشعرها بسعادة لا تثمن حين تسمعها من وليدها، تمحي كل آلامها واحزانها ومعاناتها التي ترافقها في لحظة ما خلال مشاوير الحياة. أنها قوانين الطبيعة والرحمة التي زرعها الله في الأنفس لتكون الطاقة التي تمد الأنثى بحيويتها، ومع ذلك هناك أمهات لفضن فلذات اكبادهن خلفة المادة أو علاقة عابرة، وكأنهن بلا قلب وضمير ومشاعر. لذا وجدت أن تدع ذاتها تتحسس تلك اللحظات التي تعد الأعظم في حياة المرأة خلال عمرها الافتراضي، وأن الله خير حافظ لنا، حيث الأمومة لها سحر يلمع كبريق الماس في قلب ووجه الأم بعد أن تولد، ولن تشعر بذلك إلا من خاضت تجربة الحمل والولادة.

ولكن متى بدأ الحمل؟ كم صار عمر الجنين؟ كم زاد حجمه؟ كيف يتغذى؟ كيف يتحسس؟....الخ.....

أسئلة تبقى متجددة في ذهنها مع تقلب الأيام، تكاد لا تغفى إلا وهي منشغلة بتلك المعمعة إن جاز التعبير لتكرار سيناريوهاتها معها، في أحيان كثير تذهب بها الريح إلى حيث المتاهة فتنسى ذاتها وتنشغل في خيلائها المتقلبة، تذهب معها بعيدا إلى حدود الشمس، ثم تعود أدراجها دون أن تدرك أجوبة شافية لأسئلتها والغازها.

ضلت في وضعها المتقلب تتبع ذلك الخيط والطواف المتنقل والمتقلب، لتشغل ذاتها بوحدتها الرتيبة، اسئلة تتجدد مع الوقت ليس لها علاقة بالكامب ولا بقدراتها الذاتية كأنها تنبع من تنور فكرها، تجدها كالأثل في الجنينة، حيث تنبت الأفكار من وحي الوحدة والروتين وسنن الحياة، مرتبطة بطبيعة الخلق والتكوين والزمن وقدرات الإنسان الغير محدودة في تحمل الجلد، والتي هي خارج نطاق العقل والإرادة والحسابات...

تلك الامور مرتبطة بذاتها وبالذات بالخصوصية التي خصها الله بها، لتعطي الحالة الهجينة التي هي عليها أهمية قصوى خاصة بها، لتزيد اهتمامها بجنينها وبذاتها وبصحتها.

بتلك الأسئلة كأنها ربطت حياة الجنين بظرفها وأسلوب حياتها ونوع مأكلها. نعم تلك الأمور متلازمة، مترابطة مع بعضها ولا يمكن فصلها، ولا داعي لتفخيخها بشيء من التعقيد والمبالغة، هكذا رست أخيرا في جعل أيامها سلسة تتحدد

بسلوكياتها بسيكولوجية جديدة فرضت عليها الانعزال الشبه التام عن محيطها، إلا ما ندر.

تلك الاسئلة تراودها باستمرار، تنبعث من الصمت المراق في حياتها، بالذات حين تنفرد بحالها أو حين تجد ذاتها ممددة على سريرها في فترة الراحة والاسترخاء، أو في فترات الهدوء قبل النوم وهي تناجي ذاتها وحبيبها قبل أن تغص جفونها بالوسن، لتغرق مراكبها في بحر الكرى، وخاصة لا توجد وسائل ترفيه تشغلها وتشغل تفكيرها في فلم ما أو فكرة مشروع ما تشغلها أو قصة ما تسمعها أو مشاهدة ما توضح تجارب الآخرين عبر النت واستخدام الكومبيوتر..الخ، لذا حين وجدت روايتي طريق الجحيم بيدي استأذنت بقراءتها، حيث شغلت ذاتها بها فأكملت الرواية في يوم واحد فقط.

كانت أم هنادي نصحتها فيما سبق بأن لا تبقى اسيرة غرفتها وأزمتها، نصحتها بالصحبة والمخالطة أو اشغال ذاتها في عمل ما تتسلى به كي تنسى همومها الشخصية وهم حملها، لأن الوحدة تجيلها إلى التعقيد.

وهي في وضع التمدد تخيلت طول الجنين بضع سنتمترات، حينها صارت تبتسم وهي تفكر في حجمه؛ يا ترى كم سيكون حجم رأسه وعينيه وفمه؟ أنه نقطة، كم سيكوم طول ذراعه؟...الخ، أنه لا زال بمثابة خيط معلق في أحشائي، أنه جزء من روحي وكبدي....

أخذت ورقة وقلم وصارت ترسم شكلا مقربا له بطول سنتمترين، لتقدر طول ذراعيه وساقيه وحجم رأسه. وجدت رأسه كبذرة التفاح ويديه خط بنصف سنتمتر، صارت تبتسم على ما خطر في بالها... هذا الجزء الصغير الذي لا يرى بالعين والقابع في بطني شغلني عن الدنيا كلها، فيه روح من روحي، يا رب كم أنت عظيم في خلقك، أحفظه لي وأجعله كاملا معافى يشبه زوجي.

صارت تدعي ربها أن يحفظه، حينها خرت على خدودها دمعة رطبت الوجنة الملساء والمخدة، في تلك اللحظة تأملت أن تكون في حضن زوجها، ليخفف عنها عناء الحمل والوحدة.

الصورة لم تخرج عن نطاق ذهنها، بقيت تفكر بهذا الكائن الخيطي الذي أصبح له قلب ينبض.... خامرتها نشوة وهي تهجس بروحه تطوف حولها وتغمرها بمحبة خاصة، ترتبط ارتباطا وثيقا بذهنها، طالما له قلب إذا أنه حي يرزق، سيكبر مع الأيام، سيخرج للدنيا قريبا فتا وسيما ألعب معه ويلعب معي.... فترة التسعة أشهر ليست ببعيدة، أهجس بالأيام تركض بنا في خضم معاناتنا، أنها فترة محسوبة بالعقد والمشاكل، أيامنا كلها حسابات ضائعة بين العمل والمأكل والعقد وتخطيط الغد، مشاكل الدنيا لن تنتهي، فهيَّ مثل الأيام تتجدد يوما بعد يوم، حين تنتهي تجد عُقدها بصيغ أخرى، لتبقى حياتنا تدور في فلكها وحول محورها. ما أن تنتهي عقدة ما؛ حتى نجد ذواتنا تنشغل بأخرى تولد من رحم الظرف والأيام المتجددة،

هكذا نجد عقدنا نختلقها بأنفسنا ولأنفسنا، أو هناك من يختلقها لنا لننشغل بها عن الذات والله دون إرادة.

نهجس بالزمن يفلت من قبضتنا كالسهم النافذ دون أن نشعر به، ما أن نمسك باليوم حتى يفلت الشهر من قبضة أيادينا كلحظة ليغور بعيدا كقطرة في عمق الزمن الماضي، ليصبح لحظة تتدحرج في مجرى الدهر، بل نفتقد السنين والسنين التي تجرنا خلفها لغاية الصمت فنصبح بمجراها همسة عابرة تصغر بمرور الزمن، فتصغر كثيرا مع البعد الزمني، حتى تصبح لحظة وهامش كلما ابتعدت عنا الأيام. من يتذكر قبل الف أو الفين سنة، سنةٌ ما بارزة في شريط الأحداث؟ تلك الفترة حين نعدها إذٍ نعدها بالقرون. هكذا العمر يتقلص ويذوب كالشمع مع الايام، لذا علينا أن لا نعطي للعقد أهمية، فهي مع خسارة الأيام المحسوبة علينا تذوب في قروءها الأحداث وتنتهي معها الأحلام مع انتهائها... نعم المدة قصيرة جدا، الأيام تمضي تباعا، الأشهر هي الأخرى تتبع سلفها بروتين عجف، يجعلنا نهجس بفترة الشهر وكأنه يوم أو ساعة أو دقيقة في نهاية المشوار، لسرعة دحرجة عجلة الزمن بنا إلى الهوة التي سندفن فيها جميعا والتي لا يوقفها شيء؛ حتى ندرك نهاية المطاف دون أن نفهم شيء من أمر الحياة. كأننا في حياتنا نمثل دور بسيط في مشهد من فلم سينمائي كبير من مشاهد الزمن. فقصة ملك الموت مع النبي نوح عليه السلام بعد أن عاش 950 سنة. قال ملك الموت لنوح:....

- يا نبي الله؛ كيف وجدت الدنيا؟ قال..

- كغرفة لها بابان، دخلت من باب، وخرجت من باب.

تذكرت جنان طفولتها وهي تذهب برفقة صديقتها رهام ولبنى وهن يذهبن للمدرسة الابتدائية القريبة من حيهم، وكأنها كانت قبل أيام على الرغم من مرور 16 سنة عليها....ياه أين ذهبت تلك السنين؟.....

لذا صارت تأخذ الامور ببساطة، ولكن ما كان يحز بنفسها هو أن الحياة قصيرة جدا، ولن تعيش فيها مرتين. لمَ تمر بكل تلك المنغصات التي تعكر مزاجها ؟... ودت أن تعيد برمجة حياتها وبهجتها القديمة لذاتها وأن تصالح الزمن وتصنت لهمسة الغد بإصغاء، أن تجعل الأيام تروق لها لتتصرف بها كيفما تشاء، وذلك لن يكون أبدا دون مرونة تتصف بسلوكياتها ورغباتها.

أحيانا نشعر بأننا لم نفهم جديا جدلية الحياة إلا بعد أن يشيب الرأس وتكل أجزاء البدن، حينها ندرك واقعنا لنكون جزءا منه بعد أن نصل نقطة لا نستطيع الرجوع منها. نصحى على حاضرنا لنكون قد وصلنا لمرحلة النضج التي هي في واقع الحال الفترة القريبة جدا من نقطة النهاية، قريبة من فترة رحيلنا الأخير، لذا علينا الاسراع في فهم لغط الحياة وتبسيط مدلولاتها قدر الإمكان.

هكذا إذا عجلة الزمن تقطع بنا المسافات الطويلة بزمن لا نشعر بقيمته، زمن يفلت من قبضة ايادينا، أنها المسافات المحددة لنا، لا نتحسسها دون أن ندرك أو نجدول زمن حياتنا وأسس منهجنا بين نقطة البداية والنهاية. لذا تجد الإنسان أحيانا

يتجاوز عمره سنوات الخمسين وهو لازال يشعر بذاته طفلا يرتع بدور المراهقة في هذه الدنيا، يسلك سلوك الأطفال والمراهقين في تعامله مع محيطه، لأنه لا يستطيع أن يستوعب بأنه قد تجاوز فترة عمره القصيرة من الزمن بهذه السرعة.

لا أنسى في هذا المجال المرحوم جمعة جراد الذي تجاوز سنه الخمسين وهو يلعب كرة القدم مع مجموعة مراهقين دون العشرين سنة في الدروب والملاعب المرخصة والغير مرخصة، يخالفهم ويجادلهم، وهناك الكثير على شاكلته في المجالات الأخرى مثل أم علي التي شغلت ذاتها بفرقة طرب مع مجموعة أطفال الحي لتغني وتمرح في الاعراس في مدينة البصرة.

إذا عندما يدرك الإنسان رشده، يصل إلى قناعة بأن لا شيء يقنع الأنسان ويستفيد منه في الدنيا سوى صالح الأعمال.

صارت تنفعل وتكلم نفسها في شؤونها وهي تقول:...

لذا عليَّ أن لا أستعجل أمور الحساب، عليَّ أن أهتم بصحتي وأناقتي كي لا أفتقد فتنتي وجمالي وألقي، دعني أعيش يومي كيفما يكون وأنسى منغصات الكامب وغله، دعني أبقى في نظر زوجي وصديقاتي جوهرة ثمينة، أهتم بتغذيتي لينتعش جنيني ويرفأ بصحة وعافية. دعني أنسى هموم الحياة وحجرها والقلق الذي يساير أيامي، كي أعيش بهدوء وسكون.

امتدت على ظهرها، وما هي سوى هنيهة حتى داهمتها غفوة سريرية، استشعرت بذاتها تطوف في عالم الوله، في دنيا جديدة برفقة وليدها، ها هو يمسك بيدها في جنينة مليئة بالأطفال، تهجس به يود أن يشارك الأطفال لعبهم، يود أن يركض مع الصغار خلف الكرة في الحدائق، أن يمرح ويلعب أمام عينيها بين أزاهير الجنينة، مبهور بمحيطه وهو يتبع الالوان الزاهية من ألوان الورود البهيجة، مزهو بين الألوان المستطرقة تحت أشعة الشمس، يحاول ان يقطف وردة بيضاء، يشم أخرى حمراء، ثم يتبع الصفراء والزرقاء، يتجه نحو البرتقالية والبنفسجية، ثم ثم ..الخ، أه أنه التيه الذي أغار علينا، جعلني أتبع الظن المبعثر هنا وهناك، لا أدري إلى أين يتجه بنا في مساره المبهم...

يا ترى كيف سيكون ظنه بي وبأبيه عندما يكبر ويقارننا مع الناس المحيطة بنا، كيف سيرى الاطفال برفقته، أراه ذكي جدا، يجب أن أنمي فيه ميزة الذكاء، ها هو يتبع كل طفل يصادفه، يود أن يمرح مع أقرانه ليتجاوز الحسابات التي تخلقها له فرص الحياة في طريقه، هذا يجعلني أن أنجب له أخٍ بعد أن استعيد صحتي، كي لا يصاب بالتوحد. أنها الورطة التي تورطت بها مثلما قالت لي أميمة، وهي سنة الحياة ويجب أن أتبع خطها شئت أم أبيت. سيكون ولدي مميزا. الخواطر التي تمر بي لم تكن من عبث، أنما هو تخاطر روحي بيني وبينه. يجب أن أجعل الاشياء من حوله جميلة، لتغره المباهج وتجذبه المفاتن، ليتميز عن الأطفال، ليكون نبيها وأذكى الجميع وأذكى مني ومن أبوه.

ترى، كيف ستكون بشرته؟

كيف ستكون ملامح وجهه؟ أهي أقرب إليَّ أم أقرب لأبيه؟ أيشبهني أم يشبهه؟؟؟

قزحية عيني أبوه زرقاء كلون السماء، وقزحية عينيَّ سوداء كلون الليل الأدهم، أبوه أحب قزحيتي فتزوجني، وأنا أحببت قزحيته فعشقته، أحبني لأني أختلف عنه وأنا أحببته لأن قزحية عينيه نادرة الوجود، ترى ماذا سيختار صفاء لنفسه... أكيد سيختار القزحية الزرقاء، لأنها من ألوان الطبيعة الجذابة، ترى السماء زرقاء والبحر وبعض الورود، ولون الروح والوجود والفصول تنجب إليه.

أما الأسود، فأهجس فيه ثِقَلًا دبيبا وشجنًا جلدا، يستحوذ على لون السهر والعناء، لون الليل والنوم والخوف والحزن. لونٌ يسرق بهجة الألوان الأخرى، يمتصها في صمته العميق. هكذا أراه، لذلك أحبه لأني أعشق الليل ولا أحبه لأنه مرتبط بالأحزان.

غير أن لزوجي رأيًا يخالف رأيي، ونظرةً تعاكس ما أدّعيه أنا. فهو يرى في اللون الأسود ما لا أراه، يصفه بسيد الألوان، لون العشاق والتحدي والإباء. إنه لون الألق والسعادة، لون الشخصية والكبرياء والأناقة، لون العريس في ليلة زفافه، حين يلتف المحبون حوله على بساط السهر والسهاد تحت ضوء القمر، لون الظلام وهو يحتضن القمر. فلولا السواد، لما استشعرنا بفتنة القمر، إذ يضفي عليه من روحه لمعانًا خاصًا،

فيميّزه كجرم سماوي فريد. إنه لون الثبات والعمق، لا يتأثر بالشمس ولا يذوب في وهجها، بل يبقى متماسكًا، صلبًا، لا يعرف التقلب والمزاجية والسطحية.

ويقول علماء النفس إن للألوان أثرًا بالغًا في النفس والشخصية، بل وفي الاستجابة العضوية. فالعلاقة بين الرجل والمرأة، وإن كانت من وحي الطبيعة، فإنها تسبح في بحر من النرجسية اللونية: الاحترام، القدر، التعصب، القيافة، الترجي، الاغتناء، التأمل، كلها لها الوان... ألوانٌ تهدئ النفس أو تهيّجها، تفتح الشهية أو توقظ الحواس، تنشّط العمليات الجنسية والجسدية، ولهذا وجب علينا أن نكون حذرين في اختيار الألوان التي تحيط بنا، سواء في تعاملنا أو لباسنا، في طلاء الأظافر أو الجدران، فكل ذلك انعكاسٌ لشخصية الفرد، ومرآةٌ لروحه.

أما زوجي، فكان يتغزّل بعينيّ الجعداوين الحوراوين، إذ يرى في سواد العين أثرًا على ملامح الوجه، يزيده فتنةً وغموضًا. وأنا، خمرية اللون، ذات قزحية سوداء وشعر فاحم، أهجس أحيانًا أن ملامحي تشبه ملامح القمر في ليلة الزبرقان، حين يتوهّج تحت عينيّ السوداوين.

فالأسود، ذلك اللون الذي يحمل دلالات متباينة، يحبّه زوجي حبًا خاصًا. فيه من الإيجابية ما يراه، ومن السلبية ما يشترك فيه مع الناس. إنه رمز الغموض والتمرد والجاذبية، رمز الأناقة والرسمية والعمق والتحدي، خصوصًا لدى الطبقة المثقفة والسياسيين. وفي الوقت ذاته، يرمز إلى الاكتئاب

والرهبة، إلى الشرر وثقل الظلال. لكن زوجي، يتمسك بجانبه المضيء، وربما يجاملني بذلك، أو ربما يرى فيّ امتدادًا لهذا اللون الذي يعشقه.

فالذين يحبون الأسود، غالبًا ما يتصفون بالإرادة القوية، بالغموض والاحترام، على عكس من ينفرون منه. وهذه الصفات تتجلى في زوجي: رجل رزين، عنيد، شديد في تعامله، حاد ومنصف، قليل الكلام، حازم، أنيق، فيه سمات السيطرة والهيبة. تلك الصفات التي يحملها اللون الأسود جعلتني أعشقه، وربما، أحيانًا، يخطر لي أن سبب عشقه لي هو توافق مزاجه مع قزحية عيني ولون شعري، فكأنني مرآته التي يرى فيها ذاته.

وحين أرتدي اللون الأسود يعشق لبسي، فيدندن لي أغنية كاظم الساهر(هذا اللون عليك يجنن يشبه لون عيونك) يجعلني أتشبث به.... وأحيانا في وحدتي أكره لون شعري وأتمنى لو قزحية عيني صهباء كلون الكهرمانة أو خضراء بلون الحشائش، ولكن عليَّ الرضا بالواقع طالما أنا بصحة جيدة. ربما مللتُ لون قزحية عيني السوداء ولون شعري الأدهم كوني قد تعودت عليهما، اشاهدهما في المرآة كل يوم عشرات المرات، لذا أجده لونا ثقيلا نوعا ما، وأشعر بسلبياته في مواضع كثيرة، على سبيل المثال؛ الاسود غير ملائم لطلاء جدران البيت، لأنه يكون ذات دلالات سلبية تنعكس على النفس وبالذات على نفسية الأطفال... لكن زوجي حين يتغزل بعيني يقول:...

تـأثير القزحيـة السـوداء علـى ملامـح الوجـه كتـأثير الليـل علـى القمـر، أنهـا تبـرز مفـاتن ملامـح الوجـه، تجعلهـا أكثـر اشـراقة ولمعـة، يفـيض سـحرها علـى الـوجنتين بإضـاءة مشـعة، مـع أنـه لـون يمـتص الأشـعة ولا يشـعها إلا أنـه يبـرز ملامـح الأنـف والشـفة. أنـه لـون طـري، يضـفي سـحره علـى الأنـف والوجنـة والشـفة أكثـر مـن لـو كانـت قزحيـة العـين زرقـاء أو شـهلاء. كمـا أن طـلاء الأظـافر بـاللون الأسـود يبـين سـحر ورقـة الأنامـل إذا مـا كانت البشرة بيضاء أو خمرية.

أنّـه لـون يرمـز إلـى التمـرد والثـورة علـى كلّ مـا هـو مـألوف، علـى الـرغم مـن أن الـبعض يـرى فيـه نظـرة سـوداويّة للحيـاة كلـون حـزن وتشـاؤم. لكـن هـذا الوصـف محـدود ومـن خيـال البشـر لـيس إلا.

حـين وجـدت زوجـي يتغـزّل بـي كثيـرًا، ويصـفني بكلمـاتٍ تنسـاب كـالعطر فـي مسـاءٍ سـاكن، شـعرت لأول مـرة أننـي أُرى ذاتـي كمـا أنـا، بـل كمـا أتمنـى أن أكـون. وصـف لـون شـعري الفـاحم بأنـه تـاج الليـل، وقزحيـة عينـي السـوداوين بأنهـا مـرآة الغمـوض والجمـال، فبـدأت أصـدق أننـي جميلـة، لا لأننـي كنـت أجهـل ذلـك، بـل لأننـي كنـت أحتـاج مـن يـوقظ هـذا اليقـين فـي داخلـي. فـي البدايـة ظننتهـا مجاملـة، محاولـة منـه ليظفـر بـي، لكـن حـين تأملـت المجتمـع مـن حـولي، ونظـرات الشـباب التـي تلاحقنـي بانبهـار، وتلـك الهمسـات التـي تتبعنـي كظـل، تيقنـت أن مـا يقولـه لـي لـيس محـض كـلام، بـل حقيقـة تنطـق بهـا العيـون قبـل الألسـن. أحببتـه لأنـه كـان صـادقًا،

لأنه جعلني أرتقي إلى مصاف الحسان، إلى تلك المرتبة التي كنت أراها بعيدة المنال.

وإن تأملنا كوكبة الشخصيات المرموقة من نساء ورجال المجتمع، لوجدنا أن اللون الأسود هو خيارهم الأول في المناسبات، دلالة على الهيبة والمكانة، على القوة والاحترافية. رجال السياسة وسيدات الأعمال يتخذونه جزءًا من ثقافتهم، لأنه لون يرتبط بالسلطة، بالسيطرة، بالأناقة التي لا تخبو. الجهات التي تحمي الناس، من رجال الأمن إلى حراس الرؤساء، تتشح به، لأنه يمنحهم طابعًا من الهيمنة والثقة، ويعكس قدرة على التأثير في من حولهم. إنه اللون الرسمي في أغلب المناسبات، يرتديه رؤساء الدول في الزيارات، ويتزين به العريس ليلة زفافه، ليكون له سطوة على قلب محبوبته، كأنما الأسود يمنحه شرعية الحب والهيبة في آنٍ واحد.

وذات مساء، سألني زوجي سؤالًا عابرًا، لكنه ظل يرنّ في ذهني طويلًا، قال لي: – يا جنان، لماذا ترتدي السيدات من نساء العرب اللون الأسود كلون رسمي لهن؟

تلعثمت، لم أجد جوابًا شافيًا، لأني لم أفكر مسبقًا بهذا السؤال، لكن الحقيقة كانت أمامي، شفافة كالماء. فاللون الأسود عند المرأة العربية ليس مجرد اختيار، بل هو هوية وأناقة، حشمة واحترام. يخفي مفاتن الجسد، ويمنحها كرزمة خاصة، شياكة لا تضاهى، حضورًا يفرض نفسه دون صخب. وعلى الرغم من ارتباطه بالحزن والحداد في ثقافات كثيرة، إلا أن المرأة العربية جعلت منه رمزًا للجمال، وعباءة للفتنة الراقية.

وقد تغزّل الشعراء عبر التاريخ بالنساء صاحبات الشعر الأسود والعيون السود والثياب السوداء، لأن هذه الصفات كانت وما زالت تميز المرأة العربية عن غيرها. ومن أجمل ما قيل في ذلك، ما أنشده ربيعة بن عامر التميمي في فتنة الخمار الأسود:

قل للمليحة في الخمار الاسود --- ماذا فعلت بناسك متعبد

قد كان شمر للصلاة ردائة --- حتى وقفتي له بباب المسجد

فسلبت منه دينه ويقينه---- وتركتيه فى حيره لا يهتدي

ردي عليه صلاته وصيامه --- لا تقتليه بحق دين محمد

وقال عباس مدحت البياتي:...

سواد العين أضاء مفاتن وجهها -- فبانت بين الجميلات كالبدر

إذا ما نظرتَ إليها وأنتَ صائم – أفطرت كأنها أحلت ساعة الفطر

ذات يوم، تغزّلت هنادي بسواد عينيّ، وقالت لي بنبرةٍ يملؤها الإعجاب والدهشة:

- يا جنان، أرى وجهك كجنينة ورود، تتفتح في حضرة سواد عينيك، كأنهما شمس الصبح تطلّ على ملامحك. عيناك جميلتان، واسعتان، فيهما سحرٌ لا يُقاوم،

ووجهك مثير بجاذبيته الغائرة في ثنايا البشرة، كل ملامحك فاتنة، متناسقة، كأن الله حين خلقكِ أفرغ فيكِ عنايةً خاصة، اهتم بتفاصيلكِ كما يهتم الرسام بتحفةٍ لا تُكرر.

كلماتها تلك جعلتني أنتبه لنفسي كثيرًا. صرت أقف أمام المرآة لساعات، أتأمل ملامحي، أبحث فيها عن سرّ اللغز الذي لامس مشاعر هنادي، ذلك الذي شعرت به قبل أن أتحسسه أنا. دققت النظر في سواد العين، في الحَوَرْ المزدان بها، في التناسق بينهما وبين أنفي الشامخ، وشفاهي المتقدة والمتقدمة المبرومة، فوجدت شيئًا كان خافيًا عني. اكتشفت أن سحر الجاذبية لا يصرخ، بل يذوب في الملامح، يختبئ كلمعةٍ مغروسة في سحر الجواهر، كخضرةٍ رائبة في أوراق الشجر. حينها فقط، عرفت سرّ تمسّك أحمد بي، سرّ إصراره على الزواج مني، وكأنني كنت مرآته التي يرى فيها فتنة الحياة.

في العرف الإنساني، يرتبط اللون الأسود غالبًا بالغموض، بالسريّة، بالمجهول والمخيف. لكنه في وجهي كما رأته هنادي، كان يشعّ ألقًا، يمنحني ميزةً خاصة، كأنّه يحيطني بهالةٍ من التفرّد. هذا اللون، كما يقول علم النفس والطاقة، يساعد على الوقاية من الإجهاد العاطفي، ومن شرّ العيون الحاسدة، يخلق حاجزًا منيعًا بين الذات والعالم الخارجي، فيمنح صاحبه راحة بال، يخفي بها شجنه ونقاط ضعفه، دون أن يفقده حضوره أو جاذبيته.

ولعل النساء البدينات يلجأن إلى اللون الأسود ليخفين عيوب أجسادهن، فيظهرن أمام الناس بنحافةٍ أنيقة، فهو لون السيطرة والرقي، لون التحكّم والهيبة. محبّ اللون الأسود، غالبًا ما يكون شخصًا منطويًا على ذاته، منضبطًا، مستقلًا، صاحب إرادة وعزيمة وأناقة لا تُخطئها العين.

ويُنصح عادةً لمن ينوي السفر أن يحمل معه شيئًا أسودا، لما لهذا اللون من طاقة إيجابية قادرة على امتصاص الطاقة السلبية، وحماية المسافر من ضرر الآخرين. إنه لون البدايات والنهايات، لون التحوّلات العميقة، وإن لم نتحسسه بأيدينا، فإننا نشعر به في أعماقنا، في سكون أرواحنا، حين تهدأ النفوس وتطمئن.

بصراحة، لم أتحسس مفاتن جمالي إلا من خلال عيون زميلاتي، ومن خلال نظرات زوجي العزيز. ذات مرة، قالت لي أميمة، وهي تحدّق في وجهي بنظرةٍ فيها شيء من الدهشة:..

- جنان، وجهكِ لا يُشبه أحدًا، فيه شيءٌ لا يُوصف، كأنكِ خُلقتِ من نورٍ وسوادٍ في آنٍ واحد، كأنّكِ قصيدةٌ لم تُكتب بعد. بأن لك شعر فاحم وسرح كشعر فتيات الكوريات، على الرغم من أني ذات بشرة سمراء وأفريقية المنبع إلا أن شعري مجعد وأقل حلكة من لون شعرك، فلون شعرك أدهم، فاحم، كمرآة عاكسة يعكس إضاءة لون بشرتك، فتبدين متوهجة وأقرب إلى النور من كل جميلة.

لقد فعل هذا الإطراء فعله، جعلني أنغر بجمالي وأحمد الله على حسن مفاتني، جعلتني أتحسس ملامح وجهي في المرآة لأكتشف حجم التناسق بين مفاتني وابتسامتي وصدفية أسناني، على الرغم من أني كنت مغرمة بفتنة أميمة ولون بشرتها وتناسق ملامحها، لأكتشف من خلالها حقيقة مشاعر زوجي نحوي، الذي دائما ما يغرق بموج عيوني وانسياب سواد شعري، فأذهب إلى لقائه عبر خيال عام، يسافر بي عبر بساط الريح إلى حيث مهجه، فأهجس بذاتي مغشية، مرحه، لطيفة، حينها اهجس بذاتي طائرة من ورق، فرحة في ميدان عشقه.

هذه الحقيقة تجعلني أنصف مشاعر زوجي اتجاهي، تجعلني أصنفه مع محبي اللون الأسود من اللذين يرتدونه باستمرار، ويستخدمونه في أشيائهم الخاصة كالسيارة والهاتف والساعة والقلم وغيرها من الأشياء المهمة لهم، كلها سوداء اللون. هؤلاء الأشخاص يحظون بمكانة عالية في المجتمع، ولهم كرزمة وهيبة بين الناس وإرادة قوية.

اللون الأسود لون كبرياء، وحسب رأيي هؤلاء بشكل عام هم لا يتبعون من حولهم، بل أنهم يمتلكون فلسفة خاصة ولهم مفاهيمهم التي يتبعونها في الحياة، وأظنهم أكثر الذين يسيطرون على سلوكياتهم في المواقف المحرجة، ولن يسمحوا لأحد بالتدخل في أمورهم الشخصية، مكتفون بكل ما يشغلهم ويخصهم، هذه الصفات هي جزء من صفاتي ايضا، فأنا اتوافق مع زوجي بكل شيء إلا بقزحية العين.

مـن يمتلـك تلـك الكاريزمـا الفريـدة، غالبـاً مـا يكـون متمـرداً علـى العـادات والتقاليـد والمعتقـدات السـائدة، لكنـه لا يفعـل ذلـك بانـدفاع، بـل بعقلانيـة متزنـة. لـذلك أجـد زوجـي أحمـد مـن أقـل النـاس تطرفـاً فـي سـلوكه، وأكثـرهم اسـتقامة فـي غاياتـه، ولهـذا عشـقته. هـو لا يلهـث خلـف المظـاهر، بـل يسـير بخطـى ثابتـة نحـو مـا يـؤمن بـه، دون أن يساوم على مبادئه.

لا أدري إن كـان كـل محبـي اللـون الأسـود يتميـزون بالكفـاءة والجديـة، أم أن زوجـي وحـده مـن جعلنـي أربـط هـذا اللـون بتلـك الصـفات. فهـو دقيـق إلـى حـد مـذهل، يهـتم بـأدق التفاصـيل، لا ينسـى مـا لـه ومـا عليـه، وكـأن ذاكرتـه مـرآة تعكـس كـل صـغيرة وكبيرة في حياته.

مـا يلفـت نظـري أن السياسـيين والشـرفاء، قاطبـة، مـن رواد اللـون الأسـود. ربمـا لأنـه يبـرز المظهـر الجـاد، الـدال علـى الانضـباط التـام وقلـة المرونـة، وهـي صـفات تميـز القـادة والمـدراء. الأسـود لـون الحسـم، لـون مـن يملـك القـدرة علـى اتخـاذ قـرارات قويـة دون تـردد أو رجـوع، وهـو مـا يـؤهلهم ليكونـوا فرسـاناً نـاجحين وقـادة في مجتمعاتهم.

وقـد يكـون الشـخص المحـب للـون الأسـود انطوائيـاً، مثلـي أنـا أو مثـل زوجـي، خاصـة فـي بيئـة العمـل، حيـث نـادراً مـا يمـازح أحـداً أو يجامـل أحـد. لا يحـب الاخـتلاط كثيـراً، ربمـا لأنـه يفكـر بعمـق فـي أمـور الحيـاة، أو لأنـه يتميـز بثقـة عاليـة بـالنفس، ويمـنح الأشـياء قيمتهـا الحقيقيـة. لهـذا يتحسـس الفـارق بـين تفكيـره وتفكيـر

الآخرين، رجالاً كانوا أم نساء. وهذا ما يجعل سلوك زوجي مختلفاً عن سلوك بعض زملائه في العمل.

ومع كل ذلك، أشعر بأن جنيني سيختار قزحية زوجي، وربما يختار أنفي وفمي أيضاً، لأنه طفل يحب الألوان. أحياناً أشعر بأنه أذكى مما أتصور، سيفرض عقله على عاطفته، وسيختار قزحية عيني، لأني الأقرب إليه، أنا أمه، أمّه التي تهجس به وتنتظره بشغف.

يا جنان، لا تجادلي كثيراً، سيختار صفاتك لأنك أمه.

في تلك اللحظة، داهمتها إشارة منه، شعرت بطيفه يدور حولها، يقترب منها، بعد أن نظرت إلى شريط الاختبار... إنه هو، إنه قادم. دائماً ما تكون زياراته مفاجئة، يأتيها بين فترات الغفوة والنسيان والقلق. يا ترى، ماذا يحمل في جعبته؟ ماذا يود أن يخبرني؟

سمعت همساً يطرق أذنيها:...

- ماما...
- عيون ماما، كيف تستطيع أن تدخل عالمي؟ من أي الأبواب تدخل؟
- هههههههه، إنها أسرار المهنة، لا ينبغي أن أفشيها...
- حتى لي أنا، ماما التي تحبك؟

- حتى لماما، لو أفشيت لك السر، ستغلق الأبواب، ولن تسمعينني مرة أخرى، حتى يوم ولادتي. ثم إنك نسيتِ أن هواجسنا مرتبطة ببعض...
- لا، لم أنسَ، ولا تفشي السر. دعك من ترهاتي، ابقَ معي، أنا أكون سعيدة بطلتك.
- وأنا أكون سعيد حين أزورك، لأرى اهتمامك بي وسعادتك بي.
- ها، قل لي ما وراءك؟
- كبرت قليلاً، صار طولي قرابة ستة سنتيمترات. هل تخيلتِ كم طول رجلي؟ كم طول ذراعي؟ كم حجم رأسي؟ وكم حجم عيني؟ هههههههه، لازلت نقطة كما تصفيني، صغير جداً، أهجس بأطرافي كخيوط العنكبوت، ورأسي كنقطة في رأس السطر، وفمي يكاد لا يُرى بالعين المجردة لحدته. أكيد تضحكين عليّ، هههههه...
- يا حبيبي، تخيلتك أكبر من ذلك بقليل. ترى، ما لون عينيك؟ سوداوان أم زرقاوان؟
- لاااااااا، لم تتشكل فيها الصبغة بعد. وددت أن أخبرك أني تطورت من مرحلة النطفة إلى العلقة، وأنا الآن مثبت بالرحم بشكل جيد، مع المشيمة. وأنا في طور التحول إلى مضغة...
- ما هي المشيمة؟
- هههههه، أتمازحينني؟ إنها أمي الثانية داخل الرحم، تمتص المواد الغذائية من دمك وتحولها إليّ على شكل

طاقة لأكبر. إنها أشبه بأكياس المغذي التي تُعلّق للمريض في المشافي.

- من أين لك أن تعرف ذلك؟ كيف علمت بأكياس المغذي؟
- ترينني أذكى منك ومن أبي، فمخي نموذج من مخيكما، وهواجسي من هواجسكما. أستطيع أن أرى ما في مخيلاتكم، وأقرأ خواطركم طالما هناك إيحاء يربط بيني وبينك. لذا تجدينني أستطيع أن أخبرك بما تفكرين فيه.
- أنت حيرتني... بماذا أفكر؟ هيا، أخبرني.
- أشعر بوحدتك، وأشعر بفراق أبي عنك، ولكنها حالة طارئة، وليس بمقدور أبي أن يتجاوز أزمته الآن. اصبري قليلاً، ستفرج الأمور قريباً...
- حبيبي، شكراً لك وعلى ذكائك...
- هيا، سأعود إلى عالمي، وعليك الاهتمام بتغذيتك لأكبر بشكل سليم.
- وهو كذلك... مع السلامة.

بعد اختفائه، تجذبها إخفاقة نحو سرحان يطوف بها في تفاصيل الحياة القادمة، يرميها في صرة التفكير المتقلب والمتجدد، يشغلها بماضيها وحاضرها، لتتذكر شيئاً من طفولتها، ورحلتها خلال الحياة، وبالذات تهجس بشوق لفترات الدراسة التي تركت في ذاتها الكثير من الذكريات الحلوة، والصديقات اللواتي انقطعت عنهن بعد الزواج. كما تتذكر حرشة بعض الطلاب بها، ربما وجدوا التميز الذي تمتاز به عن صديقاتها

مـــن كمـــال واســـتقامة وقـــوام رشـــيق. حنـــت لتلـــك الســـاعات، وأشعرتها بالتباهي.

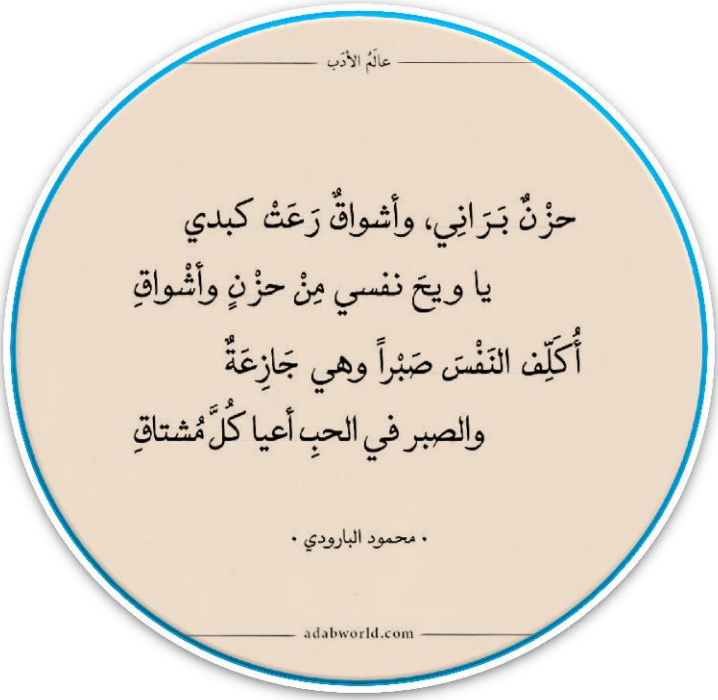

10- شباط /2021
الوحام وزيارة أحمد

مع تقدم الحمل كبر بطن جنان، حتى شكت بأنها تحمل توأم، بدأت جنان تدخل في مرحلة الحسابات والقلق المستمر، مضى معها ذلك حتى فترة الترقب قبل الشهر الأخير من الحمل. أنها طبيعة البشر، وخاصة إذا كان ذلك الحمل هو أول تجربة للمرأة، أول معركة تخوضها بإرادتها ودون إرادتها، مجبرة على تحمل منغصاته. أنها الأم، المرأة، الإنسانة، العاطفة، ألم يذكر سبحانه وتعالى " الجنة تحت أقدام الأمهات" وذلك لما تعانيه وتتحمل خلال فترة الحمل والولادة والتربية من آلام ومعاناة، أنه المخاض والخلق الذي تشترك به المرأة كمحور رئيسي.

بعد أن تتم فترة الحمل دورتها؛ تشعر المرأة بأنها أنجزت واجبا إلاهيا كلفت به، تشعر حيال ذاتها بفخر وسؤدد. كما أن الحمل يعطيها دافع أمان للمستقبل، يشعرها بأنها ليست وحيدة في هذا الكون، ليست ملك نفسها، بل أن هناك من يشاركها حياتها وأهوائها وشعورها، احساسها يأخذها إلى الاهتمام بذاتها وترييث أمورها وعملها الخاص، لتساعد ذاتها وجنينها على تكملة مشوار الحمل، لأنها ستهتم بخلق قادم من باطن روحها، روح جديدة تكن بمثابة ظلها، صديقا لها، لن تفارق تلك الروح ولن تفارقها بذاتها ايضا، لذا ستعتني بها وبذاتها قدر المستطاع. بإنجازها تكون قد أنجزت الأمر المطلوب منها

إلهيا، أي أنها أدركت الهدف الذي خلقت من أجله إلى جانب الإيمان والعبادة والتوحيد.

بعد أن يقضي الجنين البشري من العمر ستة أسابيع ونصف، يتغير شكله داخل الرحم، حينها يبلغ طوله حوالي 2,5سم ويزن حوالي 0,1 جم. كما يبدأ امتصاص الغذاء، والأكسجين، والماء، من نسيج الأم عبر المشيمة. تتدفق هذه المواد للجنين من خلال الحبل السُّري كما اشرنا، والذي يعتبر عصب الحياة، وأيضا من خلاله يتخلص الجنين من الفضلات.

في هذا الأسبوع تبرز ملامح الجنين بالطفح والبروز بشكلٍ بسيط؛ حيث تنبثق فتحتَي الأنف، ونتوء الأُذنَين، وتنبلج نقطتين سوداويتين مكان العينَين، ثم تبدأ الأطراف بالانفصال عن جسم الجنين، فتبدو مماثلةً لمنظر المجدافين.

هكذا يتطور نمو الجنين مع اهتمام الأم بصحتها وتغذيتها، ففي الأسبوع السابع والثامن يتّضح قلب الجنين ونبضه؛ إذ يمكن قياس النّبض بجهاز الموجات فوق الصوتيّة الأبيكو أو السونار كما يسمى، وتبدأ الدّورة الدمويّة عملها بانتظامٍ، ويستمرّ نموّ الأعضاء الدّاخليّة مع تطوُّر وظائفها الفسيولوجيّة، مثل: الكليتَين، والكبد، والدّماغ. كما تتضح ملامح الأطراف بشكلٍ أوضح، تتهيَّأ الأصابع للبروز، تبدأ العظام بالتكوُّن. في هذه الفترة لا يبدو جسد الطّفل مُتناسِقاً؛ حيث يكون حجم رأسه أكبر من جسده، إلّا أنّه بالرّغم من ذلك يظهر بصورة إنسانٍ صحيح

الهيئة. اهتمت وعرفت تلك التفاصيل لتشعر بأهمية الحفاظ على توازنها.

مع انقضاء الأسبوع الثامن تكون جنان قد قضت فترة ثلاثة أشهر وعشرة أيام تقريبا في كامب شنيبر وهي مستمرة في جمع معلومات الحمل من مصادر عدة، لتنم بمراحل نمو الجنين، تستقي معلوماتها عن طريق طبيبتها وتصفحها مواقع الانترنت التي تعتني بشؤن المرأة الحاملة ومن قبل النساء ذوات الخبرة كأم هنادي وامها والمرأة البوسنية وما تتصفح من مجلات نسائية.....الخ. كما تعتبر هذه فترة طويلة جدا على المرأة الحامل وهي تعيش معزولة بمفردها في غرفة كئيبة تخلوا من كل مستلزمات الراحة، غرفة لا تحتوي سوى على سرير متهالك، وفرشة مستعملة، ودولاب لا يسع قطعتي من ملابسها وزوج أحذية فقط، أرضية الغرفة غير مفروشة بسجادة تقئها برد ذلك الشتاء المذل. هذه هي كل ممتلكاتها، أنها تعيش عيشة القرون الوسطى أو الشحاتين المترنحين في الطرق، تفتقد ميزة التملك والحرية والعمل، مسلوبة الإرادة والشخصية، تفتقد العشرة والمحبة والحنين والطمأنينة والراحة النفسية، تلك ما تحتاجه في غرفتها وغربتها وبداية حملها... ذلك ما كان يقلقها وينغص حياتها طوال فترة مكوثها في كامب شنيبر.

فعلا أنها فترة حرجة وخطرة على حياة الجنين، فترة تحتاج بها لمهارة ومعرفة مسبقة بكل حيثيات الحالة ومراعات صبرها، كما هي بحاجة لشريك حياتها أن يسندها ويبادلها الألفة التي

هي في أمس الحاجة لها لتنعيم الظرف، المرأة الحامل بحاجة إلى الدعابة والملاطفة والحنية، إلى حالة نفسية مستقرة، إلى رعاية خاصة من قبل الزوج والأهل.

كما أنها لا تستطيع الاعتماد على نفسها في إدارة شؤونها وتوفير مستلزمات حياتها في وحدتها، في الوقت الذي به الكل يكون منشغل بنفسه؛ لتشابه ظرف النزلاء، لضعف الترابط الاجتماعي بين المهاجرين من جهة، إذا ما أخذنا اختلاف أجناسهم وجناسيهم وغاياتهم ولغاتهم وطباعهم في عين الاعتبار... كل هؤلاء جمعتهم الصدفة تحت ظروف متشابهة آنية، لم يخططوا لها، مع أن الغالبية من المهاجرين هم من عرب أفريقيا.

إذا من يعينها في شؤونها؟ من يساعدها في الترتيب والتنظيف وحمل الأشياء وتوفير الغذاء لها؟ كل تلك الأمور هي عاجزة على تلبيتها بذاتها، كونها في معظم الأحيان تكون مصدوعة، متعبة، مرهقة، مشغولة بذاتها وبحالتها النفسية، حيث تنسلت الأوقات من بين أصابع يديها كالماء، أو تخسرها مغصوبة بسبب عجزها النفسي والجسدي.

إضافة إلى حالة الغثيان التي تتعرض له والوحم الذي يداهمها ويعيق ثباتها ويقوض صحتها ويربك ذاتها ويزعجها. حيث تلازم فترة الحامل حالة القيئ والغثيان خلال فترة الأشهر الثلاثة الأولى بشكل عام، وذلك أيضا يعتمد على طبيعة جسد المرأة ومقاومتها التغيرات الفسيولوجية.

فـي الحقيقـة هـي كانـت محظوظـة بتعرفهـا علـى هنـادي وأميمـة اللاتـي لـم يتوانيـا فـي مسـاعدتها قـط، كـنَّ سـاعدها الايمـن وتحـت طلبهـا فـي تـذليل الصـعاب بالإعانـة والمسـاعدة. يغسـلنَّ ملابسـها، يـنظفنَّ غرفتهـا، يـرتبنَّ فرشـتها وأشـيائها، يحملـنَّ عنهـا حاجاتهـا، يجلـبنَّ لهـا غـذائها، يسـلينها، يجـتمعنّ معهـا فـي غرفتهـا، يتسـمرنَّ معـا، يصـاحبنَّها فـي مشـاويرها، فـ يـزحنّ همومهـا وشـجنها قـدر المستطاع. كنِّ لها نعم الصديقات الوفيات.

هـذا مـا سـهل عليهـا وضـعها وهـدأ خاطرهـا وخفـف مـن قلقهـا، هـذا مـا جعلهـا تحتمـل همـوم المكـان وفـراق الـزوج والأهـل، حيـث فـي وحـدتها تهجـس بحالهـا لا يختلـف عـن حـال الكرسـي والسـرير مـن ناحيـة القيمـة والاهتمـام، مرميـة فـي غرفـة مـن الكامـب دون سـند وونـيس. مـع تطـور حالـة الحمـل وتفـاقم عقـده ومشـاكله؛ رحلـت هنـادي مـن الكامـب لمقـر سـكناها الجديـد؛ بـذهابها قـد خسـرت أحـدى مسـاند غربتهـا، غيابهـا عكـر مزاجهـا، جزلـت شـغفها بالحيـاة. شـغلتها بالوحـدة اطـول فتـرة ممـا تعـودت عليهـا، تهجـس بـذاتها مغشـية لـولا الـروح التـي تتحـرك بـداخلها. هـذا مـا وصـلت لـه مـع طـول فتـرة الانتظـار وتأمـل الفـرج مـع دخولهـا الشهر الرابع وهي قابعة في الكامب.

علـى الـرغم مـن أنهـا كانـت تهـاتف زوجهـا كـل يـوم مـرة إلـى مـرتين علـى الأقـل، وخاصـة فـي الفتـرة التـي تكـون بهـا منعزلـة عـن محيطهـا، أو قبـل فتـرة الرقـاد؛ ألا أن ذلـك لا يعـوض وجـوده فـي عالمهـا، ثـم أنهـا فـي كـل مـرة تُجهـد ذاتهـا حتـى تـتمكن مـن

الاتصال به لضعف الأنترنت الذي تعاني منه تلك البقعة النائية من الدولة، لقربها من حدود دولة الجيك...

في الحقيقة كان زوجها هو الآخر يمر بذات الظرف من هم وفراق ووحشة يعاني من هاجس الوحدة بين منغصات العمل في المطعم وذكريات الزوجة الحبيبة، لذا كان يجهد بتفريغ نفسه من العمل، ليمر عليها كل يوم أحد بعد الساعة العاشرة صباحا ليأخذها في جولة ترفيهية بسيارته في المناطق القريبة من الكامب، ثم يأخذها لمطعم عربي كائن افي وسط مدينة آوى القريبة من مدينة شنيبر لتستطعم بأكلة تنسيها أكل الكامب. هناك يجلسان على إطلالة صغيرة برفقة مجرى نهر صغير يقطع المدينة من منتصفها، يمر بين الأودية، إطلالة خضراء تخترق مدينة آوى إلى جانب غابات صنوبرية واشجار الصفصاف مترامية الأطراف، والتي دائما ما تكون تلك الحدائق زاهية بأنواع الورود في موسم الربيع... فرصة يبادلها الشعور، يداعبها ويغازلها، فيزج فيها روح جديدة ويزيح عن كاهلها هالة القلق والوحدة، يجلسان في مقهى جانبية تطل على روضة ساحرة إلى جانب النهر المنساب قرب الجسر، يذكرها بشوقه ولهفته ومحبته وإخلاصه وسعادته بوجودها في حياته. يقضي معها سويعات ثم يعيدها قبل فترة الغروب للكامب بعد تطهيرها من هوس الهموم والعقد، قبل أن تنزوي الشمس خلف الأفق. حيث الشمس تذوي خلف الجليد بعد الساعة الثالثة عصرا خلال أيام الشتاء. حيث سريعا ما يغشي الغسق الأفق برماد دهمة، تجبرهم على ترك المكان مع شدة لسعة البرد..

هكـذا كـان يتحفهـا بشـحنة تجديـد الطاقـة، ثـم يعيـدها للكامـب مسـاء، خوفـا عليهـا مـن الإجهـاد النفسـي والبـدني ومـن لسـعة البـرد التـي لا تـرحم، وبـذلك يخفـف عليهـا عنـاء الوحـدة، كمـا يخفـف علـى ذاتـه عنـاء الفـراق والعـودة لمقـره فـي مدينـة لايبـزك حيـث يعـود بعـد أن يطمـأن عليهـا ويشـعرها باهتمامـه بهـا؛ حتـى تفـرج دائرة الهجرة عن أمرها.

حينها قالت لزوجها وهما جالسان في المقهى:.....

- اتعلم يا أحمد أني اصبحت خبيرة بالحمل؟
- كيف يا حبيبتي؟
- اقلـك، اكـاد لا أنفـك عـن تصـفح مواقـع النـت، أبحـث فيهـا عـن مراحـل تكـوين الجنـين وطريقـة تعامـل الحامـل مـع فتـرات الحمـل، واسـتمع لخبـرات النسـاء ممـن تعرفـت عليهن في الكامب.
- جميل جدا، هذا يجنبك مصاعب الكامب وعقده.
- فعـلا، الآن أصـبح عمـر صـفاء قرابـة أثنتـا عشـرة اسـبوع إلـى حسـب تقـديرات طبيبتـي. أي الان قـد بـرزت للجنـين اصـابع اليـدين والقـدمين بشـكل واضـح. كمـا يكـون قـد أكتمـل القلـب والكبـد والكليتـين والـدماغ مـع أداء وظائفهـا الفسـيولوجيّة أداءً كـاملاً، كمـا يكـون قـد بـرز شـكل الجبـين ومسـتواه وحـددت ملامحـه فـي الـرأس، غيـر أنـه يحتـاج ليكتمـل نمـوه الفعلـي فتـرة سـتة أشـهر بالتمـام والكمـال داخل الرحم.

- يا حبيبتي أنا سعيد جدا أن أسمع ذلك منكِ، هذا يساعدك على الاهتمام بنفسك وبالجنين معا، أنا انتظر قدومه بشغف، أتمناه أن يحمل أوصافك وملامحكِ. يا ترى؛...الآن هل يستطيع أن يلعب الكرة ؟ هههههههه.
- يوم المنى أراه أمامي، إذا عليك أن تعتني بي أكثر، لا تبخل علي بالاتصال بي في كل ليلة، صحيح الخط ضعيف في الكامب ولكن أني بحاجة لوجودك إلى جانبي، كي تكون حالتي النفسية مستقرة، وكي ترى أبنك يلعب الكرة كما تتمنى.
- وهو كذلك، أنت في ذاكرتي وبين عيوني.

سجلت كل الأحداث في مذكرتها، ذلك يجعلها أكثر حرصا وحذرا في تعاملاتها وحركاتها، خاصة الفترة الأولى من الحمل تكون حرجة جدا، لضعف ثبوت الجنين في سقف الرحم....

في كثير من الأحيان تنسى المرأة حملها، فتقوم بحركات بهلوانية تؤدي بها إلى النزف أو إلى اسقاط الجنين. لذا حددت تعاملاتها وطلعاتها للأسواق لتتجنب العقد، أضحت لن تخرج من غرفتها دون مرافق قط.

في هذه الفترة أي فترة الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل كانت تحرج زوجها بسبب منغصات الوحدة التي تعتريها بين فترات متقطعة وأحيانا تلازمها وتسبب لها مضايقات نفسية، ذلك بسبب التغير الهرموني الحاصل في جسدها.... لذا تجدها تشتهي بعض الأكلات وتنفر من أخرى وخاصة الزنخة منها

وهي ما تسمى بالتنسي أو الوحم. في تلك الفترة الحرجة من الشتاء كانت قد طلبت من زوجها أن يوفر لها الرقي (البطيخ الأخضر) والذي هو من الخضار الصيفية... حاول جاهدا أن يعثر على الرقي المستورد دون أن يفلح؛ وخاصة أنها تعيش في ألمانيا التي نادرا ما تزرع فيها تلك المحاصيل، والتي جذورها تنتمي لمنطقة الشرق الأوسط. وعندما زارها زوجها في الكامب سألها:....

- يا جنان هل لديك خروفا تربينه في الكامب؟
- هههههه اليوم أجدك مرحا، تنكت!، ها ماذا ورائك وماذا تقصد؟
- الم تتوحمي على الرقي؟
- وما علاقة الرقي بالخروف؟
- كيف لا علاقة، أنسيتِ؟ هههههههههه. اسمعي إذا... كان هناك رجلا بخيلا جدا يشبهك بالصفات، هههههه.
- هههههههههههه، لو كنت كريما لما حظيت بي، لتزوجت غريبة عنك، لكنك تزوجتني كي لا تصرف كثيرا من نقودك. لأنني أبنة عمتك سأتحمل بخلك. هههه.
- امزح معك ولن أبدلك بكل المانيا. على كلٍ أراد هذا الرجل أن يتغدى ويتعشى هو وخروفه بنصف دينار، وأرد أيضا أن يسلي نفسه خلال سهره الليل بذلك المبلغ، ذهب إلى رفيقه البخيل يستجدي منه النصح، كيف يتمكن من أن يداري نفسه ويومه بنصف دينار؟ قال له رفيقه الذي يبدو أكثر فطنة:...

اشتري به رقي (البطيخ الأخضر) وقرص خبز، فمنها تتغدى وتتعشى ومن قشورها تغذي خروفك الجائع، وفي ليلك تسلي نفسك بحبه معي. هههههههههههه.

أحمرت وجنتاها وعينيها من الغضب، ردت عليه بعصبية:...

- الآن أخبرني من البخيل أنا أم أنت؟ أنت الذي لم تجلب لي الرقي لغلاء ثمنه، ام أنا الذي ضاق بي الصبر؟ هههههههه.
- جلبت لك صورته يا عزيزتي، فلو كان يتكلم لسجلت لك صوته. هههههههههه، ها نحن في فصل الشتاء، وهذا ليس موسمه، مع أني جاهدت بالبحث عنه في الأسواق دون جدوى...
- لا ادري يا أحمد لم نفسي تشتهيه دون غيره، أهجس بذاتي لو أمامي عجلة رقي؛ لانقضضت عليها انقضاض اللبوة على الفريسة. أكاد أشم رائحتها بأنفي.
- سأشتري لك حَبُ الرقي، سلي به ذاتك في الليل، أو أشتري حب عين الشمس، أنه جيد لطرد الوساوس من رأسك. هههههههههه.
- انا في حالة نفسية متعبة وأنت تضحك عليَّ، لو كان الامر بالعكس، أي لو الرجل يحمل بدل المرأة لتحسست ما يعتريني. شكرا على تقديرك.
- حبيبتي لا شكر على الواجب أنا أحاول أن أجنبك الكآبة والعقد قدر الامكان.
- إذا زدتها بدل أن تنقصها.....

في صباح يوم التالي من يوم الأثنين في أول اسبوع من شهر آذار وجدت أسمها ضمن قائمة المرحلين الجدد بعد أن أفرزتهم دائرة الهجرة حسب جداولها والأماكن المتاحة لديها، وحسب العرف يتم نقل النزلاء خلال يومي الأربعاء والخميس من كل أسبوع، وكانت قد وجدت إلى جانب أسمها أسم أميمة في ذات القائمة. بذلك سعدن كثيرا واشرقت وجوههن بفرحة لا تسعهما النفس، أخيرا تحررن من سجن شنيبر.

اتصلت بزوجها لتخبره وتفرحه، كي يحضر بسيارته يوم الخميس ليأخذها من الكامب إلى مكانها الجديد في لايبزك. كما صرن يجمعن حاجاتهن في حقائبهن ليجهزن انفسهن ليوم النقلة بحبور وسرور خلال الايام التالية.

على أية حال كانت قد قضت فترة ثلاثة أشهر ونصف تقريبا وهي تعاني من كامب شنيبر، خلالها تعرفت على الكثير من الوجوه ولاقت الكثير من المضايقات من قبل العزاب في طريقها إلى المطعم أو في الأسواق، سمعت بأذنها بعض كلمات التحرش من إطراء ووصف ومدح لفتنتها وجمالها، حيث جنان طويلة القامة قياسا للنساء، فهي بطول 175 سم، بذلك تتميز بين النساء، رغم ارتدائها العباءة والخمار فلم تفلت من ألسن الشباب ونظراتهم. ذلك ما جعل الشباب يحاولون معرفة ما خفي من اسرار وألق خلف ذلك النقاب.

إذا ظهرت أخيرا قائمة النقل التي تأخرت كثيرا من وجهتها. بان أسمها ضمن عشرة اسماء مرحلة، كل حسب وجهته ورغبته لتنفك عن تلك المضايقات التي أزعجتها. استعدت

وأميمــة ليــوم الرحيــل لتكــون بجــوار زوجهــا، الصــدفة جمعتهــا بأميمــة فــي قائمــة نقــل واحــدة، ذلــك مــا خفــف علــيهن ســاعة الفــراق، بعد عشرة صحبة جميلة...

11- المغادرة إلى لايبزك

وأخيرًا، انفرجت أزمتها. بدأت جنان تجمع أشيائها في حقيبتها استعدادًا للرحيل عن الكامب، بعدما أعلنت الإدارة، المستندة إلى معلوماتها من دائرة الهجرة عن نقلها إلى مدينة "لا يبزك". أربعة أشهر قضتها في الكامب المنبوذ، المعروف بكامب التصفية، كانت كافية لتترك أثرًا بالغًا في نفسها، رغم أنها أقل من المدة التي قضتها أميمة، والتي بلغت ستة أشهر كاملة. لكن الحمل وما رافقه من إحراجات ومنغصات وتوقعات وصعوبات وكونها عروس، جعل من تلك الأشهر الأربعة أثقل وأقسى من أربعة سنوات بلا حمل.

تبادلت جنان هذا الإحساس مع رفيقتها أميمة، وهما يتمازحان ويتناقشان حول الغد ومصيرهما، بينما تجمعان أشيائهما استعدادًا للرحيل. بذلك تكون جنان قد تجاوزت المئة يوم من الحمل، قضتها كاملة في ذلك السجن الرمزي.

أميمة، التي ضبت أغراض جنان الشخصية، جمعت لها ما تيسر من ملابس، مستلزمات المكياج، أدوية، وبعض المشتريات من الأسواق القريبة: بلوزة، سترة، حذاء، نعل، كريمات، شامبو... كلها وضعتها في حقيبة متوسطة الحجم.

وخلال تجهيز الحقيبة، قالت أميمة:..

- أخبريني قبل الولادة، لأكون إلى جانبك في أوقات الشدة. أود أن أستقبل ولي العهد الذي أتعبنا.

- شكرًا لكِ يا حبيبتي، لا أعرف حقيقة الظرف. ربما صفاء يستعجل القدوم. سأخبرك بعد الولادة لتأتي وتسلمي على ضيفي العزيز. خلال الولادة سأكون محاطة بفريق من المحبين من أهلي وأهل زوجي، وسأكون تحت رحمة القدر، ولن أستطيع خدمتك أو مجالستك كما ينبغي.
- أنا من تتمنى خدمتك، وأشد من أزرك. أهجس بكِ يا أختي العزيزة تعودتُ عليكِ، فالفُرقة صعبة.
- صدقيني، ستشعرين بالوحدة بدوني، وسأكون منشغلة البال بكِ وأنا متعبة. أنتِ غالية على قلبي، ولن أسمح لنفسي أن أقصر تجاهك. لقد عنيتِ لي الكثير هنا، وكنتِ نعم الأخت.
- إذاً، طمئنيني عن صحتك باستمرار، ودعي صداقتنا تدوم إلى الأبد.
- أعدك بذلك، لن أتخلى عنكن، أنتِ وهنادي قط.

وقبل أن تغادر الكامب، تسامرَت الصديقتان تلك الليلة، يغشين أنفسهن بأحلام الرحلة المجهولة التي ستقلهن عجلات الهجرة إلى أماكنهم جديدة. الرحلة كانت مجهولة لأميمة، إذ أن دائرة الهجرة تنقل الأفراد حسب مصلحتها وحاجة المناطق للمهاجرين. أما جنان، فكانت متيقنة أنها ستُوضع في محل إقامة زوجها، مراعاةً لحملها، رغم أن زواجها غير مدوّن في سجلات الدولة أو دائرة الهجرة، لعدم امتلاكها أوراقًا ثبوتية أو إقامة رسمية يثبتون بها زواجهم في محاكم المانيا.

بعد منتصف الليل، خلدت كل منهن إلى سريرها، تحلم بالغد المشرق، بفكر مشوش. وقبل أن يغشى الرقاد أجفان جنان، زارها طيف جنينها للمرة الأخيرة، يخاطبها بروحه المرحة:...

- ماما...
- روح ماما، أين أنت؟
- أنا قربك، أطوف في شبكة عيونك، ألا ترينني؟
- لا، لكني أهجس بنور كنور الشمس يسطو على فكري.
- هو ذاك أنا.
- كيف حالك؟ أخبرني عن نفسك، ما الجديد؟
- أنا الآن في طور التكوين. عظامي تتصلب، براعم أسناني تتحدد تحت اللثة، وأصابعي بدأت تبرز وتنفصل.
- عظيم! وماذا عن جهازك التنفسي؟
- بدأت أتنفس بواسطة السائل الأمينوسي، واكتملت كليتاي، وجسدي يطرح الفضلات عبر السرة.
- ومن أين جئت بهذا الاسم؟
- ألستم أنتم من وضع هذه الأسماء المعقدة؟
- هههههه، فعلاً نحن، أقصد العلماء المجانين. وهل تسمع الآن؟ هل اكتمل جهاز السمع لديك؟
- الأذن بدأت تتكور وشبه مكتملة، والحبال الصوتية تتشكل، ولدي قدرة عضلية بسيطة على البلع. لا زلت صغيرًا، بطول بضع سنتيمترات.
- حبيبي، إذاً كل شيء فيك الآن مكتمل. سأعتني بك كثيرًا حتى تأتيني بصحة جيدة.

- شـكرًا مامـا. جئـت أزورك للمـرة الأخيـرة، معاناتـك ستنتهي غدًا، لذا انتظريني بعد الولادة.
- وكيف عرفت؟
- أليسـت مشـاعري مرتبطـة بمشـاعرك؟ أنسـيتِ أننـي جـزء منـك؟ أزورك لأبعـد عنـك شـبح الوحـدة والكسـل. وعنـدما تكـونين بحضـرة والـدي، سـيطمئن قلبـي عليـكِ، لـذا لـن أحضر مرة أخرى حتى يوم الولادة.
- أريدك أن تطل عليّ باستمرار.
- الأمـر خـارج عـن إرادتـي. إنهـا العلاقـة الفسـيولوجية بـين روحـي وروحـك. أرجـو أن تعتنـي بنفسـك جيـدًا. مـع السلامة.
- مع السلامة، حبيبي.

بقيـت جنـان فـي وحـدتها، تفكـر فـي جنينهـا الـذي أخبرهـا عـن زيارتـه الأخيـرة. ستشـتاق إليـه. إنهـا فتـرة طويلـة، تتجـاوز خمسـة أشـهر حتـى تلتقيـه. بقيـت كلماتـه تـدور فـي فلـك ذهنهـا، حتـى أغشاها الكرى، لتذهب أسيرة سباته...

ياه... كم هو الغد قريب، وكم هو مجهول.

أيّ طيـفٍ هـذا الـذي زارنـي؟ أيّ طيـفٍ ذاك الـذي جعلنـي أستشـعر كـلّ مـا يحـيط بـي؟ هـل كـان فعـلًا طيـف وليـدي؟ أم أنهـا مجـرد تكهنـات خياليـة تخطرنـي؟ أم همسـة ذاكـرة خلجـت فـي بـالي؟ لا أدري، لا أملـك يقينًـا إن كـان حقيقـة أم خيـالًا، أم هوسًـا يراودنـي فـي لحظـات الشـدة والانفـراد. إنهـا حالـة فسـيولوجية فريـدة، أو

ربما شيء من عصف الجنون يهبّ عليّ حين أكون وحيدة، حين يسكنني الصمت وتغمرني الوحدة.

صارت تخشى أن تبوح لزوجها أو لصديقاتها بما يحدث معها من تخاطرٍ مع جنينها، خشية أن يُنسب إليها الجنون أو يُساء فهمها. فلتدعها تعيش الحالة كما تراها، أسيرة الهوس والخيلاء، متشبثةً بذلك الشعور الذي يمنحها تواصلًا عميقًا مع صحة جنينها، وراحة بالها، وانتظام تغذيتها، واهتمامها بذاتها وبطفلها القادم. إنها حالة صحية، وإن بدت غريبة، لكنها تمنحها يقينًا داخليًا بأن كل شيء يسير كما يجب.

في صباح يوم الخميس، وفي تمام الساعة السابعة، طرق بابها رجل المارتيزر، وأخبرها بأن عليها تجهيز نفسها للرحيل إلى لايبزك خلال ساعة واحدة، حيث ستستقر أخيرًا قرب زوجها. وبعد مرور عشر دقائق على التنبيه، جاءت أميمة لتحمل عنها حقيبتها، متجهتين سويًا إلى بهو المطعم الخاص الذي يبعد قرابة مئتي متر، حيث مكان التجمع قبل المغادرة.

كانت جنان قد أخبرت زوجها مسبقًا بتفاصيل نقلتها، لذا حين وصلت إلى البهو، وجدت سيارته مركونة خلف السياج العازل، قرب البهو. اتجهت إليه متشوقة لرؤيته، ووقفت قربه تغازله عبر السياج الحديدي، رغم شدة البرد. أخبرها بأنه يرغب في نقلها بسيارته إن سُمح له بذلك، غير أن المأمور المكلف بنقل السجلات والمسؤول عن سلامتها رفض ذلك، إذ تقع مسؤولية نقلها على عاتقه حتى نقطة الاستلام الجديدة في

مقر السكن الجديد في لايبزك. فطلب من زوجها أن يرافقهم حتى دائرة الهجرة في المدينة، حيث سيتم الفرز الأخير.

بعد مسير ساعة من الزمن، بالإضافة إلى ساعة أخرى من التأخير بسبب الإجراءات، رافقها زوجها حتى مقر السكن الجديد، أو ما يُعرف بالهايم (سكن مشترك) للمهاجرين، قرب محطة القطار في وسط مدينة لايبزك. وهناك، تم تحويلها إلى سكن النساء. اتفقت مع إدارة الكامب على أن تقيم مع زوجها، على أن تحضر إلى الهايم كل ثلاثة أيام لتسجيل حضورها، وتحديث بياناتها لدى دائرة الهجرة. وبذلك، وفّرت على الهايم سريرها ومصاريفها، ووجدت لنفسها بعض الاستقرار الذي افتقدته طويلًا.

ولو عدنا إلى مراحل الحمل، لوجدناها تنقسم إلى ثلاث مراحل، كل مرحلة تمتد لثلاثة أشهر. المرحلة الأولى هي مرحلة الإخصاب والتكوين، حيث يتحول الجنين من نطفة إلى علقة، وتتم عملية التثبيت في جدار الرحم، والارتباط بالمشيمة. إنها المرحلة الأصعب والأكثر حساسية في حياة الحامل، وقد قضتها جنان في كامب شنيبر السيء الصيت، وسط ظروف قاسية، وفي بيئة لا ترحم. لكنها، رغم كل شيء، تمكنت من اجتياز تلك المرحلة بسلام، مثبتةً جنينها في سقف الرحم، وبانيةً الهيكل العام لطفلها القادم، في تحدٍ صامت للظروف.

أما المرحلة الثانية، فهي مرحلة التحول من الضباب إلى الوضوح، من الغموض إلى البناء والتشخيص والتركيب. في هذه المرحلة، تكتمل أعضاء الجسد الداخلية: الكبد يبدأ بإفراز

العصارة الصفراوية، والطحال يباشر إنتاج كريات الدم الحمراء، والرئتان تتشكلان تدريجيًا. كما تزداد الأطراف قوة وطولًا، ويكتسب الجنين مرونةً ونشاطًا، فتزداد حركته وركلاته، حتى تبدأ الأم بتحسسها، ويبدو الجنين كدمية صغيرة تنبض بالحياة داخلها.

جنان، التي عاشت كل تلك التحولات، لم تكن مجرد حاضنة لجنين، بل كانت شاهدة على معجزة التكوين، ومشاركة في تفاصيلها الدقيقة، بكل ما فيها من ألم وأمل، من وحدةٍ وتواصل، من خوفٍ ورجاء.

بعد أن يقضي الجنين الأسبوع السادس عشر من عمره: يستطيع الطبيب التعرف على نوع جنسه عبر تكنولوجيا الموجات فوق الصّوتيّة الأبيكو (السونار)، أمّا على المستوى التنظيميّ فإنّ الغُدّة الدرقيّة تُصبح قادرةً على إفراز الهرمونات الخاصّة بالتّمثيل الغذائيّ. هذه المرحلة من عمر الجنين تبدأ الأجهزة بالعمل بشكل منتظم من القلب والجهاز الهضمي، كما يزداد حجما وطولا حتى يبلغ وزنه قرابة كيلوغرام، فيما يزداد طوله ليبلغ قرابة شبر.

بعد انقضاء هذه المرحلة يستطيع الجنين العيش خارج الرحم إذا ما داهم الأم أمر طارئ ما، حينها يعتبر من اطفال الخدج الذين يحتاجون لرعاية خاصة حتى يبلغ أشده ويكتمل نموه خلال ما تبقى من التسعة أشهر التي من المفروض أن يقضيها في رحم الأم...

أمـا المرحلـة الأخيـرة مـن الحمـل، فهـي مرحلـة النمـو الحقيقـي للجنـين، حيـث يبـدأ جسـده بالاكتمـال، وتـزداد أعضـاؤه نضـجًا، وتعمـل بكفـاءة كـأي طفـل مكتمـل النمـو. فـي هـذه المرحلـة، يـزداد وزن الجنـين وطولـه بسـرعة ملحوظـة مقارنـة بـالمرحلتين السـابقتين، وقـد يصـل وزنـه إلـى ثلاثـة كيلوغرامـات أو أكثـر مـع اقتـراب موعـد الـولادة. يصـبح الجنـين قـادرًا علـى التفاعـل مـع محيطـه داخـل الـرحم، وتبـدأ حركاتـه بالوضـوح، وتـزداد ركلاتـه قوة، وكأنّه يعلن عن قرب قدومه إلى هذا العالم.

عزيـزي القـارئ، مـا رأيـك بمـا جـرى لجنـان؟ هـل سـتكمل مشـوار رحلـة الحمـل بسـلام؟ هـل سـيعيش الجنـين ويولـد كبـاقي الأطفـال، رغـم مـا عانتـه مـن صـعوبات وعُقـد الكامـب؟ كيـف سـتواجه الظـرف القـادم؟ وكيـف سـتكون علاقتهـا بزوجهـا وبوليـدها المنتظر؟

بعـد أن انتقلـت مـن كامـب شـنيبر، بـدأت جنـان تعـيش حيـاة روتينيـة هادئـة، تتنقـل بـين بيتهـا ومراجعاتهـا الطبيـة، وتسـتغل عطـلات نهايـة الأسـبوع للتنـزه فـي حـدائق لايبـزك الجميلـة، برفقـة زوجهـا الـذي رغـم انشـغاله فـي عملـه، كـان يحـرص علـى أن يكـون معهـا فـي تلـك اللحظـات، يتحسـس حملهـا، ويمنحهـا الـدعم النفسـي الـذي افتقدته في شهور العزلة.

لايبـزك، المدينـة التـي احتضـنتها بعـد رحلـة العنـاء، هـي ثـاني أكبـر مـدن ولايـة ساكسـونيا فـي شـرق ألمانيـا، وتقـع علـى بعـد 150 كيلـومترًا جنـوب بـرلين. تشـتهر بكثـرة المعـارض التجاريـة، وتُعـد إلـى جانـب فرانكفـورت مركـزًا تاريخيًـا لطباعـة الكتـب. تضـم

واحدة من أقدم الجامعات الألمانية، وعددًا من الكليات والمعاهد العليا، وتزخر بالأماكن التاريخية والثقافية، مما يجعلها من أهم المناطق الصناعية والتجارية في شرق البلاد.

في عام 2010، صُنّفت لايبزك كواحدة من 70 مدينة صالحة للعيش في العالم، ووصفتها صحيفة نيويورك تايمز بأنها من بين أفضل عشر مدن يُنصح بزيارتها.

ومن أبرز معالمها:

- قلعة جوليزر: قصر صيفي جميل، يعكس روعة العمارة الألمانية.
- نصب معركة الأمم: شامخ يخلّد ذكرى هزيمة نابليون في معركة عام 1813.
- محطة بافاريا: من أقدم وأكبر محطات السكك الحديدية في العالم.
- قاعة المحكمة الإمبراطورية: مبنى ضخم على طراز عصر النهضة والباروك.
- Bastion Moritz : قلعة من القرن السادس عشر، تمثل آخر ما تبقى من تحصينات المدينة القديمة.
- حديقة الحيوانات: واحدة من أقدم حدائق الحيوان في العالم، تمتد على مساحة تفوق 23 هكتارًا، وتضم أنواعًا نادرة من الحيوانات.

جنـان زارت هـذه الأمـاكن جميعهـا برفقـة زوجهـا، وكانـت تلـك الزيـارات بمثابـة متـنفس لهـا، خففـت عنهـا عنـاء المكـوث فـي البيـت، وقلّصـت مـن شـعور الغربـة، وبـددت بعضًـا مـن مشـقة الحمـل. سـاعدها هـذا التجـوال علـى تجـاوز أزماتهـا الذاتيـة، ومنحهـا استقرارًا نفسيًا جعلها أكثر قدرة على تحمّل ما تبقى من فترة الحمل. كما فيها بحيرة جميلة ونهر هادئ يخترق المدينة ليكن ملجأ للعشاق ولطرد العقد والتفكير السلبي لما فيها من طاقة ايجابية.

أمـا أميمـة، فقـد اسـتقرّت فـي مدينـة **جيـرا**، التـي تبعـد عـن لايبـزك حـوالي عشـرين دقيقـة. فـي جيـرا، يقـع مقـر شـركة أمـازون فـي ألمانيـا الشـرقية، وقـد وجـدت أميمـة فرصـة للعمـل هنـاك كعاملـة مخـزن. ورغـم صـعوبة العمـل فـي ألمانيـا، حيـث يُسـتغل الفـرد حتـى تنفـد طاقتـه، تحملـت أميمـة المشـقة لصـغر سـنها ورغبتهـا بتكـون مسـتقبلها. كانـت أميمـة تحـرص علـى زيـارة جنـان بـين شـهر وآخـر، حسـب الظـروف، لتبقـى علـى صـلة بهـا، وتخفـف عنها وطأة الوحدة.

هكـذا، بـين دفء العلاقـة الزوجيـة، وحنـان الصـداقة، وجمـال المدينـة، بـدأت جنـان تسـتعيد شـيئًا مـن ذاتهـا، وتتهيـأ لاسـتقبال وليـدها، الـذي كـان يومًـا طيفًـا يهمـس لهـا فـي عتمـة الكامـب، وأصبح الآن حقيقة تنبض في أحشائها، تنتظر لحظة اللقاء.

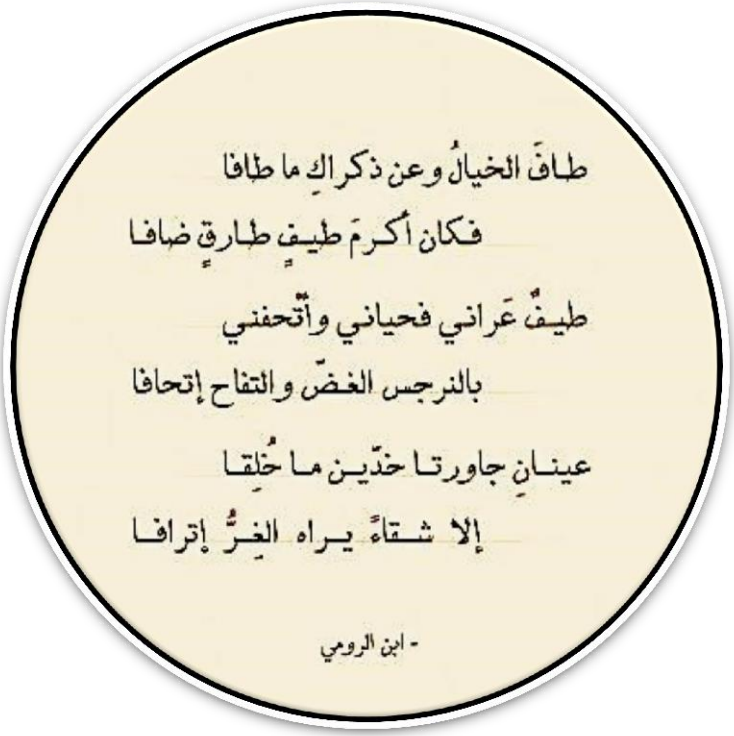
طافَ الخيالُ وعن ذكراكِ ما طافا
فكان أكرمَ طيفٍ طارقٍ ضافا
طيفٌ عَراني فحياني وأتحفني
بالنرجس الغضّ والتفاح إتحافا
عينانِ جاورتا خدّين ما خُلِقا
إلا شقاءً يراه الغِرُّ إترافا
- ابن الرومي

12- لايبزك

بالرغم من اكتمال أجهزة الجنين الداخلية خلال الشهرين الرابع والخامس من الحمل، إلا أن قابليته للعيش خارج الرحم لا تكتمل إلا بعد بلوغه الأسبوع السادس والعشرين، وهو ما كان يشكل مصدر قلق دائم لها. هذه المعلومة التي استقتها من طبيبتها في مدينة لايبزك، ظلت تؤرقها وتثقل قلبها، خاصة بعد أن شعرت بنزول قطرات من الماء الدافئ على ساقيها، الأمر الذي أثار في نفسها خوفًا عميقًا من فقدان الجنين وتدهور حالته الصحية.

كانت تتابع حملها بشكل دوري مع الطبيبة، وازدادت حرصًا بعد انتقالها إلى لايبزك، المدينة التي أسرتها بجمالها وطقسها اللطيف، فاندفعت في جولات طويلة دون أن تدرك أن هذا النشاط الزائد قد يشكل خطرًا على حملها. الطبيبة، التي لاحظت علامات القلق والتعب، نصحتها بعدم الحركة كثيرًا، خاصة وأنها تخوض أول تجربة حمل في حياتها. قطرات الماء التي سالت على فخذها كانت بمثابة إنذار مبكر، علامة على احتمال وجود خلل أو خطر يهدد استقرار الحمل.

الحدث وقع قبل دخولها الشهر السادس، حينما شعرت بتلك القطرات التي رطبت جسدها وأثارت فيها مشاعر الخوف والارتباك. شعرت وكأن كل ما بنته خلال أشهر الحمل قد ينهار فجأة، فبدأت بالدعاء والتضرع إلى الله أن يحفظ جنينها ويمنحها القوة لتكمل مشوارها. سيطر عليها شعور بالانكسار

والضعف، وبدأت الأفكار السوداوية توشوش ذهنها، تغزو عقلها وقلبها، خوفًا من فقدان الجنين وما قد يترتب على ذلك من أزمة نفسية ومضاعفات صحية.

في لحظة حاسمة، اتصلت بأمها وزوجها، وذهبت إلى الطبيبة برفقة زوجها، التي سارعت إلى حقنها بحقنة تثبيت الحمل، وأوصتها بالراحة التامة، بأن تبقى مستلقية على ظهرها معظم ساعات اليوم، وأن تتجنب أي جهد قد يهدد حياتها أو حياة الجنين. كما شددت على ضرورة أن تكون تحت مراقبة دائمة من قبل زوجها وأهلها.

تلك الحالة دفعت إدارة الهايم إلى دعمها، فتم تسريع إجراءات انتقالها إلى سكن زوجها، ولم يُطلب منها الحضور إلى الهايم إلا مرة واحدة أسبوعيًا لتأكيد وجودها في ألمانيا. هذا التغيير ساعدها كثيرًا في تنظيم وقتها، وزاد من حرصها على العناية بنفسها وتغذيتها، مما منحها شعورًا بالهدوء والاستقرار، خاصة بعد انتقالها إلى بيت زوجها.

ومع ذلك، فإن رغبتها في تعويض فترة كامب شنيبر، وانبهارها بجمال المدينة، دفعاها إلى التجوال المفرط، مما أثر على صحتها وأجهد جسدها، وكانت قطرات الماء التي نزلت بمثابة تحذير صارخ من مغبة إهمال حملها وعدم الاهتمام بصحتها. هذه التجربة كانت نقطة تحول في وعيها، دفعتها إلى إعادة النظر في أولوياتها، والتمسك بالحذر والهدوء، حفاظًا على حياتها وحياة جنينها.

في لايبزك أفرغ زوجها ذاته ووقته لمدارتها ومراعاتها، وخاصة مكان عمله لا يبعد عن السكن، أنه في ذات الشارع، بذلك خفف عنها المعاناة النفسية بمرافقتها في جولاتها الأسبوعية بأرجاء المدينة الجميلة، كان يصحبها إلى الحدائق العامة المنتشرة على ضفاف البحيرات والانهر المتفرعة في المدينة والتي تعطي لها روح مشرقة، وزيارة الأماكن التاريخية خلال عطلة نهاية الأسبوع، لترتع بعيدا عن زحمة الاسواق، لتريح ذاتها في جلوسها وتغيير أجواء البيت الكئيبة والتي تصبح مملة مع طول فترة الاستلقاء التي فرضت عليها الوحدة بانشغال أمها أو عمتها التي تشعر بها أحيانا والتي تكبلت بها عندما يكون زوجها في العمل...

كما صار زوجها أنيسها خلال مكوثها الطويل في السرير حسب توصية طبيبتها، بات يشغلها بالاحاديث والقصص ومشاهدة بعض الأفلام المسلية التي فيها شيء من الطرافة والتاريخ، كما صار يداعب بطنها ويدلك لها جسدها بين الفينة والفينة ويعد لها طعامها....الخ؛ حتى استطاع أن يذهب عنها مخاوفها ويبدد قلقها.

كان يعمل كل ذلك بعد أن يكمل عمله في المطعم الذي هو مصدر رزقه. في كثير من الأحيان كان يتملص من العمل متى ما وجد فرصة أو متى ما رغبت بذلك جنان، أو إذا ما اتصلت به لأمرا مهم، أو إذا ما وجدها بحاجة لتواجده قربها، وخاصة بعد أن انتفخ بطنها وتشوه جسدها عما كانت عليه من رشاقة وفتنة.

ففي الحقيقة تشوه الجسد يوصل بعض النسوة إلى حالة من الكآبة إذا ما شغلت بالها بذلك، والكثير منهن يعزفن عن الإنجاب لهذا السبب، على الرغم من حرصهن ورغبتهن بأن يكنَّ أمهات خلال مراحل العمر؛ ألا أنَّ الكثيرات منهنَّ يفقدن هذا التوازن، يخرجن عن الخط العام لدور المرأة الرئيسي في وجودها بالحياة وبالذات اللاتي يعملن في مراكز الشهرة كالمذيعات والفنانات وما شابه ذلك، خوفا على رشاقتهن أو خوفا من منغصات الحمل وما يلي الحمل من تربية ومسؤولية وعناء تفقدها توازنها.

كما أنه مع الكثير من النسوة خلال الأشهر الأخيرة من الحمل ومع انتفاخ الجسد؛ يرتفع منسوب السكري في الدم، والذي يسمى بسكري الحمل، والذي يشكل خطرا على صحة الأم بالذات مع البدينات منهن. وقد يتورم الجسد والوجه، ذلك ما يجهدها ويتعب صحتها ويحدد لها نوع غذائها. علما هذا السكري ينتهي مع الولادة ولا يشكل مرضا حقيقيا للمرأة.

كانت جنان قد مرت في كل تلك التجارب القاسية، في مرحلة الحمل الأخيرة تحولت بشرة ساقيها إلى حالة مشفقة، انتشرت في بشرة الساقين بقع بيضاء وطفح وردي مغشي بحبيبات بيضاء كالبهاق، أضحت بشرتها مرقعة كبدلة المغاوير العسكرية، بحيث بعض أجزاء الساقين غدت دهنية وغامقة، اوعزت الطبيبة ذلك إلى ارتفاع منسوب السكري في الدم، وربما بسبب صلة القرابة بينها وبين زوجها. بذلك حددت لها

طعام مخصوص يحد من ارتفاع السكر. تلك البقع تهجس بها كجزر صغيرة منتشرة في محيط البشرة وجزء من البطن.

الحالة سببت لها إرباكا نفسيا وقلقا من التشوه وخوفا من عدم قدرتها على الأنجاب وتكملة مشوار الحمل، ولكن الطبيبة طمأنتها وقالت لها بأن نسبة 2% من الحوامل يصبن بهذه الحالة نتيجة ارتفاع منسوب السكري أو لرقة بشرتهن، والحالة تصيب ذوات البشرة البيضاء فقط دون السمراوات من النسوة. ربما صبغة الميلانين تحفظ النساء السمر من هذه الحالة المرضية. قد تنتشر تلك البقع في عموم الجسد، وتزول بعد الأنجاب بفترة قصيرة، ونصحتها بشرب الماء وأكل الخضروات والراحة والابتعاد عن القلق وأخذ الحبوب المليئة بالكربوهيدرات والحبوب الملينة لتساعدها في تفريغ فضلاتها دون عائق، لربما تلك الحالة هي نفسية أكثر من أن تكون مرضية.

استمرت جنان بالالتزام بنصح الطبيبة وتحمل العناء على مضض، أما بالنسبة للجنين؛ ففي نهاية المرحلة الثانية من نموه تكتمل أجزاء الجسد تماما، تبدأ العينان بالتفتُّح شيئاً فشيئاً، تكتمل شبكة الأعصاب المُتَّصلة بالأُذنَين، في هذه المرحلة يستطيع أن يبتلع القليل من رشفاتٍ الماء عبر محاولاته التنفسيَّة البدائيّة، وتكون يداه تنعمان بالحسّ والاستكشاف، وقد يصل طوله في نهاية هذه الفترة إلى طول شبر تقريبا أو يزيد قليلا، بينما يصل وزنه إلى ما يُقارب 800 غم إلى 1000غرام كما اسلفنا سابقا.

قبل المرحلة الثانية كانت تنشغل بجنينها دون إرادة منها، حينها كانت تهجس بطيفه يدور في فلكها متى ما ضاقت عليها الأجواء في وحدتها ظهر لها، كانت تشعر به يحاورها ويطمانها على ذاته. ذلك الطيف كان يقترب منها بعد كل فجة تشعر بها أو قلق يغص حياتها أو جواء يدور في فلكها، بعد كل عناء نفسي وبدني تشهق به... وما أن انتقلت لكنف زوجها؛ أنقطع عنها ذلك السبيل، والذي كان يرويها ويطيب خاطرها ويطمئنها. ذلك المد الروحي والانسجام الفكري الذي كان ينقلها من عالم الحقيقة لعالم الخيال، لحالة الاهتزاز والشك الفكري والنفسي بذاتها وبالطبيعة التي تعرفها. كانت تنقلها إلى حالة الاستقراء والاستقرار والهدوء واليقين التام والإيمان العميق بالله وقدرته.

مع دخولها المرحلة الثالثة من الحمل، صارت تشعر بوجوده وبرسائله بطريقة أخرى؛ وذلك من خلال حركاته التي يرفس بها جدار الرحم، وكأنه بذلك يبعث لها رسائل اطمئنان على صحته وتواجده قربها. هكذا تغيرت الأمور بين الفترات فانتقلت من حالة الهلوسة التي كانت تعتريها لحالة الإحساس بالوجود والحركة، هكذا رُقَتْ الحياة من حالة خيال وتأمل لحالة انسجام ومادية محسوسة. خلال فترة الحمل تنشغل المرأة بمراحل الحمل؛ بحيث في كل شهر تهجس بأن هناك شيئا جديدا يطرأ عليها باستمرار يجدد حيويتها وحياتها، يهيئ لها سبل جديدة للاستمرارية، يصبرها على ما هي عليه، يجعلها تتمسك باليقين أكثر وأكثر.

كانت إدارة الهايم قد طلبت من إدارة الهجرة نقلها إلى جانب زوجها على ضوء التقرير الطبي، الذي أكد على ضرورة أن تحاط باهتمام خاص يجنبها عُقد الحمل والخطورة بعد أن سال على فخذها سائل منها، تجنبا لأي طارئ عرضي يعيق حياتها وحياة الجنين، بذلك تم نقلها نهائيا لسكن زوجها، لتعيش في كنف زوجها وأهل زوجها دون مراجعة الهايم، أي فكّ ارتباطها بهم تماما. فيما بقيت تنتظر منحها باج الإقامة من قبل دائرة الهجرة لتتمكن من تسجيل زواجها في محاكم الدولة.

بحركاته وتقلباته داخل الرحم كأنه كان يبعث لها رسالة اطمئنان وسلام يذكرها بطيفه الذي كان يراودها، بحركاته كأنه يحدثها، يكلمها بمدى تقدم عمره وتطور بناء جسده وحاجته للغذاء، يشرح لها مراحل تطور نموه وزيادة وزنه وحجمه وتكامل أطرافه، وكأنه يطالبها بزيادة الاهتمام والتروي في مشاوير حياتها والاعتناء بذاتها وباختيار نوعية غذائها واستمرار هدوؤها وتمسكها بإرشادات الطبيبة.

فعلا بتلك الحركات كأنه يعبر لها عن حاجاته، فالكلام أحيانا يكون بالهمس أو بالإشارة أو بالحركات اللاإرادية، أو من افتعال فعل ما، أو من ترددات صوت تسمعه عبر مجسات الروح....الخ. هكذا تفعل الحشرات والحيوانات في تحاورها وتفاعلها وتفاهماتها مع بعضها.

ما أن دخلت في المرحلة الثّالثة من الحمل، والتي تبدأ مبدئيا بعد أن تكتمل أجزاء الجنين بدخولها الشهر السادس من الحمل؛ حتى تهجس بأنها قد قطعت مشوارها الكبير، عندها تهيء ذاتها

لتكون أم عن قريب. في هذه المرحلة تسعى لشراء مستلزمات الوليد من حلي ولبس وباودر وزيت الجسد وعطور فواحة منعشة، تهيء ذاتها لاستقبال ضيفها العزيز. ومن خلال الأيبكو تعرف نوع جنينها إن كان ذكرا أم أنثى، وعلى ضوء ذلك يكون تصرفها في شراء حاجاته الضرورية قبل المجيء.

هكذا يكون شغفها باهتمامها به وتهيئة نفسها لاستقباله بروح مرحة حتى لحظة الولادة. وكانت قد أشترت له ثلاث طقوم قطنية بالوان مختلفة، وكفوف لإلا يخربش وجهه بأظافره، كما هيئت له عربة وحاضنة وعلب رضاعة (مميات) الحليب، قلانسُ وطاقيات للرأس لتجنبه برد أوربا.

خلال الأسابيع من الثّامن والعشرين وحتّى نهاية الثاني والثّلاثين تغطّي جسد الجنينَ المكتملَ خِلقة؛ طبقةٌ دهنيّةٌ بيضاء تُسمَّى الطّلاء، هذه الطّبقة تحمي جلد الجنين من الوسط المحيط به داخل رحم الأمّ، وسرعان ما تتلاشى هذه الطّبقة مع الطّبقة الوبريّة التي تعتلي جلدَه بعد الولادة. وفي نهاية هذه الفترة يجهّز الرحم الجنين لمرحلة الولادة، فينقلب اتّجاه رأس الجنين إلى الأسفل شيئاً فشيئاً مع نزول الجنين إلى منطقة الحوض، بذلك تشعر المرأة بثقل اسفل البطن، مما يولد لها ضغطا على المثانة والحالب، حينها يكون الجنين مكتملا دماغه ومتصلبة عظامه.

وفي هذه الفترة تكون أعضاء الجنين جميعها تعمل بشكل طبيعي عدا الرّئتَين؛ إذ تبدأ عملها ويتطور نموُّها وتمايُزها بعد الولادة مباشرة، لذا يكون من عمل القابلة أو الطبيب أن يهز

الطفل وقد يصفعه على ظهر ليتألم حتى يبكي، ببكائه تتفتح مجريات الرئة لتعمل بشكل طبيعي من خلال الشهيق والزفير، فينتظم عملها رويدا رويدا.

وفي نهاية المرحلة يتراوح وزن الجنين بين ثلاثة إلى ثلاثة ونصف كغم، وقد يختلف الأمر بين الذّكور والإناث قليلاً. وفي الاسابيع الأخيرة من عمر الجنين بين الأسبوع التاسع والثلاثون والثاني والاربعون منه تتم عملية ولادة الجنين.

تلك المعلومات الدقيقة التي تعرفت عليها؛ جعلتها أكثر أيمانا واتصالا بالله العلي العظيم، جعلتها تتصفح القرآن وترطن لتلاواته من خلال التلفاز والموبايل والقراءة. كانت قد قرأت تفسيرا مفصلا لمراحل الجنين وتكوينه في سورة المؤمنون في قول تعالى:...

- (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ*ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ*ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) [المؤمنون: 12-14].

بعد أن أكملت الآية نزلت على خدها دمعة عرفان بعظمة الخالق وشكران لرعايته، وجدت ذاتها خلال رحلة الحمل أنها مسيرة دون إرادة، أو أن الله كان يساعدها في تجاوز منغصات الحمل، بحيث يخلق لها فرص التغلب على مصاعب الحمل،

جعلها تدخل في عناوين الحمل كشريكة وليس كضيفة، دربت نفسها من خلال تطلعاتها وتوجيهات طبيبتها.

ففي البداية كان الله قد جند لها هنادي لتيسر لها أمرها، التي بدورها سندتها ووقفت إلى جانبها وعرفتها بأميمة وأخريات من الفتيات والنسوة ذوات الشأن، واللاتي لم يكنّ أقل شأنا من هنادي في عرفانهن ومداراتهن لها، إلى جانب بعض النسوة اللاتي قضين معها فترة سجن الكامب وهن يخففن عليها عناء الوحدة كميرفت ودونكا.

بعد أن انتقلت إلى سكن المحطة في هايم لايبزك قرب زوجها؛ كان قد رفق بها مدير الهايم، سمح لها بأن تذهب مع زوجها لبيته، طلب منها مراجعة إدارة (الهايم) السكن كل ثلاثة أيام لتتابع علاقتها بإدارة السوشيال (الدائرة الاجتماعية) ودائرة الهجرة، ثم هيأت لها دائرة الهجرة سكنا لتسمح لها بالمكوث مع زوجها الذي رفع عنها ضغوطات الحياة التي صاحبتها. هكذا سهل أمرها مع التفاف العائلة حولها.

تبدأ مرحلة النطفة مع جنوح حيوان منوي واحد من الذكر في إخصاب بويضة أنثوية، النطفة هي عملية تفاعل واندماج ماء الرجل بماء الأنثى. ثم تأتي مرحلة العلقة حين يتعلق الجنين بسقف الرحم ليجد له مكانا ثابتا حتى ينشأ، والعلقة تأتي بعد عملية الإخصاب، بعد أن تسبر النطفة المخصبة طريقها في رحلة تستمر من عشرة أيام إلى خمسة عشرة يوما داخل قناة فالوب؛ حتى تصل إلى جوف الرحم فتتحول لعلقة تخرج منها استطالات خلوية تنغمس في جدار الرحم ليتمكن الجنين من

الاستقرار في الرحم وامتصاص غذائه من دم الأم عن طريق المشيمة.

مرحلة المضغة تبدأ من الأسبوع الثالث للحمل، تحدثت عنها الآيات الكريمة وهي مرحلة مضغة مخلقة وغير المخلقة، حيث تظهر صورة الجنين في صورة شبيهة بمضغة الطعام تستمر في التغذية والانقسام حتى تصبح مضغة مخلقة، بمعنى تبدأ في بروز شكل الأعضاء، وتتشكل في تلك المرحلة الأعصاب والغدد والحواس من سمع وبصر.

مرحلة تكوين العظام واللحم تستمر مع تطور مراحل الجنين حتى الوصول إلى نهاية الشهر الأول وبداية الشهر الرابع حيث تبدأ مرحلة خلق العظام التي يتكون منها جسد الجنين، ثمّ تكسى تلك العظام باللحم والعضلات، ثمّ ينشئه الله خلقاً آخر بعد نفخ الروح في الجسد. ومعنى الخلق الآخر، أي المختلف عن مراحله الأولية، حيث تتميز الأعضاء في تلك المرحلة تميزاً واضحاً، ويكتمل خلق الإنسان.

خلال مرحلة الحمل وبالذات بعد أن ارتحلت من شنيبر إلى لايبزك، واستقرت في بيت زوجها، صارت تكتب مذكراتها الاسبوعية، تدون توصيات وارشادات الطبيبة. زاد احساسها بذاتها وسلامة الجنين باتباع ملاحظات الطبيبة ونصائحها والأدوية التي تتناولها، كما دونت رحلاتها المكوكية التي قامت بها برفقة زوجها للأماكن السياحية والترفيهية من خلال مشاهداتها للطبيعة والأماكن الطبيعة والتراثية التاريخية المنتشرة في مدينة لايبزك.. وبعد نهاية فترة الحمل وجدت

ذاتها بأنها أصبح في مخزونها مذكرة كاملة من معلومات ونصح مفيدة وما صادفت من طرائف وعقد وحلول... الخ من أحداث وأزمات إلى جانب ما خزنت من أحاديث شيقة وحزينة شهدتها في الكامب وبعده، تُذكرُها بما حدث معها، وكيف تعاملت مع الحدث في حينه وكيف كان من المفروض أن تتعامل معه ... الخ من قصص.

أصبح عندها خزين وافر من المعلومات قررت أن تطبعها في كتاب اسمته (**انا حامل**) ليبقى خزينا لها وليكن سندا لتجارب قادمة لها وللنساء الحوامل، خزين تذكر أبنها القادم بما جرى لها خلال فترة الحمل وكم عانت وتحملت من صعوبات حمله. وليكن سندا لغيرها من الحوامل الجدد، يستفدنَّ منه النساء بشكل عام والحوامل بشكل خاص. وقد تبرعت بمجموعة من الكتيب الى الطبيبة والتي بدورها توزعها على مريضاتها حين المراجعة ليستفدن منه.

خلال مراجعاتها الطبيبة كانت تركز على الامور التالية: –

حجم وموقع الطفل....

نبض قلب الطفل....

موقع المشيمة في الرحم....

كمية السائل الأمنيوسي.....

عدد أسابيع الحمل؟.....

نمو الطفل ومعرفة جنسه.....

هـذه المعلومـات تجعـل الطبيبـة تطمـأن علـى صـحة الحامـل والجنـين معـا، بـذات الوقـت تكـون الحامـل قـد عرفـت مـا عليهـا فعله لتتجنب الأخطاء الفادحة التي تغفل عنها.

كمـا عرفـت جنـان الفـرق بـين الـولادة الطبيعيـة والاصـطناعية، أو العمليـة القيصـرية كمـا تسـمى، فهمـت بـأن الـولادة الطبيعيـة هـي إنجـاب طفـلا طبيعيـاً عـن طريـق المهبـل بعـد مـرور 37 - 42 اسـبوعاً مـن الحمـل دون اسـتخدام العقـاقير الدوائيـة المحفـزة للمخـاض، أو اللجـوء لبضـع السـلى، السـائل السـلوي أو الأمنيـوتي أو الأمينوسـي أو الصـاء أو الصـاءة (بالإنجليزيـة: Amniotic fluid) هـو سـائل غـذائي ويُـوفر الحمايـة للجنـين يُوجـد داخـل الكـيس الأمنيـوتي (شـق الغشـاء الأمنيـوتي المحـيط بـالجنين) مـع بضـع عجـان الفـرج، أو التخـدير الموضـعي أو اسـتخدام محفـزات كـإبرة الظهـر التـي يشـيع اسـتخدامه خـلال عمليـات المخـاض والـولادة بهـدف تخفيـف حـدة الألـم فـي المنطقـة السـفلية مـن الظهـر ..الـخ مـن عمليـات تتعـرض لهـا الحامـل كلهـا محـذورة وخطـرة. وقـد وجـدت بـأن الـولادة الطبيعيـة هـي أرحـم بكثيـر مـن العمليـة القيصـرية - فـتح الـبطن – وأضـمن لحيـاة الطفـل وحياتهـا المقبلـة، النسـاء اللاتـي يـرغبن العمليـة القيصـرية هـو مـن أجـل الحفـاظ علـى سـلامة المهبـل مـن التشـوه. وهـذا خطـأ حيـث المهبـل يسـتعيد عافيته بعد الولادة بنسبة 75% على الأقل..

العمليـة القيصـرية فيهـا مخـاطر علـى صـحة الأم أكبـر بكثيـر مـن أن تنجـب بطريقـة الـولادة الطبيعيـة، وقـد تتعـرض خلالهـا للمـوت

بسبب حقن البنج الزائد أو تعرضها للنزف المميت أو إلى خطأ ما من قبل الطبيبة يؤدي إلى هلاك الأم والجنين معا، أو إلى هلاك الأم كما حصل مع الشابة نور بسبب خطأ طبيبة التي لم تعد تسيطر على النزف. هذا إضافة إلى أنها ستأخذ فترة أشهر طويلة على الاستشفاء لتعود لحالتها الطبيعية.

الولادة الطبيعية تساعد الأم على إنجاب طفل بصحة جيدة، تسرع عملية استشفاء الأم بعد فترة أربعين يوم فقط، وهي مرحلة النفاس، تعود طبيعية في ممارسة حياتها، كما أن الولادة الطبيعية تحتاج إلى المحافظة على اللياقة البدنية والتغذية الجيدة مع عدم الافراط في الأكل والسمنة، وإلى الهدوء وحالة نفسية مستقرة، بعيدا عن المشاكل الحياتية والاجتماعية والاسرية والمادية التي تأزم نفسية الأم.

احاطت ذاتها بتلك المعلومات التي جنبتها المجازفة والرعونة بسلك العملية القيصرية. كانت أميمة في أحدى مكالماتها نصحتها بالعملية القيصرية حفاظا على فرجها من التشوه، إلا أن الطبيبة نصحتها بالولادة الطبيعية.

لقد شرحت لها فترة "النفاس"، هي الفترة التي تبدأ من لحظة انتهاء عملية الولادة وحتى ستة أسابيع بعدها. في هذه الفترة تعود أجهزة الجسم تنكمش الى وضعها الطبيعي لما قبل الحمل. خلال هذه الفترة من الممكن أن تشعر الأم ببعض التقلبات النفسية والحالة المزاجية، نتيجة التعب وصعوبات التعامل مع مبنى الجسم المتغير وغيرها وما لحقها من عقد الحمل، لكنها

فترة بناء جديدة لجسد الام، وبعدها تعود لحالتها الطبيعية لفترة ما قبل الولادة...

تُعدّ فترة النفاس أشبه بالحمى التي تصيب الجسد، إذ تمثل مرحلة استشفاء عميقة تتخلص فيها المرأة من آثار الحمل وتشوهاته الجسدية. في هذه المرحلة الحساسة، يُنتظر من الزوج أن يكون لطيفًا، متفهمًا، وأن يتحمل تقلباتها النفسية بجلد وصبر ومحبة.

جنان، بحكم دلالها من أهلها وزوجها، استطاعت أن تتجاوز تعقيدات الحمل، مما شجعها على السعي نحو ولادة طبيعية دون التفكير في خيار العملية القيصرية وما قد يترتب عليها من تبعات.

قبل الولادة بأسبوعين، بدأت تشعر بتغيرات واضحة في شكل بطنها وحركة جنينها، إذ بدأ بالنزول نحو الحوض. كما شعرت بارتخاء في مفاصلها نتيجة تأثير هرمون الريلاكسين، الذي يعمل على تطرية الأربطة والمفاصل استعدادًا للولادة. ومع ضغط رأس الجنين على المثانة والحالب، ازدادت حاجتها للتبول، مصحوبة بانقباضات متكررة.

في تلك المرحلة، تفرغ أحمد تمامًا للعناية بها. صار يدلك جسدها بزيت الزيتون، يعتني بأفخاذها وساقيها، يحرص على أن تستعيد عافيتها وقوتها. كان هذا طقسه اليومي، قبل النوم وأحيانًا بعد الظهيرة، مما جعلها أكثر استعدادًا للحظة الولادة.

أكثر ما كان يؤلمها هو ألم أسفل الظهر، نتيجة تمدد المفاصل والعضلات، وارتخاء عضلات المستقيم مع نزول الجنين. كما عانت من ضيق في التنفس، خاصة في الأسبوعين الأخيرين قبل الولادة.

ومع اقتراب موعد الولادة، خف الضغط على معدتها، فتراجعت حرقة المعدة، وازدادت شهيتها للطعام. كانت تأكل بشغف كل ما تقع عليه عينها، لكن أحمد كان يقظًا، يحذرها من فرط السمنة وصعوبة الولادة.

لم يكن أحمد وحده في رعايتها، بل شاركته أمها وحماتها، حيث حرصتا على الحفاظ على روحها ونفسيتها، فبثتا أجواء من المرح والفرح في البيت، بالغناء والرقص، بالنكت والقصص الطريفة، مما أشعرها بالألفة العائلية وشجعها على تحمل أعباء الحمل.

وفي خضم هذه الأجواء، تلقت مكالمة من صديقتها أميمة، التي زفت لها خبر خطبتها من الشاب مراد، المغربي الأصل، الذي يعمل في شركة أمازون منذ ثلاث سنوات. اتفقا على الزواج مع بداية السنة الجديدة، بعد فترة تعارف كافية. فرحت جنان كثيرًا، وتمنت لها التوفيق، ووعدتها بحضور الزفاف.

كان أحمد مدركًا لحساسية هذه المرحلة، حيث تتحول المرأة خلالها إلى طفلة، إلى روح تبحث عن مؤنس، عن من يخفف عنها هم الحمل ويطمئنها. لاحظ اضطراب شهيتها ونفسيتها، فتضاعف اهتمامه بها، وحرص على احتضانها نفسيًا وجسديًا،

ليخفف عنها عناء الولادة، ويضمن نموًا صحيًا للجنين، فسلامة النفس تسهل الولادة.

وقد ترجم أحمد حبه ووفاءه لجنان بأجمل صورة، خاصة مع اقتراب موعد الولادة. أدرك أنها بحاجة إليه كسند، إلى رعاية وحب، إلى تلاصق الروح. فكان لها ذلك، حتى عبرت مرحلة النفاس، وبهذا أثبت أنه جزء من قدرها، ورفيق دربها، ومعينها في تثبيت جذور الأسرة.

13- اللحظات الحاسمة

يوم الولادة... لحظة الحسم

في صباح يوم 20 يوليو 2021، وخلال مراجعتها الدورية للمشفى للاطمئنان على صحتها وصحة جنينها، لم تكن جنان تتوقع أن هذا اليوم سيحمل لها مفاجأة العمر. دخلت إلى غرفة الطبيبة بثقة وهدوء، لكن ما إن فحصتها الطبيبة حتى تغيرت ملامح الحديث، لتقول لها بلهجة حاسمة:....

- أنتِ على وشك الولادة اليوم، نحن في اللحظات الحرجة الأخيرة من الحمل. خروجك من المشفى خطر عليكِ، وقد يضر بصحتك وحياتك وحياة الوليد، اتصلي على من يمكنه مساعدتك!!!!.

جنان، وقد باغتها الخبر، ردّت بدهشة:....

- قولي غيرها يا دكتورة! أنا لا أشعر بأي ألم، جئت فقط لأطمئن على وضعي الصحي ووضع الجنين.

ابتسمت الطبيبة برفق، لكنها لم تتراجع عن قرارها:....

- الجنين نازل في مكانه الصحيح، وهناك اتساع بسيط في عنق الرحم، سيزداد مع مرور الوقت. عليكِ إبلاغ زوجك والمقربين منكِ ليأتوا فورًا لدعمك. انتظري في غرفة الممرضات، وإذا شعرتِ بأي تطور، بلّغيهم فورًا.

كلمات الطبيبة كانت كالصاعقة، هبطت على جنان بثقلٍ لم تحتمله. شعرت وكأن الأرض تميد تحت قدميها، وهدوؤها الذي جاءت به تبخر في لحظة. رعشة اجتاحت أطرافها، وارتباك سكن ملامحها، والرهبة تسللت إلى أحشائها كالنار في الهشيم. كانت وحدها، بلا مرافق، في تمام الساعة العاشرة صباحًا، وهي تواجه احتمال الولادة المبكرة.

أمسكت بهاتفها، تتصل بزوجها، تحاول أن تستعيد توازنها وسط دوامة القلق. ومع كل كلمة نطقتها الطبيبة، جعلتها تشعر بتنميل في قدميها، وكأن شلالًا من الخوف صُبّ على جسدها. لم تعد قادرة على الوقوف، تغير لون وجهها، إنها اللحظة التي طالما أرعبتها منذ أن أدركت أنها حامل.

ذهبت للمشفى على سجيتها، دون أن تتوقع شيئًا. كانت قد استحمت بالماء الدافئ، رخت عضلاتها في البانيو، تعطرت بأفخم العطور، وارتدت أجمل ما لديها: مريول أسود مخملي، قميص وردي، ربطة رأس وردية، وحذاء مسطح أسود. ظنّت أن الولادة ما زالت على بعد أيام أو أسابيع.

لكن الطبيبة، بعد الفحص، صعقتها بخبر قرب ولادة صفاء، لتقول لها مجددًا:....

- لن أسمح لك بالخروج من المشفى، قد تتعرض حياتك للخطر.

كأنهـا تلقـت صـعقة كهربائيـة، موجـة خـوف اجتاحـت قلبهـا، جعلتهـا تـرتعش مـن الـداخل. تـذكرت قريبتهـا نـور، التـي فقـدت حياتهـا خـلال الـولادة. ارتعبـت، شـعرت أن يـوم الحسـم قـد أتـى، ولا مفـر مـن المواجهـة. كانـت تـدعو الله كـل يـوم أن يرفـق بهـا، أن ينجيهـا مـن شـدة المنازلـة، فسـاعة الـولادة هـي ولادة جديـدة لـلأم والجنـين معـا، وقـد تكـون الأخيـرة كمـا حـدثت مـع نـور التـي اختـارت الـولادة باسـتخدام العمليـة القيصـرية، حفاظًـا علـى جسدها وفرجها من التشوه، لكنها دفعت الثمن غاليًا.

بصوت مرتجف، قالت للطبيبة:...

- دكتورة، أنا خائفة...

ردّت الطبيبة بحنان وثقة:.....

- لا تجزعـي، وضـعك سـليم جـدًا. تحلّـي بـالعزم والشـجاعة والثبـات، والإيمـان بـالله. إنهـا سـاعة تزكيـة الـروح، سـأكون قربـك، ولـن أتخلـى عنـك. المـوت والحيـاة بيـد الله. فـي اليـوم عشـرات النسـاء يولـدن ولادة طبيعيـة، وإلا مـن أين يأتي البشر. ستكونين أما، ستشعرين بطعم الأمومة.

كلماتهـا كانـت بلسـمًا، أعـادت لجنـان شـيئًا مـن الثقـة، ذكّرتهـا بـأن كـل النسـاء يلـدن ويمضـين فـي الحيـاة بعطـاء. مـا حـدث لقريبتهـا نـور كـان خطـأً طبيًـا، ولـن يتكـرر. سـتنجو، سـتربي طفلهـا بأفضـل ما يكون، إنها لحظة اجتياز الامتحان الأصعب.

اتصلت بزوجها وأمها وحماتها، فحضروا جميعًا مسرعين إلى المشفى، خوفًا من تطور الحالة. أحمد، زوجها، استفسر من الممرضات عن وضعها، فطمأنوه، وأخبروه أن الولادة قد تحصل خلال أربع إلى خمس ساعات أو أكثر.

قال لها:....

- أمامك وقت، ماذا تريدين أن أجلب لك من البيت؟

ردّت مرتبكة:....

- اسأل أمي، أنا لا أعرف... أشعر بالعطش والخوف، اسأل أمي وأمك.
- اطمئني، سأكون إلى جانبك. سيدخلونك إلى غرفة الانتظار، وهذا يعني أنك تحتاجين وقتًا. سأذهب وأعود بسرعة، وسأكون حاضرًا معك في غرفة الولادة.

طمأنها بكلماته، ثم غادر إلى البيت ليجلب ما تحتاجه: بطانية، مناشف، ألبسة داخلية قطنية، دشداشة، زوج نعل، أتك، محارم داخلية، وكل ما أشارت إليه والدته. كما جلب صندوق مياه معدنية وكارتون مناديل ورقية.

كانت تلك اللحظات فاصلة، بين الخوف والرجاء، بين الألم والأمل، بين الحياة والموت. لحظات ولادة محرجة، ليس فقط لصفاء، بل لجنان التي ستخرج من هذه التجربة بخبرة وتصور جديد، أكثر نضجًا، وأكثر إيمانًا بالحياة.

جنان في غرفة الانتظار... بين الخوف والرجاء لا تعرف كيف تتصرف وكيف ينتهي المشوار، لكن الدعاء والآيات القرآنية لم تهدأ على لسانها في ترتيلها. تغيرت حال جنان كثيرًا، قيدت كأسيرة خوف، أضحت مهزوزة الثقة، منكمشة على ذاتها، خاملة، غارقة في بحر من الوساوس والهواجس. كانت تُحدِثْ نفسها بصوت خافت، تصارع عقدها الداخلية، تغوص في خيال بعيد عن الحضور، وكأنها تفرّ من واقعها المكتظ بالرعب إلى عالم لا يسكنه أحد سواها.

حين انتقلت إلى غرفة الانتظار، وجدت نفسها إلى جانب ثلاث حوامل أخريات، كل منهن تشغل سريرًا، وكل منهن تنتمي إلى جنسية مختلفة. كانت إحداهن ذات بشرة داكنة، تدل على ذاتها ذات أصول أفريقية، والثانية صفراء البشرة من جنوب شرق آسيا، أما الثالثة فكانت ألمانية الملامح والهيئة.

المرأة الآسيوية بدت منهكة، ضعيفة البنية، وجهها شاحب كأوراق الخريف، وعيناها تفضحان خوفًا دفينًا من ساعة الولادة الحاسمة. الطبيبة أخبرتها بأن الولادة الطبيعية قد تكون عسيرة، وربما مستحيلة لضعف الجسد، وأنها على الأرجح ستخضع لعملية قيصرية، بسبب خلل عضوي وبنيوي، أو ربما لأسباب طبية غير واضحة بعد. كانت مضطربة، خائفة، يبدو أنها تعاني من الأنيميا، فكمية الحديد في دمها منخفض جدا، وهذا ما انعكس على حالتها النفسية والجسدية.

أما الألمانية والأفريقية، فكانتا في حالة جسدية طبيعية، ويبدو أنهما خضن تجارب حمل سابقة. الأفريقية تحديدًا أدهشت

الجميع بسرعة إنجازها مهام الولادة، فما أن دخلت غرفة الولادة حتى خرجت منها بعد أقل من ساعة، وفي حضنها وليدها يرضع الحياة. كنّ جميعًا برفقة أزواجهن، يحيط بهن دعم حميمي لا يُقدّر بثمن.

أما جنان، فكانت قد وجدت رفقة مع الهلوسة التي سيطرت عليها، تحاملت على نفسها وهي تردّد مع ذاتها بصوت خافت: "كيف سألد؟ هل وصلت للحظة الأخيرة؟ هل حان موعد ولادتي؟ هل سأتجاوز العقدة وأتحمل آلام الطلق؟ إنها أصعب مرحلة في حياة الأم، آلام الطلق لا يشبهها ألم، هكذا تصفها النساء جميعا."

كانت تهجس بوليدها صفاء دائب الحركة كأنه يود الحضور المبكر، كونها لم تكمل بعد فترة الحمل كاملة، فهي في الأسبوع التاسع والثلاثين أو الأربعين، وتظن أنها بحاجة لأسبوعين إضافيين لتتمم حملها. لكن الطبيبة أكدت أن موعد الولادة قد حان، وهي أدرى بالواقع، تمر عليها عشرات الحوامل يوميًا، وتقرأ أجسادهن كما تُقرأ الكتب.

قالت لنفسها: "إذا دخلت في ساعة الجد، عليّ أن أكون ثابتة العزم، أن أتجاوز المحنة، أن لا أضعف. الأمر يتوقف على قدرتي، على تحملي، على صبري وعلى إيماني بالله." فصارت تسبّحل وتحمّدل وتكبّر، تدعو الله أن ينجيها من كربها: "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر... ربي نجني من هذا الكرب، دعني أحظى بابني."

الخـوف والاضـطراب خطفـا لـون وجههـا، جعلهـا تـذوب بلـون الزعفـران، خانسـة فـي ركـن الانتظـار، هكـذا وجـدها زوجهـا حـين دخـل عليهـا. ومـا أن رأتـه حتـى أشـرقت ملامحهـا، كـأنَّ حضـوره سـقف أمـان يحميهـا مـن الانهيـار. منحهـا قـوة إضـافية لتجـاوز الموقـف، رغـم وجـود أمهـا وحماتهـا إلـى جانبهـا، إلا أن وقـع الـزوج كـان أعظـم، وكأنّـه هـو مـن سيشـاركها الـولادة، وكـأنَّ لـه الحق أن يكون جزءًا من هذا الحدث الجلل.

بعـد اسـتراحة قصـيرة، أخـذ بيـدها، يسـاعدها علـى المشـي داخـل الغرفـة وفـي ممـر المشـفى القريـب، يكـرر ذلـك فـي أوقـات متقطعـة، بمسـاعدة أمـه وحماتـه حسـب توصـية الممرضـة. فالمشـي يسـاعد علـى توسـع عنـق الـرحم، ويهيـئ الجسـد للـولادة. بعـد كـل ربـع سـاعة مـن المشـي، كانـت تأخـذ اسـتراحة قصـيرة علـى المقاعـد المنتشـرة، تسـتعيد فيهـا طاقتهـا، بعـد أن تشـعر بـأن عضلات قدميها تغور وتتلاشى تحت وطأة الفجعة المكبّلة بها.

كانـت تسـتند أحيانًـا علـى زوجهـا، وأحيانًـا علـى أمهـا أو حماتهـا، وفـي فتـرات الاسـتراحة، كانـت أمهـا تـدلك سـاقيها وكتفيهـا، تمـتص مـن جسـدها الفتـور، وتعيـد لهـا شـيئًا مـن الحيويـة التـي سلبها الإرهاق والرهبة.

كانـت تلـك اللحظـات مزيجًـا مـن الترقـب والخـوف، مـن الـدعاء والرجـاء، مـن الألـم والأمـل. جنـان، رغـم ضـعفها، كانـت تخـوض معركتهـا بصـمت، تسـتعد لعبـور بوابـة الحيـاة مـن جديـد، لتحتضـن صفاء، وتبدأ فصلًا جديدًا من فصول الأمومة.

بعد أن أعلمتها الطبيبة باحتمالية ولادتها الآنية، أنقطع فكرها عن العالم بأسره، فلم تعد تتذكر سوى زوجها وأمها فقط، لذا استنجدت بهما مباشرة، هجست بأن الوصل بينها وبين الحياة يمر عبر هذان الشخصان، هما فقط من سيرشدها ويطمئنها ويبث الروح في جسدها.

كان الخوف قد سيطر على ذهنها، أغلق أبواب الأمل والتفاؤل، الهم الكابد جعلها تنكمش على ذاتها كورق نايلون متأثرة بحرارة الخوف الكامنة في داخلها، أنساها الدين والدنيا، جردها من قواها العقلية والفكرية، جعلها لا تفكر سوى بساعة الحسم القادمة، سوى بالحظة الآنية القادمة.

الرعب جعلها تتخيل ما سيحصل لها، ما سيستجد من تدهور في صحتها، خوفها مبني على فظاعة آلام الطلق، خوفا من أن تخسر ذاتها أو تخسر جنينها، ماذا لو فشلت في ولادتها؟ كيف ستواجه منغصات الحياة بعدها؟ كيف ستكون إذا ما فقدت توازنها وسقطت في مطبات الزمن والعقد؟ الخوف يكاد يتدفق من جوفها كالدمع الذي ينهمر من مقلتيها، يتوعدها من خلف جدار وهمي قابع في سبيلها، تكاد تتحسسه ولا تراه، أنها المنازلة الكبرى والأشد خطورة في حياتها. بدأت تسمع قبقبة أحشائها.

يا ترى متى يبدأ الطلق، وكم سيستمر؟ ذلك ما لا تدرك وقته، لكنها بعد مرور ساعتين من الزمن أحست بنوبات ألم بسيطة ضربت خصرها كموجات بحر هادئة، كانت لا تميز بين درجات الطلق والألم المصاحب لها، دخلت المشفى في

العاشرة صباحا، وجاءها الطلق الملموس بعد بضع ساعات من دخولها المشفى. فلم تدخل غرفة الولادة إلا بعد الخامسة عصرا، حينها هجست بأن النِزال قد ابتدأ مشوار جولاته، وأن ساعة الحسم قربت إذنها.

قبل أن تترك كامب شنيبر كانت هنادي قد أخبرتها عن ولادة أمها لأخيها الأصغر محمد، حيث قالت لها:..

- كان الله في عون الحامل، أنها تتعذب كثيرا حتى تلد، ولكن أطماني يا جنان وأبعدي الوساوس من رأسك؛ أمي حين ولدت أخي محمد لم يدم طلقها ومخاضها سوى ساعة زمن، ثم أنهت كل شيء في وقت قصير.
- لأن أمك يا هنادي كانت لها تجارب سابقة... كانت أميمة قد ردت عليها.

ذلك ما تذكرته حينها، وكأنَّ فكرها وافق ما ذكرته لها حماتها حين ولدت زوجها أحمد وما جرى مع المرأة الأفريقية أمام انظارها، تلك الوقائع خفت عليها روعها.

خلال تجوالها في الممر كانت قد شاهدة أحدى الحوامل تستخدم كرة بلاستيكية في تمارينها، أدعت بأنها تخفف الآلام وتساعد على الولادة الطبيعية، ودت تجربتها، عندها هجست بشيء من الراحة وخاصة عند وضع قدميها عليها وهي منسدحة في السرير، كأنها تمتص ألم الظهر وعضلات الساقين.

بعد ساعة من المشي شعرت بإفرازات نزلت على ساقيها، ذهبت للحمام لتتبول وتستطلع وضعها، وإذا بها تشعر بخيط من الماء الدافئ ينحدر على فخذيَّها، حينها أخبرت الممرضة بالحال، طلبت منها الممرضة المكوث في السرير، والتحول لغرفة الولادة.

كانت قد أخبرت الطبيبة بما جرى معها، إذ بدأت نوبات الطلق تداهمها على هيئة دفقات خفيفة لا تكاد تشعر بها، تحسبها شيئًا من آلام الجسد العابرة. لم تكن تدرك حينها المعنى الحقيقي للطلق، حتى لامست شدته، فشعرت بقرب الولادة. آلام حادة، أشبه بخلع المفصل عن الساعد، هكذا بدا لها أول الطلق الحقيقي. جاءها المخاض بعد نصف ساعة من دخولها غرفة الولادة، فتشبثت بالسرير، ثم بعنق زوجها كما تتشبث بالحياة. اشتدت المعاناة، والكل يحثها على الصبر والثبات.

بعد ساعة، بدأ الطلق يتكرر بدفقات خفيفة ومتوسطة الشدة كل عشر دقائق. لم تدرك أنها دخلت مرحلة الحسم من الولادة، وما إن تقدمت خطوة نحو الأمام، حتى أيقنت أنها تخوض قدرها في معركة النزال. الألم يعاودها بقوة كل ربع ساعة تقريبًا. حاولت النوم قليلًا، لكن القلق شغل بالها، جفّ صبرها، واعتراها التعب، حتى بات جسدها يرتجف كلما أطبقت جفنيها من الإرهاق.

قالت لها أمها حينها: –

- هذه الآلام هي بداية الطلق، اقرئي آية الكرسي ليحميك الله، اقرئي المعوذات...

أغمضت عينيها وبدأت تقرأ، بينما وضعت أمها كمادة باردة على رأسها، ومسحت جبينها المتفصد بالعرق، وقرأت عليها بعض الأدعية. هجست بخيط من الطمأنينة يلامس قلبها وفكرها، كأنها انتقلت إلى الفردوس، مغمورة بالحنان والأمان. لحظات مرت، ثم انتفضت من شدة الألم، وما إن فتحت عينيها حتى وجدت أمها وزوجها يمسكان بيدها، والروح تخفق داخلها من شدة ألم المخاض.

قالت لها أمها:

– لا تخافي يا ابنتي، نحن بقربك. بسم الله الرحمن الرحيم، يا رب يسّر ولا تعسّر.

– شممت رائحة ورود وخضرة ملأت أنفاسي.

– لا عليك يا ابنتي، إنه الرحمن ينزل رحمته على قلبك. ستلدين وستكونين بخير وعافية.

تشبثت بيد أمها وزوجها، ولمست قلق زوجها عليها، فقالت له:...

– يا أحمد، الألم فظيع، لكن لا تخف، ستكون أبًا. أسندني، احضنني.

– تشجعي يا حبيبتي، أعرفك قوية، ستلدين بسلام إن شاء الله.

كان يقف إلى جانبها، مكتوف الأيدي، ينتظر الفرج من عند الرحمن. بين لحظة وأخرى، كان يدلك ذراعيها وساقيها، فشعرت براحة خلال ذلك. وما إن تجاوزت الساعة السادسة عصرًا، حتى صار الطلق يتكرر كل سبع دقائق، واستمر الوضع قرابة ساعة، ثم بدأ يأتيها كل ثلاث دقائق. هجست بروحها طائرة في سماء الغرفة من شدة الألم، تحاول الإمساك بها فتفلت منها ثم تعود إليها، كطفل يتبع فراشة، تذهب إلى النافذة ثم تعود أليه، تلعب معها لعبة الشغف والإغواء، كخيط دخان تهجس به في شهيقها وزفيرها، لا يستقر على حال.

كانت الطبيبة تعاود زيارتها كل نصف ساعة تقريبًا، تقيس مدى تقدم حالتها، وفي كل مرة تفحص مقدار اتساع عنق الرحم. في المرة الأولى قالت إنه متسع بمقدار 5 سم، وفي الثانية 7 سم، وأخبرتها أنها لن تلد إلا إذا تجاوز الاتساع 10 إلى 12 سم. نصحتها بالحركة والسير داخل الغرفة، وطلبت من القابلة تدليك منطقة المهبل بالزيت ليصبح أكثر مرونة. طمأنتها على صحتها، وقالت لها:....

– ستلدين خلال ساعتين بإذن الله. صحتك ممتازة.

كانت تلك الكلمات تمدها بالعزم والقوة. ركبت لها الطبيبة جهاز قياس نبض الجنين، فتطمأنت على صحته، ثم تركتها لتراجع مرضاها الأخريات.

في البداية كان الألم يرتكز أسفل البطن، كانت الطبيبة قد قالت لها بأن هذا الطلق كاذب، لذا تركتها في غرفتها قرابة ساعة

زمن. بعد أن أشتد الطلق صار يرتكز الألم اسفل الظهر وحول البطن؛ حينها أهتمت بها، قالت لها قربت الولادة.

إذا قربت الساعة، صارت تحوقل وتحمدل، صارت تكرر وتردد عِبارَةِ لاَ حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ العلي العظيم والحمد لله ولا اله الا الله والله وأكبر وحده لا شيرك له.. باتت تستعين بعد الله بزوجها التي تشبثت بعنقه.

بعد الساعة السابعة فحصتها الدكتورة وقاست توسع عنق الرحم فوجدته بسعة 9 سم، وطلبت من الممرضة مساعدتها في تدليك عنق الرحم. هكذا أستمرت معها مدة عشرة دقائق تقريبا، ثم تركتها وقالت لها إذا ما أستجد طارئ أخبروني في غرفة الممرضات.....

في هذا الوقت أحست بالجوع، فأنطلق أحمد للأسواق ليجلب لها من مطعم مجاور للمشفى طبق من الكباب العراقي، أكلت شيشا منه مع شرب لتر من الماء، كانت أمها قد نصحتها بذلك، استعادت به قوتها. كانت أمها تلح عليها أن تأكل المزيد وتشرب أكثر ليساعدها ذلك على الضغط على الجنين ليشق طريقه نحو الأسفل ليخفف عنائها. حينها حاول أحمد ممازحتها قائلا:.....

- سأذهب إلى سيارتي لأجلب منفاخ العجلة وآتي بالحال!
- لِمَ يا أحمد، ماذا تفعل بمنفاخ العجلة في هذا الوقت العصيب؟

قالت له جنان وهي مذهولة ومستغربة من تفكير زوجها. فقال لها:...

- أنفخ به بطنك ليساعدك على الولادة.
- كف من هذرك فأنا لست على ما يرام.
- ألمْ تقل أمك بأن الأكل والشرب يضغط على الجنين ليشق طريقه، فالمنفاخ أكثر جدوى، حينها يتسع المهبل ويخرج الطفل دون ألمْ. هههههههههههههه.
- اشعر بتعب هذا ليس وقت مزح.....

بما يحز ظهرها من وجع أشبه بألم الحرق، صرخت عليه أن يكف هزاره وتطلب منه الخروج من الغرفة قائلة؛...

- أنا بأي حال وأنت تضحك عليَّ.

بعد ذلك طلبت من أمها أن تساعدها في المشي داخل الغرفة، مشت فترة ربع ساعة تقريبا حتى كلت قدميها، شعرت بالتعب يسري بساقيها كما الدم في الوريد، أنهكت تماما. حينها انسدحت على السرير رافعة ساقيها على سطح كرة اليوجا، أحيانا تأخذ وضع السجود ليدلك زوجها منطقة أسفل الظهر، شعرت بالراحة، هجست بيده كمن بها سحر، لمست بها جاذبية ودفء ورحمة أزاحت عن ظهرها وشم الألم. بينما كانت أمها منشغلة بالأدعية ووهي تمسح تصبب العرق عن رقبتها وجبينها قائلة لها:....

- الله يحفظك يا أمي، لم أشعر بحقيقة مكانتك إلا الآن.

حينها سألها زوجها بم يسرح فكرك؟؟ قالت:...

- أسرح بعيدا حين يذهب عني الطلق والألم، أشعر أنني لست هنا، أهجس بنفسي تنفصل عن ذاتي، أرى الموت يطوف في الحدق، يترقبني، يرعبني، أهجس بالروح

تنسلخ عن الذات فأسقط إلى الأرض كورقة خريفية.... أو اغور في السدم كطائر حر، نورسي. ما أن يعاود الطلق حتى أكتشف ذاتي مرمية على السرير والألم كالنار يسري بجسدي.. أبقى سارحة بخيال يطوف بين مزيج من ألوان التفاؤل والغثيان، أحيانا الحالة التي أنا بها تثير مزاجي وأعصابي، لذلك صرخت عليك يا أحمد حين مازحتني، أهجس بأني لا أطيق أحدا في هذه اللحظة، مررت بوضع لا أتقبل فيه المزاح قط، أنت السبب، أكرهك، انت الذي عملت بي كل هذا التشوهات، احملك مسؤولية نفسي وما أنا فيه..

- انت حبيبتي وروحي، كنت أمازحك كأني امازح روحي فقط. كي أغير شيء من مزاجك.
- أحبك.

باتت تبتسم له رغم ما تحملته من عذاب فاق كل تصور. كانت ابتسامتها أشبه بانتصار صغير وسط معركة طاحنة، كأنها تلوّح للحياة من خلف ستار الألم. وما إن انقضت فترة الهدنة حتى عاودها الطلق، يخاصمها بشراسة متصاعدة، ابتدأ من الساعة الثامنة والربع، فترة رأت فيها الكون والخلق على حقيقته، مجردًا من الزيف، عاريًا من المجاز، كأنها تلامس جوهر الوجود.

عند الساعة السادسة والنصف مساءً، فحصتها الطبيبة وقالت لها بهدوء: – لا يزال هناك وقت للانتظار.

لكن جنان، وقد أثقلها الألم، توسلت إليها أن تجري لها عملية قيصرية لتتخلص من هذا العناء الذي ينهش جسدها، إلا أن الطبيبة رفضت، مؤكدة أن وضعها جيد جدًا، وأن العملية القيصرية ليست ضرورية، بل إن لها تبعات كثيرة وغير مضمونة.

حتى أمها رفضت ما دار في ذهنها، مدفوعة بخوفها عليها، مدركة أن الإرهاق والمعاناة قد انعكسا على سلوكها. فمع مرور الوقت، تتراكم المتاعب النفسية والبدنية على الحامل، حتى تتحول إلى خرقة تتلاعب بها الأعباء، تفقد طاقتها وصبرها، يضيع عقلها وظنها وثقتها بنفسها، وتفقد السيطرة على ذاتها. في تلك اللحظة، لا تحتاج إلا إلى من يؤازرها، من يخفف عنها هم الكرب والمعاناة.

كان زوجها إلى جانبها، يعينها ويسندها، لكنها كانت منهكة القوى، تهذي مع نفسها، تتكلم بكلمات غير مترابطة، تائهة بين الوعي واللاوعي. لم يقصر زوجها، ولا حماتها، ولا أمها في خدمتها، ومع ذلك كانت أحيانًا تصرخ عليهم، تقلل من أدبها معهم، تستهين بهم، وكل ذلك دون وعي منها، كأنَّ الألم قد استولى على هواجسها ولسانها.

حينها ركّبت لها الممرضة جهاز قياس نبض الجنين مرة أخرى للاطمئنان على صحته، ثم داهمتها نوبة استفراغ شديدة، تقيأت فيها بشدة، شعرت بالغثيان، ربما تأثرت بروائح الأدوية والمطهرات في المشفى. وبعد أن أنهكها التعب، طلبت من الممرضة حقنة مضادة للاستفراغ عن طريق العضل، وما إن

زُرقت بها حتى غمرتها راحة مفاجئة، حمدت الله عليها، كأنها تنفست الصعداء من جديد.

في تلك اللحظة، تذكرت المرأة الآسيوية الحامل التي كانت معها في نفس القسم، فسألت الممرضة: – ما أخبار المرأة الآسيوية؟

أجابتها الممرضة: – لا تشغلي بالك بها، ولادتها عسيرة لأنها تعاني من الأنيميا، أجروا لها عملية قيصرية وهي الآن في الإنعاش.

– الله يساعدها ويشفيها، قالت جنان بصوت خافت.

عند الساعة الثامنة وأربعين دقيقة مساءً، حضرت الطبيبة مرة أخرى، وقاست توسع عنق الرحم، فوجدته قد بلغ 11 سم. حينها تشجعت جنان، وحثتها الطبيبة على الصبر والتحمل، وطلبت من القابلة تدليك عنق الرحم بالزيت للمرة الأخيرة. كانت الولادة قد دنت من خط النهاية، أصبحت وشيكة، بدأ الطلق يشتد، بات كالسياط النازل على الجسد.

طلبت من الطبيبة إبرة الظهر لتخفيف الألم، لكن أمها منعتها، خوفًا عليها، وقالت لها:...

– هذه الإبرة قد تؤدي إلى الشلل التام إن أخطأت الممرضة في زرقها ولو بمقدار شعرة، وقد تسبب ارتخاء في العضلات وتتأخر الطلق والولادة، مما قد تضطر الطبيبة إلى فتح البطن.

نصحتها أمها بتحمل الألم، على أمل أن يخف الطلق تدريجيًا، وأن لا تضطر إلى العملية. كانت كلماتها مشبعة بالخوف والحنان، كأنها تحاول أن تحمي ابنتها من كل ما قد يؤذيها، حتى لو كان ذلك على حساب راحتها.

كانت الأم قد أصابت برأيها، فتحمل الألم والصبر عليه أجدى. كانت تتوقع بأنها مستحيل أن تكمل ما بدت به لفقدانها ثقتها بنفسها مع شدة الالم المصاحب وطول فترة الطلق، كانت قد أوصت زوجها بأن يشد أزرها مع اشتداد الطلق، أن يمسك بيدها، أن يعينها على الدفق. حينها التصق بها، ظلَّ يقرأ آيات القران على رأسها طوال فترة الولادة، وبالذات آية الكرسي والمعوذات. لقد قلق عليها كثيرا.

مع اشتداد الطلق قالت لأمها:...

- سامحيني يأمي، لن أستطيع التحمل فترة أطول.
- بماذا تشعرين يا أبنتي؟
- اهجس بالنار تضرم أحشائي.
- أصبري يا أبنتي هانت الأمور، أنها عملية خلق، يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١ البقرة﴾.صدق الله العظيم
- والنعم بالله.

في تمام الساعة 9 مساءً صار الطلق يأتيها كل دقيقة. توسع عنق الرحم 12سنتمترات ونصف: بحضور الطبيبة والقابلة وجمهرة من الممرضات قربها، طلبت منها الطبيبة أن تدفع

بـالجنين، قبضـت علـى يـد زوجهـا وصـارت تـدفع بكـل قواهـا، زوجهـا يقـول لهـا هانـت هـا هـو شـعر رأس الطفـل بـائن. وضـعوا خلـف ظهرهـا مسـند، بعـد أن رفعـوا السـرير لتكـون أقـرب إلـى وضـع الجلـوس مـن النـوم، الكـل حثهـا علـى الـدفق وهـي فاقـدة القـوى، لا أدري مـن أيـن جاءتهـا القـوة فـي تلـك اللحظـة بحيـث باتـت تشـهق وتزفـر أنفاسـا عميقـة، دفعـت بكـل مـا لهـا مـن قـوة. حينهـا وحسـب مـا رأت الطبيبـة، أخرجـت القابلـة مقصـا مـن حقيبتهـا وقطعـت حلقـة العجـان بمقـدار أنـج ليتسـع المهبـل، خوفـا علـى الطفـل مـن حالـة التشـوه والاختنـاق.. أخيـرا تمكنـت مـن ولادة الطفـل وسـماع صـراخه، كانـت حينهـا أشـبه بفاقـدة الـوعي، بعـد أن أصـابها نـزف بسـيط مـع قـص حلقـة العجـان عنـد الـولادة، عالجتهـا القابلة في الحال بأربعة وخزات خياطة..

أهتمـت القابلـة بـإخراج المشـيمة وتنظيـف الـرحم وخياطـة منطقـة العجـان، كـل ذلـك دون بـنج، لشـدة الألـم لـم تشـعر بشـيء حيـال ذلـك، ثـم وضـعوا الطفـل فـي حجرهـا، قبلتـه، أحسـت براحـة بعـد أن تيقنـت مـن صـحة طفلهـا، لقـد أكملـت المهمـة علـى مـا يـرام. ثـم أخـذه أبـوه يبسـمل بأذنـه ثـم أذن بأذنـه ثـم قـرأ آيـات مـن القـرآن والمعوذات.

بعـدها أغمضـت عينيهـا لتـذهب بسـبات طويـل، جـل عـن جسـدها التعـب والارهـاق، اسـتمرت فـي نومهـا مـدة سـاعتين، حـين اسـتيقظت وجـدت أحمـد وأمهـا يجلسـان عنـد راسـها وأبنهـا مطـروح فـي المهـد قربهـا، عنـدها ابتسـمت لهمـا ابتسـامة المنتصر.

حضـرت القابلـة لتطمـأن عليهـا كمـا زارتهـا الطبيبـة لترشـدها وأعطتهـا بعـض الأدويـة التـي تعينهـا علـى الآلام وإعـادة التأهيـل، وطلبـت منهـا مراجعتهـا بعـد العـودة للمنـزل خـلال فتـرة اسـبوع لتطمأن على صحتها وصحة الجنين.

المتنبي

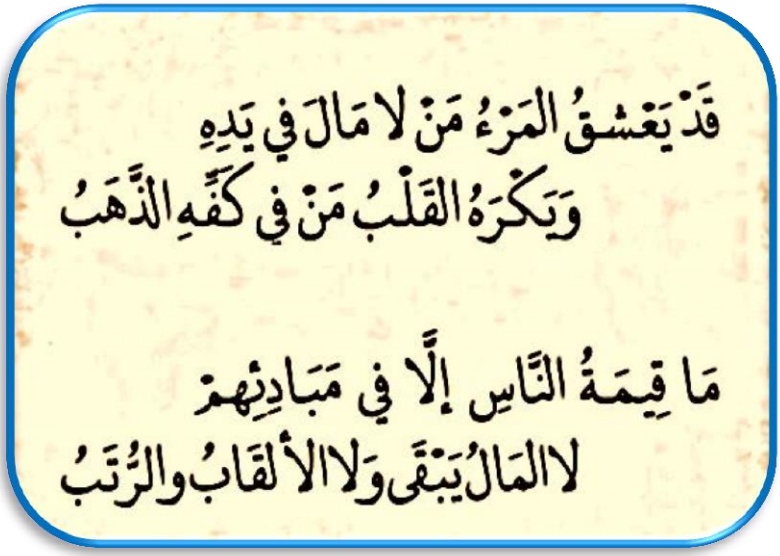
قَدْ يَعْشَقُ المَرْءُ مَنْ لا مَالَ فِي يَدِهِ
وَيَكْرَهُ القَلْبُ مَنْ فِي كَفِّهِ الذَّهَبُ
مَا قِيمَةُ النَّاسِ إِلَّا فِي مَبَادِئِهِمْ
لا المَالُ يَبْقَى وَلا الأَلْقَابُ وَالرُّتَبُ

14- زيارة هنادي واميمة

بعد أن عدت فترة النفاس (أربعين يوما بعد الولادة) حظيت بزيارة هنادي وأميمة لمباركتها بقدوم صفاء، استقبلتهن برحابة صدر بعد أن تشرفت بقدوم ضيفها صفاء، وبعد أن شفيت واستعادت صحتها وعافيتها، عندها روت لهن قصتها الايجابية مع الولادة الطبيعية، شرحت لهن ما لاقته من صعوبات من بداية ذهابها للمشفى وحتى تشريف صفاء بسلام، كيف بدأت الولادة وكيف انتهت منها!. كانت هنادي قد سألتها قائلة:.....

- كيف كانت ولادتك يا جنان؟ أشرحي لنا عسى أن نستفاد من تجربتك في المستقبل.
- هيا؛ استعجلا الزواج، عليكن الزواج وعليَّ إغناءكن بالمعلومات الكافية، عليكن أن تعلما بأن كل شيء جميل فيه من ليلة الزفة وحتى أنجاب طفلك الأول. هل تعلمان بأن المتعة تكون في الآلام المصاحبة للحمل، بعد تلك الآلام يقدم الله للأم هديته، طفل يكون سند لها في الحياة، أنظرا؛ هذا ما قدمه لي الباري عز وجل، أنه حبيبي صفاء.
- قولي غيرها هههههههه، يقولون المتعة فقط في شهر العسل والباقي فترة زوابع وثوم وبصل، هههههههههه- قالت ذلك أميمة ثم اتجهت إلى الطفل مهنئة - قائلة:... تبارك الرحمن أنه يشبهك أنه وسيم.
- لازال صغيرا بعمر شهرين، لم تتوضح معالم وجهه بعد، المهم لون عينيه بلون عيني أبيه.

- هذا ما رغبتيه، وهذه دلالة على محبتك لأحمد، تنازلتِ عن لون عينيه، لكنك احتكرت باقي مزاياه لنفسك. قالت ذلك أميمة.
- ربما هذه حقيقة يا أميمة، والحقيقة ما قلته لكنَّ، الزواج متعة لو كان زوجك مخلص معك ويحبك. والله ما اقوله انها الحقيقة، لا تحسي بالمتعة الحقيقية إلا بعد الولادة، المتعة تكون مصاحبة لك إذا كان زوجك رجل فاهم وطيب القلب وحنون.
- اوافقكِ الرأي على كل ما ذكرتيه، دعني أقبل أبنك الوسيم أولا... هل تعلمين يا جنان... أمي في الاساس مريضة سكري وتزوجت أبي، فكان لها نعم الزوج، كان قد أنساها هموم الدنيا والمرض ولايزال يعتني بها كطفلته..
- أبوك رجل طيب يا هنادي، يحب أمك، بل يعشقها، من خلال رؤيتي له لمست طيبته وسعة قلبه وذهنه، أنه رجل محترم... على كلٍ أولا أشكركن على قدومكن وهديتكن، والآن أود أن أشرح لكنَّ ما جرى معي خلال الولادة...
- هيا شجعينا على الزواج. ها أنا قد اتفقت مع خطيبي مراد على الزواج مع بداية رأس السنة الجديدة، كنت قد تعرفت عليه في العمل، شرحت تفاصيل العلاقة لهنادي.. قالت ذلك أميمة.
- أن كنت تتحملي منغصات الطلق وافقيني. قالت هنادي.

- ومع ذلك لابد أن نتزوج شئنا أم أبينا، أنها الطبيعة يا هنادي، هيا رافقيني..
- أظن سأرافقك ولكن العجينة لازالت غير مختمرة.
- يتمم الله على خير، أخبريني يا جنان، كم طالت فترة الطلق، عندما أتذكر الموقف أكره الزواج؟ سألت أميمة.
- العبرة ليس بالطلق، أنما بالنتيجة، فلا شيء له قيمة وحلاوة دون عذاب. ثم قصت لهنَّ قصتها من الالف إلى الياء.

عندها قالت هنادي:....

- لا اريد العنب ولا زراعته، ولكن ما شاء الله على صبرك وتحملك...هل تعلمين بأن هناك شخص متقدم لخطوبتي، سأخبر أمي تصرفه، بطلت الزواج، دعيني أكون ملكة نفسي، لا أتحمل كل هذا الشقاء..
- يا هنادي هذه دورة الحياة، لن تستطيعي أن تجردي ذاتك منها، أحيانا أتصفح حياة الفنانات، كلهن نادمات على عدم زواجهن أو عدم إنجابهن، دائما ما يشعرن بالوحدة. أفرضي عندما تكوني بعمر الخمسين أو السبعين سنة مثل لبلبة أو وسعاد حسني وسهير رمزي ونبيلة عبيد ...الخ اللاتي بقين دون زواج أو دون خلفة، كنَّ كرهن أنفسهن. صدقيني سيأتي يوم به يتخلى عنك الجميع إلا فلذة كبدك. ثم الحياة دون أولاد وزوج وناس من حولك يعينونك ويلبوا رغباتك ويخففوا متاعب الدنيا

والوحدة ليس لها طعم ولا لذة ولا رائحة زكية، حياة فارغة، كئيبة. تصوري قبل أيام قرأت بالجريد رجل مسن مات في مدينة كيمنتس الالمانية، لم يعرف به أحدا ولم يسأل عليه أحد طوال مدة سنة ونصف، بعد تلك المدة الطويلة تفقدوه جيرانه، لمحوا ملابسه المنشورة على المنشر منذ زمن، ذاتها لم تتغير ولم يرفعها عن الشرفة، حينها أبلغوا الشرطة، خمنوا أنه مريض.... حينها جاءت الشرطة وكسرت باب بيته، وجدوا هيكلا عظميا ممددا على فرشته. هكذا حال البشر الوحيد، مات ولم يعرف به احد.

- صدقت يا جنان، هنادي ارتعبت من ما حصل معك، كونك حامل بكر. أعتقد الحمل الثاني والثالث تختفي هذه المتاعب.
- هههههههههه، أيه يا أميمة، حمل ثاني وثالث! مستحيل طبعا، أنه حمل واحد فقط.
- عندما يكبر أبنك ويصبح بعمر سنتين، يحتاج لطفل يلعب معه، يسليه، كي لا يتوحد، عندها ستفكرين بمصلحة طفلك وتنجبين آخر، هذا ما أخبرتني به أمي حين سألتها لم أنجبتِ سبعة.

في تلك اللحظة دخلت جنان المطبخ لتجلب صينية الشاي وقطع الكيك لتحلى الجلسة أكثر، بينما حضر أحمد ومعه وجبة عائلية من ما لذ وطاب جلبها من المطعم الذي يعمل به. لقد تفرغت جنان لتربية وليدها وتنظيف البيت بعد أن حمل عنها عناء متاعب التركيب طالما يطبخ في مطعمه أنواع الأكل. ثم أكملت

حـديثها عنـدما سـألتها هنـادي عـن وضـعها وشـعورها بعـد الإنجاب:....

- أحسست براحة عظيمة، أنهيت المهمة التي كلفت بها على ما يرام. بخروج الطفل كانه قد سحب من جسدي كل الألم، هجست بإحساس غريب ونشوة. نجحت في الامتحان بإنجاز أعظم منجز في حياتي كلفني به الله، بذلك المنجز تشعر المرأة بأنها وفت ما طالب الله منها، عرفتُ سبب وجودي في الحياة، وسبب وعد الله لنا بأن الجنة تحت أقدام الامهات. كل شخص في الحياة له مهمة ورسالة يجب عليه أن يؤديها على أكمل وجه ليلقى استحسان الله به، عليه أنْ يتمم واجبه إلى جانب العبادة، لتتواصل الأجيال في بناء الأرض حتى يوم القيامة. الحمد لله كانت تجربة محفوفة بألطاف ربي ورحمته وما كانت سهلة أبداً، لكن يسيرها الله و دبر أمرها، جعلني أتحمل وزرها، لا أدري الى الان كيف تحملت تلك المتاعب.. الحمدلله.
- الحمدلله على سلامتك.
- الله يسلمكن، بعد خياطة العجان وضعت صفاء على صدري وبدأت أرضعه. أنها أجمل لحظات العمر، ثم نتيجة الإرهاق الذي أصابني نمت نومة عميقة مدة ساعتين. وحين جلست وجدت أمي وأحمد قربي، ينتظران إفاقتي.
- إذا لم تستخدمي المنفاخ (البمب) هههههههههههههه.
- هههههههههه، لالالالا

يقول سبحانه وتعالى:...
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُـمُ الَّـذِي خَلَقَكُـم مِّـن نَّفْـسٍ وَاحِـدَةٍ وَخَلَـقَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا وَبَـثَّ مِنْهُمَـا رِجَـالًا كَثِيـرًا وَنِسَـاءً وَاتَّقُـوا اللَّهَ الَّـذِي تَسَـاءَلُونَ بِـهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١ النساء).

- يـا جنـان هـذه القصـص والمواقـف المفـروض كـل فتـاة تتسلح بهـا قبـل أن تخـوض جـدياً الحمـل، ففـي فهـم الـولادة بشـكل تفصـيلي واضـح تزيـل نصـف المخـاوف أو تخفـف من أهوالها ومصاعبها.
- كنـت قـد بحثـت وسـألت؛ حتـى هـداني الله لتـأليف كتيـب يـتكلم عـن تجـارب نسـاء الحوامـل فـي الـولادة الطبيعيـة، لأنـي مؤمنـة بأهميـة العلـم والـتعلم عـن موضـوع الـولادة مـن تجـارب وحقـائق مـرت بهـا نسـوة حوامـل، هـذه القصـص تكـون أصـدق للواقـع، خصوصـاً أنـي لا أحـب سـماع هلوسـات الحـريم الغيـر متناسـقة وغيـر متناهيـة...بعـض النسـوة يفتـين مـن (كيسـهن) ومـن تجربتهـا الشخصـية أو مـا تعلمتـه مـن جـدتها أو أمهـا وليس له أي اثبات علمي...
- ما اسم الكتيب؟ دعينا نتطلع عليه.
- حسـنا، المهـم تغيـرت نظرتـي التامـة عـن الـولادة الطبيعيـة، هـدأت نفسـيتي عـن مـا كنـت قبـل أن أطلـع علـى تجـارب النسـاء، وشـعرت أن الموضـوع وردي وأليـف وجميـل، وأن قـدرة الله فيـه أكبـر مـن كـل تصـوراتنا

وتفكيرنا. سأرشدكم إلى الكتيب ليكون سندا حقيقيا لكل فتاة مقبلة على الزواج

- جميل جدا، ألم تتخوفي من نتائج الحمل؟ قالت أميمة.
- الكثير من القلق والآلام صاحبتني نتيجة رهبة المواقف ورعب المشفى، تصورات عقلية مخزنة في باطن ذاكرة كل إمرأة قبل الولادة، مثل الألم لا يحتمل، مثل الشعور بألم الحرق، المهبل ضيق قد يتشوه أو يتشوه الطفل، هذا إلى جانب توسع المهبل بعد الولادة مما يؤدي إلى عدم أحساس المرأة بالنشوة الجنسية بعد الولادة...الخ وهكذا من أحاديث وحكايات الحريم اللامتناهية والتي معضها لا أساس لها وعار عن الصحة إلا الشيء اليسير.

علما بأن الله خلق المهبل كالمطاط، يعود إلى وضعه الأصلي بنسبة 80% على ما كان عليه قبل الولادة.

- وما أخبار الآسيوية يا جنان بقيت تشغل بالي؟ هل زرتها هل سألت عنها قبل خروجك من المشفى؟.
- بعد أن استرجعت قواي طلبت من الممرضة إرشادي لغرفتها، لأقوم بواجب الزيارة قبل خروجي من المشفى، لكنها قالت لي مع الأسف لن تستطيعي زيارتها، لأننا تمكنا من الحفاظ على سلامة الطفل فقط، أما هي فلم تحتمل البقاء.

هكذا صارت تعيش حياة زوجية شبه مستقرة إلى أن انفكت عن دائرة الهجرة (السوشيال) بعد سنة من العناء من لحظة تسجيل

اسمها في دائرة الهجرة، بعد أن حصلت على إقامة لمدة سنة واحدة، على أن تتجدد في حالة لم يتغير وضعها.

خلال هذه السنة تمكنت من تثبيت زواجها لدى محاكم لايبزك، وبذا صارت مرتبطة بزوجها الحاصل على الجنسية الألمانية منذ فترة طويلة بشكل رسمي، حينها تمكنت بعد مرور سنة من الحصول على الإقامة الدائمة.

النهاية

للكاتب ستة عشرة كتابا بين
رواية ومجموعات قصصية

مجموعات قصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال
6- الأنتقام
7- المجموعة الكاملة الجزء الاول
8- المجموعة الكاملة الجزء الثاني

مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- الاقداح المتكسرة
9- عواصف الجنين
10- الفراغ
11- القمة
12- عقاب الذات

أضحت بوحدتها كدمية مركونة على فرشة بالية تصرخ خيوطها من الدعس وكثرة الاستعمال، تهلهلت مكوناتها من كثر الغسل والشطف، فالسرير ليس سريرها، والفرشة ليست فرشتها، ولا الوسادة التي أسْمّلت خيوطها، والتي عبثت بها أنفاس وأحلام وتهيؤآت مختلفة مخدتها، تشعر بها مليئة بالزن والخرش والنفش والحرش والعقارب وهوام كوابيس شيطانية تنبعث من ثناياها، فتخيفها في وحدتها، وتلسعها في منامها..